

# الوسيط

فقه المذاهب والمصطلحات الإسلامية

تأليف  
د. محمد عمارة



# الوسيط

فقه المذاهب والمصطلحات الإسلامية

تأليف

د. محمد عسابة



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٦٨



الوسيط في المذاهب والمصطلحات الإسلامية

د. محمد عمارة

داليا محمد ابراهيم

يناير ٢٠٠٠

١٥٧٧ / ١٩٩٩ م.

I. S. B. N 977 - 14 - 1148 - 9

نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة .

مدينة السادس من أكتوبر .

ت: ٣٣.٢٨٧ / ١١ . (١٠ خطوط)

فاكس: ٣٣.٢٩٦ / ١١ .

١٨ ش كامل صدقي - الفجالة - القاهرة

ت: ٥٩.٩٨٢٧ - ٥٩.٨٨٩٥ / ٢ .

فاكس: ٥٩.٣٣٩٥ / ٢ . ص.ب: ٩٦ الفجالة .

٢١ ش أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة

ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٢ / ٣٤٧٢٨٦٤ .

فاكس: ٣٤٦٢٥٧٦ / ٢ . ص.ب: ٢٠ إمبابة .

اسم الكتاب

اسم المترجم

إشراف عام

تاريخ النشر

رقم الإيداع

التقييم الدولي

التأشير

المركز الرئيسي

مركز التوزيع

إدارة النشر



## تقديم



على مر تاريخ الإنسانية ، كان الاعتراف «بالآخر» ، والتعايش معه ، والقبول به ، والتسامح وإياه ، واحدة من مشكلات الحياة في ذلك التاريخ ..

ووحده الإسلام هو الذى انتقل وارتفع بهذه القضية من نطاق «التسامح» كخلق إنسانى حميد ، وكحق من حقوق الإنسان ، إلى حيث جعلها سنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل ، وذلك عندما جعل التعددية والتنوع والاختلاف قانونا عاما فى كل عوالم المخلوقات .. فالواحدية فقط هى للذات الإلهية ، وكل من وما عدا الذات الإلهية يقوم على التنوع والتعددية والاختلاف ..

وإذا كان الإسلام - لذلك - قد تفرد بالاعتراف «بالآخر الدينى» ، انطلاقا من أن الاختلاف فى الشرائع هو سنة من سنن الله ، سبحانه وتعالى ، فى الاجتماع الدينى .. والاعتراف «بالآخر القومى» ، انطلاقا من أن الاختلاف فى الألسنة واللغات هو آية من آيات الله .. والاعتراف «بالآخر الحضارى والثقافى» ، انطلاقا من أن الاختلاف فى المناهج هو سنة إلهية نافذة وعامة فى الاجتماع الإنسانى ..

إذا كان الإسلام قد تفرد بهذا الاعتراف «بالآخر» ، كل ألوان الآخر .. فإنه لم يقف عند حدود «الاعتراف» وإنما جعل الحفاظ على هذا التنوع ، والتعايش مع هذا الاختلاف جزءا من الاعتقاد الإسلامى ، لا يكتمل إيمان المؤمن إلا إذا حافظ عليه ورعاه ..



وهذه العظمة التي تفرد بها «الفكر العقدي» في الإسلام ، قد تفرد بتجسيدها وتطبيقها تاريخ الأمة الإسلامية ، فعاشت في دارها وشاركت في حضارتها مختلف الملل الدينية ، والأنواع الجنسية ، والتمايزات القومية ، كلبنات في أمة واحدة ، تتنوع شرائعها وأجناسها وقومياتها في إطار أمة الإسلام ودار الإسلام .. وذلك وفوق السنة التي سنّها رسول الله ﷺ : «لهم مالنا وعليهم ما علينا» ... وهي السنة التي تجسدت في دستور دولة المدينة .. على عهد النبوة - بالنص على أن غير المسلمين هم مع المسلمين «أمة واحدة» .. والتي رعتها وطبقتها الأمة والحضارة عبر تاريخ الإسلام ..

وكما شملت هذه الرؤية - في التعددية - «الأخر» - الديني .. والقومي .. والحضاري .. والثقافي - شملت أيضا التنوع والاختلاف والتعددية في إطار «الذات» ، فوسعت سماحة الإسلام التمايزات الفكرية والاختلافات المذهبية في إطار ثوابت وعقائد وأصول جوامع الإسلام ..

فالإسلام قد أقام جوامع خمسة للذين ارتضوه لهم ديناً .. وفتح الباب أمام التنوع والتمايز والاختلاف في إطار هذه الجوامع الخمسة ..

● فالعقيدة واحدة .. وفي إطار ثوابتها هناك مساحات للتنوع

في كثير من التصورات ، التي تسمح بها وتحتملها قوانين التأويل ..

● والشريعة واحدة .. وفي إطار مبادئها وقواعدها تتنوع مذاهب

الفقه ، الذي هو علم الفروع ..

● والحضارة واحدة .. وفي إطار معالمها تتنوع العادات والتقاليد

والأعراف ..

● والامة واحدة .. وفي إطار وحدتها تنوع الشعوب والقبائل والأجناس في أمة الإسلام ..

● والدار واحدة .. وفي إطار وحدة دار الإسلام تنوع الأوطان والأقاليم والأقطار والولايات ..

ولذلك ، فكما عاش «الأخر الديني» في أمة الإسلام وداره وحضارته .. عاشت وازدهرت «المذاهب» في إطار ملة الإسلام .. فكانت «الفرق الإسلامية» تنوعا في التصورات بإطار ثوابت عقيدة الإسلام .. وتمايزا في المناهج السياسية ، بإطار مبادئ وقواعد السياسة الشرعية ، واجتهادات متعددة في تحقيق المقاصد الشرعية الواحدة .. كما كانت «المذاهب الفقهية» تنوعا وتمايزا للاجتهادات ، اقتضتها اختلافات الرؤى ، والتنوع في المصالح ، والاختلاف الذي تفرضه مقتضيات العادات والتقاليد والأعراف والزمان والمكان ..

بل إن عظمة الإسلام تبلغ القمة عندما تفسح نطاق «الامة الواحدة» حتى «اللبغاة» الذين يلجأون إلى القتال في حل تناقضاتهم وخلافاتهم مع الآخرين من أبناء أمتهم .. فالاختلاف ، الذي يصل بعض أطرافه إلى «بغى القتال» ، لا يخرج هؤلاء «اللبغاة» من إطار الأمة والإيمان .. ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ

وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ  
فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ (١)

فإذا كان القتال بين فرقاء الاختلاف في الأمة الإسلامية - وهو  
مكروه مردول - لا يخرج أيا من أطرافه عن الملة والأمة .. فمن  
باب أولى - دون جدال - الاختلاف في الفكر والرأى والاجتهاد  
بين أبناء أمة الإسلام ..

ولهذه الحقيقة من حقائق سماحة وتسامح الإسلام ، كان تصور  
الإسلام للعالم .. وللأمة ..

● فالعالم «منتدى» أم وملل وقوميات وثقافات وحضارات ..  
تتشرك فيما يجمعها وتجتمع عليه .. وتنوع وتمايز في  
الخصوصيات ..

● والأمة الإسلامية ، صورة من هذا العالم .. ففي عالم هذه  
الأمة اشتراك واتحاد في الأمة وفي دار الإسلام .. ثم هناك تنوع  
في الشعوب والقبائل واللغات والقوميات والملل والشرائع والأقاليم  
والأقطار والعادات والتقاليد والأعراف .. وأيضاً في المذاهب  
والفلسفات والاجتهادات ..

ولذلك ، تعايش المسلمون مع «الآخر» الديني والمذهبي ..  
وتعايشوا - أيضاً - مع التنوع المذهبي في إطار وحدة «الذات  
الإسلامية» .. ومثل كل ذلك مصادر للغنى الفكري والشراء  
الثقافي في الاجتهادات والإبداعات ..

\*\*\*

ولأن ضغوط الهيمنة الغربية على ذاتيتنا الثقافية الإسلامية تدفع صدور الكثيرين منا إلى الضيق «بالآخر الخارجى» .. ولأن اختلاط الأوراق بين ما هو «غزو واختراق» وبين ما هو «تنوع فى إطار الهوية والخصوصية» ، قد دفع ويدفع الكثيرين منا إلى حسابان «بعض الذات» «غزوا واختراقا» ، اشتدت وتشتد الحاجة إلى مطالعة صفحات كتاب حضارة الإسلام فى التنوع والاختلاف ..

وإذا كنت قد أوليت هذه القضية الكثير من الاهتمام ، فقدمت فيها - منذ سنوات طوال - العديد من الكتب والفصول<sup>(١)</sup> .. فإننى - بتوفيق من الله - أقدم اليوم للباحثين والقراء هذا الكتاب ، الذى يقدم صفحات من فكر وتاريخ المذاهب فى حضارة الإسلام - منذ القرن الهجرى الأول .. وحتى العصر الذى نعيش فيه ..

كما أقدم فى القسم الثانى منه دراسات عن عدد من المصطلحات ، التى يسهم ضبط مفاهيمها ومضامينها فى تمييز الحبيث من الطيب فى عالم الأفكار ..

والله نسأل أن ينفع به .. إنه سبحانه خير مسئول وأكرم مجيب ..

دكتور

محمد عمارة

---

(١) انظر على سبيل الخصوص كتيبنا [تيارات الفكر الإسلامى] طبعة دار الشروق سنة ١٩٩٨ م و [الصحة الإسلامية والتحدى الحضارى] طبعة دار الشروق سنة ١٩٩٨ م . و [معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام] طبعة نهضة مصر سنة ١٩٩٧ م و [الاستقلال الحضارى] طبعة الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٩٣ م .



دعوات.. ومذاهب



## الدعوة الإسلامية



الدعوة - لغة - هي : المرة الواحدة من الدعاء .. والدعاء - لغة - هو : النداء ..

والدعوة - فى الاصطلاح الإسلامى - هي : الرسالة الإسلامية .. أى دعوة الإسلام إلى التوحيد .. والرسول ، ﷺ هو : «داعى الله» .. أى الداعى إلى رسالة الإسلام ..

وفى القرآن الكريم : ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ [الرعد : ١٥] ..

وفى الحديث : «فإن دعوتهم تحيط من ورائهم ..» ..

وفى الفقه الإسلامى .. وخاصة فقه العلاقات الدولية ، والمعاملات مع غير المسلمين ، هناك تمييز بين من بلغتهم «الدعوة» ومن لم تبلغهم «الدعوة» .. أى رسالة الإسلام ..

\*\*\*

ولقد بدأت دعوة الإسلام ورسالته ، فى طورها الخاتم بنزول أمين الوحي جبريل ، عليه السلام ، على محمد ﷺ ، فى ليلة من العشر الأواخر من شهر رمضان ، وهو معتكف يتحنث ويتأمل ويتعبد لله - فى غار حراء - بمكة - وفق ما تحصل لديه من الحنيفية - بقايا ملة إبراهيم ، عليه السلام .. فكان محمد هو «أمة الدعوة» ، التى توجه إليها جبريل بالدعوة .. فلما استجاب لنداء ربه : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢)﴾

أَفْرَأَ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴿ [العلق: ١ - ٥] .. أصبح «داعى الله» ونبيه ورسوله إلى العالمين ، الذين غداوا - على مر الزمن ، وتوالى الأجيال - هم «أمة الدعوة» - الذين تتوجه إليهم دعوة الإسلام ورسالته - والذين تتكون منهم «أمة الإجابة» - التى استجابت فأمنت بالدعوة الإسلامية ..

ولقد بدأت دعوة الإسلام سرا .. وكانت خديجة بنت خويلد [٦٨٦ - ٣ ق. هـ ٥٥٦ - ٦٢٠ م] زوج رسول الله ، ﷺ ، ورضى عنها .. أول من آمن بدعوة الإسلام .. ثم استجاب لهذه الدعوة : زيد بن حارثة .. وعلى بن أبى طالب .. وأبو بكر الصديق .. وسعد بن أبى وقاص .. والزبير بن العوام .. وطلحة بن عبيد الله .. وعبد الرحمن بن عوف .. وعثمان بن عفان .. وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل .. وأبو عبيدة بن الجراح .. وكوكبة من السابقين إلى دعوة الإسلام ..

وعندما نزل الوحي على الرسول ، ﷺ ، يقول الله ، سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٥] .. دعا الرسول عشيرته الأقربين .. لكنهم قد قابلوا دعوته بالرفض والاستنكار والصدود ..

وفى السنة الرابعة من البعثة - سنة ٦١٤ م - اتخذ الرسول ، ﷺ ، لدعوته السرية ناديا يلتقى فيه من استجاب للدعوة ، ومن هو مدعو إليها ، يعلمهم فيه القرآن وعقائد الدعوة وشعائر الدين .. فكانت دار الأرقم بن أبى الأرقم ، بمكة ، ناديا لدعوة الإسلام ..

وفى السنة التالية - الخامسة من البعثة - سنة ٦١٥ م - ..  
وثمرة للاضطهاد الذى أوقعه رؤس الشرك على من آمن -  
والمستضعفين منهم خاصة - أطلت الدعوة - للمرة الأولى - خارج  
شبه الجزيرة العربية ، وذلك بواسطة أحد عشر رجلاً وأربع نسوة  
كانوا هم أول من هاجر إلى بلاد الحبشة من المسلمين .. فعبرت  
الدعوة البحر الأحمر إلى البر الأفريقى ..

وكان إسلام عمر بن الخطاب - فى السنة السابعة من البعثة -  
سنة ٦١٧ م - نقطة تحول فى أسلوب الدعوة .. فيه أعز الله  
الإسلام ، فجهر المسلمون بها ، وتركوا طور السرية فى دار الأرقم  
ابن أبى الأرقم ..

وكسراً لطوق الحصار الذى فرضه الشرك المكى على الدعوة  
الإسلامية ، توجه الرسول ﷺ ، لفتح منافذ متعددة أمامها ..  
فكان اهتباله مواسم الحج إلى المسجد الحرام لعرض دعوة الإسلام  
على وفود الحجاج من غير قريش .. ثم كانت رحلته الشهيرة إلى  
الغنائم - عقب «عام الحزن» - الذى فقدت فيه الدعوة نصرة عمه  
أبى طالب - بموته - .. وهى الرحلة التى انتهت بالصدود ! ..

لكن أهم الأبواب التى فتحتها الله ، سبحانه وتعالى ، فى جدار  
حصار الشرك المكى للدعوة ، كان ذلك الباب الذى نفذت منه إلى  
حجاج مكة القادمين من يثرب - من قبيلتى الأوس والخزرج - ..  
فعلى مدار سنوات ثلاث - هى السنوات الثلاث التى سبقت  
هجرة الرسول ﷺ ، من مكة إلى المدينة - وخلال مواسم  
حجها ، تكرر لقاء الرسول بنفر من حجاج يثرب .. فدعاهم إلى  
الإسلام ، واستجاب لدعوته بعضهم ، فبايعوه على الإيمان بالدين



الجديد . . وهذه هي البيعات التي اشتهرت في تاريخ الدعوة بـ «بيعة العقبة» - الأولى . . والثانية . . والثالثة - . . ولقد تم التعاقد وتمت البيعة في العامين الأولين على الإيمان بالدين الجديد . . وزادت بنوده في البيعة الثالثة - بالعام الثالث - سنة ٦٢١ - على تأسيس دولة الإسلام بيثرب ، عندما يهاجر إليها رسول الله ، ﷺ . .

وكما تبلورت ، في مجرى الدعوة الإسلامية ، «هيئة المهاجرين الأولين» ، التي ضمت قادة الرأي في بطون قريش الذين سبقوا إلى الإسلام . . كذلك تبلورت ، في بيعة العقبة الثالثة ، «هيئة النقباء الاثني عشر» ، الذين اختارهم من حضر هذه البيعة ، ليعقدوا مع الرسول ، ﷺ ، عقد تأسيس الدولة الإسلامية الأولى ! . . ومن هذا الباب الذي فتحه الله للدعوة في جدار حصار الشرك ، دخل الإسلام إلى يثرب . .

ودخل إليها - مع من آمن من أهلها - الداعية مصعب بن عمير ، الذي اتخذ من دار أسعد بن زرة قاعدة وناديا ومركزا للدعوة . . ثم اتخذ لها ناديا ثانيا في دار بني ظفر . .

وعندما هاجر رسول الله ، ﷺ ، من مكة إلى المدينة . . وقامت «الدعوة» «دولة» ، بدأت هذه الدعوة - في حياتها - طورا جديدا ، عندما انفتحت أمامها أفاق الانتشار ، وتعددت في حركتها سبل البلاغ . . بلاغ الدعوة إلى العالمين . .

لقد كانت الدعوة عربية اللسان . . عربية المرتكز والمنطق . . عالمية التوجه . . إلهية المقاصد والغايات . . \* وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها \* [ الشورى : ١٧ ] وما أرسلناك

إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ [الأنبياء: ١٧] ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبا: ٢٨] ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩] وكذلك الحال - حال العلاقة بين المحلية والعالمية - عند الإشارة لكتاب الدعوة ، القرآن الكريم : ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤] ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٨٧) وَلِتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨ ، ٨٩]

هذا عن المنطلقات العربية .. والآفاق الإنسانية للدعوة الإسلامية ..

وإذا كان قيام «الدولة» الإسلامية قد استحدث في حياة الجماعة الإسلامية ومجتمع أمة الدعوة جديدا ، في التنظيمات .. والقوانين .. والمؤسسات .. ووسائل إقامة «الدولة» وحمايتها .. فإن سبيل «الدعوة» ، التي تنفي الإكراه ، وتعتمد الحكمة والموعظة الحسنة ، ظلت كما هي دون تغيير .. فبالحرب تقوم «الدولة» وتتأمن حدودها ، وتتمد .. لكن العنف لا يقيم التصديق القلبي ، البالغ مرتبة اليقين - أي الإيمان بالدين ! - ..

ولذلك ، اتفقت أساليب الدعوة الإسلامية - في طورها المكي وطورها المدني - ثم عبر تاريخها كله - في هذا المقام .. ففي العهد المكي - عهد الاستضعاف - تحدد الآيات القرآنية

«الحكمة» و «الموعظة الحسنة» و «الجدال بالتي هي أحسن» سبلا  
 للدعوة ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم  
 بالتي هي أحسن ﴾ [النحل: ١٢٥] ﴿ وإن الذين أوتوا الكتاب من  
 بعدهم لفي شك منه مريب ﴾ (١٤) فلذلك فادع واستقم كما أمرت  
 ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل  
 بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا  
 وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴿ [الشورى: ١٩ - ٢٥]

وفي العهد المدني - عهد الدولة التي تجرد السيف لرد العدوان  
 ظلت الدعوة على عهدا الأول في سبيل تحصيل الإيمان . . . ﴿ وقل  
 للذين أوتوا الكتاب والأمة الإسلامية فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن  
 تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ [آل عمران: ٢٠] ﴿  
 لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه فلا ينازعنك في الأمر وادع  
 إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم ﴾ (٦٧) وإن جادلوك فقل الله أعلم  
 بما تعملون ﴿ [الحج: ٦٦، ٦٨] ﴿ وإن أحد من المشركين  
 استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ﴾ [التوبة: ١٦] ﴿  
 كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ (١٠٣) ولتكن منكم أمة  
 يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك  
 هم المفلحون ﴿ [آل عمران: ١٠٠ - ١٠٣]

لكن «الدولة» ، لأنها «إسلامية» .. كانت «دولة» «الدعوة» .. فأصبح من «عمالاتها» و «ولاياتها» و «وظائفها» العمليات والوظائف التي ينهض أصحابها بأمر الدعوة إلى الإسلام .. من تعليم للقرآن .. ففي المدينة كانت هناك «دار القراء» - «واقراء» - في ذلك العهد .. كانوا هم حفظة القرآن وعلماءه- .. ومن الذين اشتغلوا بتعليم القرآن : عبادة بن الصامت .. ومصعب بن عمير .. وعبدالله ابن أم مكتوم .. ومعاذ بن جبل .. وعمرو بن حزم بن زيد الحزرجي - في نجران - .. وبلحارث بن كعب - في نجران أيضا- . وكذلك غدت «الكتابة» و «الفقه» و «الإفتاء» و «إمامة الصلاة» و «الأذان» عمليات وولايات ، ضمن ولايات دولة الإسلام ..

أما كتب رسول الله ، ﷺ ، ورسائله ، ومعاهداته وعهوده ، التي حملت في ثناياها الدعوة إلى الإسلام .. والتي بعث بها إلى الملوك والولاة ورؤساء القبائل والعمال ورؤساء الأديان الكتابية ، فإن المحفوظ من آثارها وأخبارها يقترب من الثلاثمائة رسالة وعهد ومعاهدة .. ولقد غدت المدينة - عاصمة الدولة والدعوة - قبلة الوفود الآتية من أقطار شبه الجزيرة .. وغدا مسجدها ساحة مناظرة وحوار بين الدعوة الإسلامية ومختلف ألوان الفكر الموروث ! ..



ولقد تميزت الدعوة إلى الإسلام ، عبر تاريخ هذا الدين ، بحركتها الحرة التطوعية .. فلم تقم لها مؤسسات - كما كان حال الدعوة في ديانات أخرى - ربما لانتفاء الكهانة والرياسة الدينية من نهج الإسلام - فلم تكن «حرفة» في أغلب تاريخها وعند أغلب أعلامها ، وإنما كانت فرض كفاية ينهض بها نفر من أبناء الأمة



نيابة عن أمة الإسلام ﴿وما كان المؤمنون ليفسروا كافةً فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ [التوبة: ١٢٦] وكذلك الدعوة إلى المذاهب الفقهية . . على العكس من الدعوة للسياسة المذهبية ، فقد عرفت المؤسسات والاحتراف . .

ففي بدء الدعوة كان رسول الله ، ﷺ ، هو اداعي الله . . وبعد أن انتقل إلى رحاب بارئته أصبحت الدعوة مهمة العلماء . . ذلك أن ختم رسالات السماء إلى الأرض برسالة محمد : قد أنهى صور النبوات والرسالات المتجددة . . فأصبحت الدعوة إلى دين الله الواحد - دين الإسلام - هي مهمة العلماء . . وهذا هو معنى المأثورة النبوية التي تتحدث عن علماء الدعوة الإسلامية فتشبههم بأنبياء بنى إسرائيل - «علماء أمسى كأنبياء بنى إسرائيل» - فهم ليسوا مثلهم في «النبوة» ، وإنما في حمل رسالة الدعوة إلى الدين . . فذلك مهمة الأنبياء ، في بنى إسرائيل ، كلما هلك نبي خلفه نبي . . وهي قد غدت - في الإسلام - مهمة علماء الدعوة الإسلامية : لأنه لا نبي بعد محمد ، ﷺ . . ولأن هؤلاء العلماء - كما جاء في المأثورة النبوية - هم - في هذا الميدان - «ورثة الأنبياء» . . والأنبياء لم يورثوا درهما ولا دينارا ، وإنما ميراثهم هو الدعوة إلى دين الله (١) .

(١) مراجع :

- الدعوة إلى الإسلام للسير توماس . و . آرولد ترجمة : د . حسن إبراهيم حسن ، د . عبد المجيد عابدين ، إسماعيل الشجراوي . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م . .
- نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز الرفاعة الطهطاوي - ضمن أعماله الكاملة - ج ٤ - تحقيق : د . محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٧٧ م . .
- مجموعة الوثائق أنباسة لل معهد السون والخلافة الراشدة] جمعها وحققها : د . محمد حسنة الله . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦ م .

السلف - لغة - : هو الماضي ، وكل ما ومن ، تقدم ومضى عن  
الواقع والزمن الذي يعيش فيه الإنسان .

وفى الاصطلاح : هو العصر الذهبي الذي يمثل نقاء الفهم والتطبيق  
للمرجعية الفكرية والدينية ، قبل ظهور المذاهب والتصورات التي  
وفدت على الحياة الفكرية ، بعد الفتوحات التي أدخلت الفلسفات  
غير الإسلامية على فهم السلف الصالح للإسلام . .

والسلف - أيضا - : هو كل عمل صالح قدمه الإنسان .  
وفى القرآن الكريم يرد مصطلح السلف بمعنى : الماضي ، وما سبق  
الحياة الحاضرة التي يحياها الإنسان ﴿ فمن جاءه موعظة من ربه  
فانتهى فله ما سلف ﴾ [البقرة : ٢٧٥] - ﴿ ولا تنكحوا ما نكح  
آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف ﴾ [النساء : ٢٢] ﴿ هنالك تبلو  
كل نفس ما أسلفت ﴾ [يونس : ٤٠] ﴿ فجعلناهم سلفا ومثلا  
لآخرين ﴾ [الزخرف : ٥٦]

فالسلف ، فى القرآن الكريم ، هو الماضي ، وما سبق وتقدم على  
الحياة الحاضرة للإنسان . .

ونفس هذا المعنى - لمصطلح السلف - نجده فى الحديث النبوى  
الشريف . ففى مسند الإمام أحمد ، عن فاطمة الزهراء ، رضى

الله عنها ، أن رسول الله ، ﷺ ، قال لها ، فى مرض موته : «ولا أراه إلا قد حضر أجلى . إنك أول أهل بيتى لحوقا بى ، ونعم السلف أنالك» ، وعن ابن عباس ، رضى الله عنهما : «لما ماتت زينب ، ابنة رسول الله ، ﷺ ، قال رسول الله : «الحقنى بسلفنا الصالح الخير عثمان بن مظعون»

والسلف ، فى اصطلاح المال والتجارة ، هو : إقراض الأموال قرضا حسنا ، أى لا منفعة فيه للمقرض - بالذنى - . وبهذا المعنى ورد فى الحديث النبوى ، فعن السائب بن أبى السائب «أنه كان يشارك رسول الله ، ﷺ ، قبل الإسلام ، فى التجارة ، فلما كان يوم الفتح جاء ، فقال النبى : مرحبا بأخى وشريكى ، كان لا يدارى ولا يمارى . يا سائب ، قد كنت تعمل أعمالا فى الجاهلية لا تُقبل منك ، وهى اليوم تُقبل منك . كان ذا سلف وصلة» . - رواه الإمام أحمد - .

أى كان يقرض المال قرضا حسنا ، ويصل الأرحام .  
ولما كان كل ماض هو سلف ، فلقد شاع إطلاق هذا المصطلح مُعَرَّفًا - السلف - على الجيل المؤسس ، الذى أقام الدين ، وطبق منهج الإسلام . جيل الصحابة الذين عاشوا عصر تنزل الوحي ، وامتلكوا سليقة فهم مصطلحاته على النحو الذى كانت عليه فى عصر التنزيل ، وتلقوا عن المعصوم ، ﷺ ، البيان النبوى لبلاغ القرآنى ، وحولوا جميع ذلك إلى واقع حياتى معيش . . فغدوا - لذلك - السلف الصالح ، بتعميم وإطلاق . . ثم انضم إليهم - فى زمرة السلف - من اهتدى بهديهم وعمل بسنتهم من التابعين وتابعى التابعين . .

فالسلف ، هو : كل من يُقلد ويُقتدى أثره في الدين ..  
 وبعد «السلف» - الذين يشملون الصحابة .. والتابعين ..  
 والأئمة العظام للمذاهب الكبرى ، من تابعي الشافعيين - يأتي  
 «الخلف» ، الذين يلونهم في التسلسل الزمني .. وبعد الخلف تأتي  
 أجيال «المتأخرين»<sup>(١)</sup> ..



#### (١) مراجع :

- (١) اعتقائد السلف الثلاثة : أحمد بن حنبل ، وأبو قتيبة ، وعثمان الدارمي . جمعها ونشرها : د . علي سامي النشار ، ود . عمار الطائبي . طبعة الإسكندرية سنة ١٩٧١ م .
- (٢) (الكليات) لأبي البقاء الكعوي . تحقيق : د . عدنان درويش ، ومحمد المصري . طبعة دمشق سنة ١٩٨٢ م .
- (٣) آيات الفكر الإسلامي : للدكتور محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٨ م .



السلفية : نسبة إلى «السلف» . . والسلف هو : الماضي . . وفي القرآن الكريم : ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ ﴾ البقرة : ٢٧٠ . . وفي [لسان العرب] - لابن منظور - : «السالف : المتقدم» أى الماضي . .

ولذلك كانت السلفية الدينية ، والسلفى فى الدين : هى الرجوع فى الأحكام الشرعية إلى منابع الإسلام الأولى ، أى الكتاب والسنة ، مع إهدار ما سواهما . .

ومع وضوح هذا التعريف للسلفية ، تعددت فصائل تياراتها فى تراثنا وفكرنا الإسلامى . . فكل السلفيين يعودون فى فهم الدين إلى الكتاب والسنة ، لكن منهم فصيلاً يقف فى الفهم عند ظواهر النصوص . . ومنهم من يُعمل العقل فى الفهم . . ومن الذين يُعملون العقل : مسرف فى التأويل . . أو متوسط . . أو مقتصد . .

ومن السلفيين : أهل جمود وتقليد . . ومنهم أهل التجديد . . الذين يعودون إلى منابع لاستلهاهما فى الاجتهاد لواقعهم الجديد - ومن السلفيين من سلفهم - ماضيهم - فكر عصر الازدهار الحضارى والخلق والإبداع . . ومنهم من سلفهم - ماضيهم ومثالهم الذى يحتذونه - فكر عصر التراجع الحضارى والتقليد والجمود . .

ومن السلفيين «مقلدون» لكل التراث ، دوغما تمييز بين «الفكر»  
وبين «التجارب» .. و دوغما تمييز في «الفكر» بين «الثوابت» وبين  
«المتغيرات» .. ومنهم «مستلهمون» لثوابت التراث ، مع  
«الاسترشاد» بتجارب ومتغيرات التاريخ ..

ومن السلفيين من يعيشون في الماضي والسلف .. ومنهم من  
يوازن بين «السلف - الماضي» وبين «الحاضر - المعاصر» ..

وهذا التنوع ، الذي يقترب أحيانا من درجة التناقض ، في مناهج  
فصائل السلفية ، هو الذي أحاط مضامين هذا المصطلح ، وخاصة  
في فكرنا المعاصر ، بكثير من الغموض ، وسوء الفهم ، بل وسوء  
الظن أيضا! .. فكل إنسان هو سلفي ، بمعنى أن له سلف وسلف  
ينتسب إليه ويرجع له ، لكن التفاوت يأتي من الخلاف حول : من  
هو سلفك؟ .. وكيف تتعامل مع ماضيك؟ .. تهاجر إليه؟ .. أم  
تستدعيه؟ .. تقلده؟ .. أم تجتهد فيه؟ ..

وأشهر المدارس الفكرية التي حاولت الاستئثار ، بمصطلح السلفية  
هي مدرسة «أهل الحديث» ، التي هالها الوافد اليوناني - فلسفة  
ومنطقا - وأفرزتها عقلانية اليونان المنفلتة من النقل الديني ،  
فاعتصمت بالنصوص ، مقدمة ظواهرها ، بل وحتى ضعيفها على  
«الرأي» و «القياس» و «التأويل» وغيرها من ثمرات النظر العقلي ..  
وهي المدرسة التي انعقدت زعامتها للإمام أحمد بن حنبل (١٦٤)  
- ٢٤١ هـ (٧٨٠ - ٨٥٥ م) حتى ليحسبها البعض كل السلفية ،

بينما هي في الحقيقة واحدة من فصائل هذا الاتجاه . وفي منهاج هذه المدرسة يعلو النص على غيره ، بل ويكاد أن ينفرد بالحجية . . . فالنص . . . وفتوى الصحابة . . . واختار من فتوى الصحابة عند اختلافهم . . . والحديث المرسل والضعيف . . . ثم القياس للمضرورة - هي الأصول الخمسة التي حددها الإمام أحمد بن حنبل أركاناً لمنهج هذه المدرسة . . . رافضاً ، بذلك الرأي ، والقياس ، والتأويل ، والذوق ، والعقل ، والسببية في الفكر الديني . .

وعن هذا المنهج النصوصي «السلفية - النصوصية» - كما صاغه الإمام أحمد بن حنبل - يقول واحد من أعلامها هو الإمام ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١ هـ - ١٢٩٢ - ١٣٥٠ م) :

«الأصل الأول : النصوص . فإذا وجد النص أفتى به ، ولم يلتفت إلى ما خالفه ولا من خالفه ، كائناً من كان . . . ولم يكن يقدم على الحديث الصحيح عملاً ولا رأياً ولا قياساً ولا قول صاحب ولا عدم علمه بالمخالف .

الأصل الثاني : ما أفتى به الصحابة . فإنه إذا وجد لبعضهم فتوى ، لا يُعرفُ له مخالفٌ منهم فيها ، لم يعدّها إلى غيرها . . . ولم يقدم عليها عملاً ولا رأياً ولا قياساً . . .

الأصل الثالث : إذا اختلفت الصحابة تخيّر من أقوالهم ما كان أقربها إلى الكتاب والسنة : ولم يخرج عن أقوالهم . فإن لم يتبين له موافقة أحد الأقوال حكى الخلاف فيها ، ولم يجزم بقول .

الأصل الرابع : الأخذ بالمرسل والحديث الضعيف ، إذا لم يكن  
فى الباب شىء يدفعه ، وهو الذى رجحه - [أى الحديث  
الضعيف] - على القياس . .

الأصل الخامس : القياس للضرورة . فإذا لم يكن عنده فى المسألة  
نص ، ولا قول الصحابة ، أو واحد منهم ، ولا أثر مرسل أو  
ضعيف ، عدل إلى القياس ، فاستعمله للضرورة . .

هذا هو المنهج النصوصى لأشهر فصائل السلفية - فى تراثنا  
الفكرى وواقعنا المعاصر .

وهناك سلفيون جمعوا ما بين السلفية والتجديد ، حتى لقد  
وجدنا سلسلة المجددين عبر تاريخ الإسلام يجمعون بين السلفية  
فى فهم الدين ، وذلك عندما يعودون فى فهم الدين إلى الكتاب  
والسنة وفهم السلف الصالح لهذه المنابع الجوهرية والنقية ، ثم  
يجددون فى فهم الواقع ومستجداته ، مع عقد القرآن بين فقه  
الأحكام وفقه الواقع . . فلا يقفون - فقط - عند ظواهر النصوص ،  
وإنما يعملون فيها أدوات النظر العقلى . . وعن المنهاج التجديدى  
لهذه «السلفية - العقلانية» يعبر الإمام محمد عبده [١٢٦٥ -  
١٣٢٣هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] عندما قال : «لقد ارتفع صوتى  
بالدعوة إلى تحرير العقل من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة  
سلف الأمة ، قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفه إلى  
ينابيعها الأولى ، واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى

وضعها الله لترد من شططه ، وتقل من خلطه وخبطه ، لتتم حكمه  
الله في حفظ نظام العالم الإنساني ، وإنه على هذا الوجه يعد  
صديقا للعلم ، باعثا على البحث في أسرار الكون ، داعيا إلى  
احترام الحقائق الثابتة ، مطالباً بالتعويل عليها في أدب النفس  
وإصلاح العمل . . . »

ففي منهاج هذه السلفية العقلانية تأخى النص والعقل ، وتزامل  
العلم والدين ، وتآزرت السلفية والتجديد<sup>(١)</sup> .



#### (١) مراجع :

- (١) عقائد السلف للإمام أحمد بن حنبل - وآخرين - تحقيق : د. علي سامي النشار .  
و د . عمار طالمى ، طبعة الإسكندرية سنة ١٩٧١ م .
- (٢) [إعلام الموقعين] لأبن القيم . طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م .
- (٣) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة دار  
الشروق ، القاهرة سنة ١٩٩٣ م .
- (٤) [تيارات الفكر الإسلامى] للدكتور محمد عمارة . طبعة دار الشروق . القاهرة سنة ١٩٩٨ م .

## السلفيون

السَّلَفِيُّونَ - ومفردهما : سَلَفِيٌّ - هم : الذين يحتشدون حذو السلف ، الذين سلفوا ، أى سبقوا ومضوا .

وإذا استثنينا تيار «الحداثة» ، بالمعنى الغربى ، والتي تقيم وتقيم أصحابها «قطيعة معرفية» مع الموروث ، فإن أغلب تيارات الفكر ومذاهبه ومدارسه يمكن - بدرجات متفاوتة ، ومعانى متميزة - أن تدخل فى إطار السلفيين ، لأن لها ماضيا ومرجعية ونموذجا ترجع إليه وتنسب له ، وتحثه ، وتستصحب ثوابته ومناهجه . . فليس هناك - فى الحقيقة - صاحب فكر بلا ماضى ، مهما كان فى هذا الفكر من إبداع . . وإذا كان السلف هو الماضى ، فكلنا سلفيون . .

لكن السلفيين أنواع . . فمن السلفيين من «يقلد» السلف . . وهؤلاء هم أهل الجمود والتقليد . . ومن السلفيين من يرجع إلى السلف ، فيجتهد فى ميراثهم وتراثهم ، مميّزا فيه «الثوابت» عن «المتغيرات» ، والصالح للاستصحاب والاستلزام عن ما تجاوزته الوقائع المتغيرة والعادات المتبدلة والأعراف المختلفة والمصالح المستجدة . .

ومن السلفيين من يستلهم من فقه السلف ما يتطلبه فقه الواقع الجديد . . ومنهم من يهاجر من واقعه المعيش إلى واقع السلف الذى تجاوزته الزمان وإلى تحاربهم التى طوتها القرون . . ومن



السلفيين من سلفه عصر الازدهار والإبداع فى تاريخنا الحضارى . .  
 ومنهم من سلفه عصر الركاسة والتراجع فى مسيرتنا الحضارية . .  
 ومن السلفيين من سلفه تراثنا وحضارتنا وثقافتنا الوطنية والقومية  
 والإسلامية . . ومن السلفيين من سلفه تراث «الآخر» الحضارى  
 ومذاهبه وتياراته الفلسفية والاجتماعية ، وبهذا المعنى يمكن إدخال  
 «الليبراليين» - الذين يحتذون حذو «الليبرالية» الغربية -  
 والماركسيين - الذين يحتذون حذو الماركسية الغربية - وأمثالهم من  
 المتغربين - فى عداد السلفيين ، الذين أصبح الموروث والماضى  
 الغربى سلفالهم يحتذونه ، أحيانا مع قدر من التحوير ، وأحيانا  
 بجمود وتقليد . .

ومن السلفيين من سلفه المذاهب والتيارات «النصوصية» -  
 الحرفية» فى تراثنا . . ومنهم من سلفه تيارات العقلانية فى  
 تراثنا . . أو النزعات الصوفية فى موروثنا الحضارى . . ومن  
 السلفيين من سلفه مذهب تراثى بعينه يتعصب له ولا يتعداه . .  
 ومن السلفيين من مرجعيته تراث الأمة ، على اختلاف مذاهبها ،  
 يحتضنها جميعا ، ويعتز بها ، ويتخير منها .



لكن . . ومع صدق وصلاحيه إدخال أغلب تيارات الفكر تحت  
 مصطلح السلفيين ، إلا أن هذا المصطلح قد ادعاه واشتهره وكاد  
 يحتكره أولئك الذين غلبوا النص ، وفى أحيان كثيرة ظاهر النص ،  
 على الرأى والقياس وغيرهما من سبل وآليات النظر العقلى ، فوقفوا  
 عند «الرواية» أكثر من وقوفهم عند «الدراية» ، وحرّموا الاشتغال

«بعلم الكلام» فضلا عن الفلسفات الوافدة على حضارة الإسلام . . وهؤلاء هم الذين يطلق عليهم - أحيانا - : «أهل الحديث» ، لا اشتغالهم بصناعة المأثور وعلوم الرواية ، ورفضهم علوم النظر العقلى . .

وإمام هذه المدرسة ، هو أبو عبدالله أحمد بن حنبل [١٦٤ - ٢٤١ هـ ٧٨٠ - ٨٥٥ م] . . وفيها نجد أبرز الأئمة الذين اشتغلوا بصناعة الرواية وعلومها ، من مثل : ابن راهويه [٢٣٨ هـ ٨٥٢ م] - إمام علم الجرح والتعديل - وأصحاب الصحاح والجوامع والمسانيد : البخارى [٢٥٦ هـ ٨٧٠ م] ، وأبو داود [٢٧٥ هـ ٨٨٨ م] ، والدارمى [٢٨٠ هـ ٨٩٣ م] ، والطبرانى [٣٦٠ هـ ٩٧١ م] ، والبيهقى [٤٥٨ هـ ١٠٦٦] . . الخ . . الخ . .

ولقد تطورت هذه المدرسة - فى مرحلة ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨ هـ ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م] وابن قيم الجوزية [٦٩١ - ٧٥١ هـ ١٢٩٢ - ١٣٥٠ م] - فضمت إلى المأثور بعضا من أدوات النظر العقلى ، وإن ظلت الغلبة والأولية ، عندها للنصوص والمأثورات . .

فالمنهاج النصوصى ، لهؤلاء السلفيين ، قد صاغه الإمام أحمد ابن حنبل - شعرا - قال فيه :

دين النبى محمد أثار      نعم المطية للفتى الأخبار  
لا تُخذعن عن الحديث وأهله      فالرأى ليل والحديث نهار  
وعبر عنه أحد أعلامهم - شعرا أيضا - فقال :

العلم : قال الله قال رسوله قال الصحابة ، ليس خُلف فيه  
 ما العلم نَصَبُكَ للخلاف سفاهة بين النصوص وبين رأى سفيه  
 كلا ، ولأرد النصوص تعمدًا حذرًا من التجسيم والتشبيه  
 وعن هذا المنهاج يعبر ابن القيم ، فيقول : «إن النصوص محيطة  
 بأحكام الحوادث ، ولم يُحللنا الله ولا رسوله على رأى ولا قياس . .  
 وإن الشريعة لم تُحوجنا إلى قياس قط ، وإن فيها غنية عن كل رأى  
 وقياس وسياسة واستحسان ، ولكن ذلك مشروط بفهم يؤتيه الله  
 عبده فيها » .

فلقد ظل النص وحده هو المرجع عند هؤلاء السلفيين . .

لكن التطور قد أصاب هذا المنهاج النصوصى - فى مرحلة ابن  
 تيمية وابن القيم - فحدث إعمال الفهم والعقل فى النصوص ،  
 دون الاكتفاء بالوقوف عند ظواهر هذه النصوص . .

ولقد كان غلو هؤلاء السلفيين فى الانحياز إلى «النص» وحده ،  
 ثمرة لعوامل كثيرة ، منها مخافة غلو مضاد انحاز أهله - وهم  
 فلاسفة العقلانية اليونانية ، من المشائين - إلى عقلانية غير  
 مضبوطة بالنص الدينى . . وأيضاً النزعة الصوفية الباطنية  
 الإشراقية ، التى انحازت إلى الذوق والحدس ، دوماً ضابط من  
 النص ولا من العقل . .

ولأن هذه النزعات جميعها - النصوصية منها والعقلانية  
 والباطنية - قد شابها قدر ، كثير أو قليل ، من الغلو ، فلقد ظلت  
 عاجزة عن استقطاب جمهور الأمة ، وانحاز هذا الجمهور إلى  
 النزعة الوسطية فى السلفية ، تلك التى جمعت بين «النقل»

و«العقل» ، ووازنت بينهما ، وهى «الأشعرية» ، التى أسسها إمامها أبو الحسن الأشعرى ، على بن إسماعيل ( ٢٦٠ - ٣٢٤ هـ ٨٧٤ - ٩٣٦ م ) . . .  
 وفى هذه المدرسة - من مدارس السلفيين اجتماع النقل والمأثور مع النظر العقلى والاستغفال بعلم الكلام - الذى حرّم السلفيون النصوصيون الاشتغال به - مع علم أصول الفقه - الذى يمثل فلسفة العقلانية الإسلامية فى التشريع - ثم تطورت هذه المدرسة - بعد مرحلة التأسيس - على يد كوكبة من أئمتها ، فى مقدمتهم الباقلانى . أبو بكر محمد بن أبى الطيب ( ٤٥٣ هـ - ١٠١٣ م ) وإمام الحرمين ، الجوينى ، أبو المعالى عبد الملك بن عبد الله بن يوسف ( ٤١٩ - ٤٧٨ هـ ١٠٢٨ - ١٠٨٥ م ) وحجة الإسلام أبو حامد الغزالى ( ٤٥٠ - ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ - ١١١١ م ) . .

وعلى امتداد تاريخ الحضارة الإسلامية ، ظلت هذه الصورة وهذه الموازنة . . ملحوظة فى مدارس ومذاهب السلفيين . . فالنزعة النصوصية تمثلها فى عصرنا الحديث وواقعنا المعاصر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ( ١١١٥ - ١٢٠٦ هـ ١٧٠٢ - ١٧٩٢ م ) - «الوهابية» ، بينما لا تزال «الأشعرية» - الممثلة «للعقلانية - النصوصية» - تستقطب جمهور المسلمين<sup>(١)</sup> .

(١) مراجع :

- (١) إحقاقه السلف للإمام أحمد بن حنبل ، وابن قتيبة ، وعثمان الدارمى . جمعها ونشرها د . على سامى الشار ، ود . عمار الطالبي . طبعة الإسكندرية سنة ١٩٧١ م
- (٢) [إعلام التوفيق] لابن القيم . طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م
- (٣) [مقالات الإسلاميين] للأشعرى . تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩ م
- (٤) [نبرات الفكر الإسلامى] للدكتور محمد عمار . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٨ م

ويقال لهم « أهل السنة والجماعة » . . والمراد بهم من عدا الشيعة والخوارج من فرق الإسلام ، لتأسيهم بسنة الرسول ﷺ ، وطريقته ، ولاجتماع الأمة على أصول مذهبهم ، رغم التمايز في الفروع والتفاصيل . .

وفي إطار أهل السنة يتمايز فصيلان : « أهل الحديث » الذين مائلوا إلى « المأثور » من السنة - [ انظر : « أهل الحديث » ] - . . و « الأشعرية » الذين وازنوا بين « المأثور » وبين « الرأي » ، فتوسطوا ، في « التأويل » ، بين منكره وبين المغالين فيه - [ انظر « الأشعرية » ] - . . والأشعرية - وسعهم « الماتريدية » - الذين لا يتميزون عنهم كثيراً - هي الفرقة التي تبعها جمهور الأمة . . فهم الأقرب إلى جداره التسمية بأهل السنة والجماعة . . وهم قد استقطبوا جمهور الأمة - في الأصول والفروع - لقربهم من منهاج الوسطية الإسلامية ، الذي هو خصيصة فلسفة الإسلام وحضارته . . فهم مع « التنزيه » للذات الإلهية - في مسألة الصفات - على نحو من التصور الوسط بين « التعطيل » وبين « التجسيم والتجسيد والشبيه » . .

وهم مع « علم الكلام » ، على نحو توسط بين أهل الحديث وأهل الاعتزال . .

وهم مع عقلانية متوسطة بين غلو الفلاسفة وتنكر أهل  
الحديث ..

وهم - فى القدر - مع نظرية «الكسب» - التى تثبت للإنسان  
قدرة تتوسط بين «الجبر الخالص» وبين «التفويض الكامل» ..  
وكذلك كان توسطهم فى كل المشكلات التى تناقض فيها رأى  
أهل الحديث ورأى المعتزلة على نحو حاد<sup>(١)</sup> .



---

(١) مراجع:

(١) [مقالات الإسلاميين] للأشعرى - طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩ م .

(٢) [تيارات الفكر الإسلامى] للدكتور محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٩١ م



هى أكثر الفرق الإسلامية جمهوراً بين المسلمين .. حتى يطلق عليها . فى أحيان كثيرة : أهل السنة .. أو أهل السنة والجماعة .

ولقد اشتهرت هذه الفرقة باسم «الأشعرية» ، نسبة إلى إمامها الأول والمؤسس : الأشعرى ، أبو الحسن ، على بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبدالله بن موسى بن بلال بن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى [٢٦٠ - ٣٢٤ هـ ٤٨٧ - ٩٣٦ م] . وكان الأشعرى - الذى ولد ونشأ فى البصرة - حاضرة الفكر الاعتزالى - فى بداية حياته معتزلياً ..

لكنه خرج على المعتزلة أواخر القرن الهجرى الثالث .. ثم قضى نحو ربع قرن فى محاورتهم ، وفى تأسيس المذهب الجديد ..

ولقد كان المناخ الفكرى الذى أثمر هذا التحول وهذه النشأة للمذهب الجديد ، قد تميز بسيادة الاستقطاب الحاد بين «العقلانية - الاعتزالية» - التى كانت قد مالت بعض الميل عن توسطها الأول بتأثير الفلسفة اليونانية ، التى اكتمل حضورها - بعد ترجمتها للعربية - فى القرن الثالث الهجرى .. الاستقطاب الحاد بين هذه «العقلانية - الاعتزالية» وبين «النصوصية -

الحرَفيّة» لأهل الحديث .. الذين ازدادوا جموداً على ظواهر  
النصوص بمقدار ما أحدثت الفلسفة اليونانية في الحياة الفكرية  
الإسلامية من تأثيرات : ..

في ظل هذا الاستقطاب الحاد كانت الحياة الفكرية الإسلامية  
بحاجة إلى من يذكر علماء الأمة وجمهورها بالوسطية الإسلامية ،  
التي تنقذ العقلانية من الميل نحو مذهب اليونان فيها ! ..

وتنقذ النصوص من الوقوف عند ظواهرها ! .. فكان الأشعرى هو  
إمام هذا الإنجاز .. وكانت الأشعرية هي صورة الوسطية الإسلامية  
في ذلك المناخ وفي تلك الملابسات ..

ولقد نجحت الأشعرية في تقديم صورة جديدة للوسطية  
الإسلامية ، كسرت حدة الاستقطاب «الاعتزالي - السلفي -  
الحرقي» ، واستدعت سمات عديدة من المذهبين ، فأثقت  
بينها .. وكان نجاحها الأعظم في تحقيق وحدة جمهور الأمة حول  
هذا الاتجاه ..

● لقد رأت أن المعتزلة قد غلوا في «التنزيه» إلى حد  
«التعطيل» .. وأن «الحشوية» - العاجزين عن تجاوز ظواهر  
النصوص - قد بلغوا في «التشبيه» إلى حد «التجسيد والتجسيم»  
فسلكت بين السبيلين طريقاً وسطاً .. يثبت للذات الإلهية  
الصفات التي وصف بها ذاته ، ولكن مع ضبط العبارات بالضوابط  
التي تصرف المعنى عن «التجسيم والتجسيد» .

● ورأت إجحام الفقهاء عن علم الكلام - كراهة في المعتزلة ،  
الذين أسسوه ! - .. كما رأت إهمال المتكلمين لمنهج أصول الفقه  
- الذى أبدعه خصوم الاعتزال : - .. فجمعت الأشعرية بين  
الفقه وأصوله وبين علم الكلام ..

● ورأت الأشعرية نفور «السلفية - النصوصية» من أدوات النظر  
العقلى .. وصيل الفلاسفة إلى العقل على حساب النقل ..  
فأرادت التوسط بين العقل والنقل ، على نحو أعلى سلطان النقل  
على العقل فى كثير من الأحيان ! .. لأن الخطر الماثل كان - فى  
رأيها - هو خطر الاعتزال ، الذى هضم حق النقل لحساب العقل ! ..

● ورأت «الجبرية - الخُلص» - أصحاب الجبر الخُص - قد أنكروا  
أن يكون للعبد شئ فى أفعاله - فهو - عندهم - كالريشة فى مهب  
الريح ! بينما المعتزلة يقولون إنه خالق أفعاله ، على سبيل الحقيقة لا  
المجاز ! .. فتقدمت الأشعرية بنظرية «الكسب» طريقاً وسطاً بين  
المتطرفين ، وفيه حاولت التمييز بين «الفعل الجبرى» وبين «الفعل  
الاختيارى» للإنسان .. وأثبتت للإنسان «قدرة» و «استطاعة» مع  
الفعل .. مع التحفظ على هذه «القدرة» و «الاستطاعة» بالقول إن  
تأثيرها لا يرقى إلى درجة الخلق والإحداث ! ..

● ورأت الأشعرية أن «المشبهة» يثبتون «رؤية الناس لله  
بالأبصار» ، على نحو يودى إلى تحديد الذات الإلهية وتجسيمها  
وتجسيدها .. بينما المعتزلة ينكرون الرؤية البصرية بإطلاق ..  
فحاولت التوسط بين المذهبين ، فقالت برؤية بصرية من غير تحديد  
ولا تجسيم ! ..

● ورأت الأشعرية أن «الحشوية» - من «السلفيين» -  
النصوصيين» - يقولون بقدّم القرآن ، معنى وحروفا وأصواتا . .  
بينما المعتزلة يقولون إنه مخلوق . . فتوسّطت بينهما فقالت بقدّم  
الكلام النفسى ، ويحدوث الحروف والأصوات ! . .

● وفى تفسير الآيات التى تتحدث - فى حق الله سبحانه  
وتعالى - عن «الوجه» و «اليد» و «الجبىء» و «الاستواء» . . رأت  
الأشعرية إحجام «السلفية» - النصوصية» عن التأويل ، وذلك دون  
تقويض فى معناها ، أو تنزيه لله عن شبه المخلوقات . . بينما أكثر  
المعتزلة وبالغوا فى تأويل هذه الآيات . . فحاولت التوسط بين  
النهجين ، بإثبات «الوجه» و «اليد» و «الجبىء» و «الاستواء» ،  
ولكن بلا «كيف» . . فاختارت «الإثبات» دون «التشبيه» ! . .

● ورأت الأشعرية غلو «السلفية» - النصوصية» فى رفضها أن  
يكون «العقل» مصدرا للمعرفة الدينية . . وغلو المعتزلة فى الركون  
إليه ، حتى لقد قال فريق منها «بالشريعة العقلية» . . فسلمت  
بالعقل ، كمصدر من مصادر المعرفة ، مع اختصاص الوحي  
بالمرجعية فى «الوجوب» و «التكليف» ! . .

هكذا . . وعلى هذا النحو ، صاغ أبو الحسن الأشعرى معالم  
الوسطية الأشعرية ، التى برزت فى مناخ الاستقطاب «الاعتزالى» -  
السلفى» ، فجمعت جمهور الأمة وحققت وحدتها . .

هم - فى الأخبار - : أهل الرواية والجمع لحديث رسول الله ﷺ . . وفى علم الكلام : التيار الذى جعل النصوص المرجع الوحيد للدين ، مع رفض «الرأى» و «العقل» و «القياس» و «التأويل» ، وغيرها من أدوات النظر العقلى - رفض أن تكون لها مرجعية أو مدخل فى المعرفة الدينية . . بل لقد رفضوا ، فى أحيان كثيرة ، أن يكون للنظر العقلى مدخل فى سبر أغوار النصوص ، وفضلوا الوقوف عند ظواهرها ، أو قريبا من هذه الظواهر ! . .

ولقد كان العصر العباسى هو الحقبة التى تبلورت فيها هذه المدرسة الكلامية ، بزعامة إمامها أبو عبد الله أحمد بن حنبل [١٦٤ - ٢٤١ هـ - ٧٨٠ - ٨٥٥ م] . .

ولقد صاغ الإمام أحمد بن حنبل أصول هذا «المنهاج النصوصى» الخمسة . . والتى عرضها ابن القيم [١٢٩٢ - ١٣٥٠ م] بهذا الترتيب :

«الأصل الأول : النصوص . . والأصل الثانى : ما أفتى به الصحابة . . والأصل الثالث : إذا اختلف الصحابة تخير من أقوالهم . . والأصل الرابع : الأخذ بالمرسل والحديث الضعيف ، وتقديهما على «الرأى» و «القياس» . . والأصل الخامس : القياس للضرورة . .» كما صاغ الإمام أحمد هذا المنهج شعرا ، فقال :



دين النبي محمد آثار      نعم المطية للفتى الأخبار  
لا تُخدعن عن الحديث وأهله      فالرأى ليل واخذيث نهار  
ولربما جهل الفتى طرق الهدى      والشمس طالعة لها أنوار  
وبتطبيق هذا المنهج ، فى ميدان العقيدة : أثمر هذه المعالم فى  
الاعتقاد :

أ- الإيمان : قول وعمل .. وهو يزيد وينقص ، تبعاً لنقاء العقيدة  
أو شوبها ، وتبعاً لزيادة العمل أو نقصانه .

ب- والقرآن : كلام الله ، وفقط .. فليس بمخلوق - كما تقول  
المعتزلة - وليس شريكاً فى قدمه كما يُلزمُ المعتزلةُ نفاة القول بخلق  
القرآن ،

ج- وصفات الله : سبحانه وتعالى ، التى وصف بها نفسه ،  
وأثبتها لذاته ، نصفه بها ونثبتها لذاته ، على النحو الذى وردت عليه  
فى النصوص الماثورة ، لاندجأ فى بحثها إلى «رأى» أو «تأويل» ..

د- وعالم الغيب : لا ينبغي أن نخوض فى بحث شىء منه ، بل  
يجب أن نفوض حقيقة علمه إلى الله سبحانه ..

هـ- ورؤية أهل الجنة لله : عقيدة حق يجب أن يؤمن بها المؤمن ،  
دون «تأويل» أو «تمثيل» كما وردت بها ظواهر النصوص ..

و- وعلم الكلام : منكر ، منكر ! .. الاشتغال به منكر ، وأخذ  
العقائد بأدلته منكر .. بل ومجالسة أهله منكر ، مهما كان دفاعهم  
به عن الإسلام ..

ز- والقضاء والقدر: لا يكتمل الإيمان بدون الاعتقاد بهما ..  
وهما من الله ، سبحانه وتعالى .

ح والذنوب الكبائر: لا تجعل المؤمن كافرا ، ولا تخلده في النار ،  
على عكس قول الخوارج في الأمرين ، وقول المعتزلة في الثاني ..

ط - وخلافات الصحابة: لا يصح الخوض فيها ، بل يجب العدول  
عن ذكرها ، والوقوف عند محاسنهم وفضائلهم ..

ي وترتيب الخلفاء الراشدين في الفضل: وفق ترتيبهم في  
تولي الخلافة ..

ك- وطاعة ولي الأمر: واجبة حتى ولو كان فاجرا فاسقا ، والخروج  
عليه منكر ، لما يجلبه ذلك من الأخطار ، وما يعطله من مصالح  
الناس في حياتهم اليومية ..

ل- والفرائض .. والمعاملات .. والجهاد : تؤديها وغارسها على  
النحو الذي جاءت به النصوص في القرآن والسنة .. وكما شهدت  
«الأشعرية» - بعد مرحلة التأسيس - تطورا مثله الغزالي  
والباقلاني والجويني - فلقد مثل ابن تيمية ٦٦١ - ٧٢٨ هـ  
١٢٦٣ - ١٣٢٨ م وتلميذه ابن القيم مرحلة جديدة في مدرسة  
أهل الحديث ، زادت فيها جرعة العقلانية الإسلامية ، عندما  
أصبح الخطر الأكبر على الفكر الإسلامي هو الجمود والتقليد ..  
وليس الاعتزال المشبع بالفلسفة اليونانية ، كما كان الحال على  
عهد الإمام أحمد بن حنبل .

وتعد الوهابية - المنسوبة إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب [ ١١١٥ - ١٢٠٦ هـ ١٧٠٣ - ١٧٩٢ م ] امتداداً للمدرسة أهل الحديث ، تناسب مع التحديات والآفاق التي حكمت أوضاع بادية نجد ، في شبه الجزيرة العربية ، في القرن الثاني عشر الهجري - الثامن عشر الميلادي<sup>(١)</sup> -



---

(١) مراجع :

- (١) [إعلام الموقعين] لابن القيم ، طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م .  
(٢) [تأراات الفكر الإسلامى] للدكتور محمد عمارة - طبعة دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٩١ م .

الحشوية - بفتح الحاء وسكون الشين - وقد تفتح وتضم - وكسر الواو وتشديد الياء مفتوحة - من الحشو - بمعنى : مالا فائدة فيه ! .

ولقد أطلق هذا المصطلح - الحشوية - أو أهل الحشو - في علم الكلام الإسلامي كصفة تحقير وازدراء على الذين قصرت بهم مداركهم العقلية عن التفلسف والتقدم في صناعة الحكمة ، فوقفوا عند ظواهر النصوص ، عاجزين عن إدراك أسرارها . . ومن ثم فإنهم - وخاصة في النصوص الموهمة ظواهرها للتشبيه والتجسيد والتجسيم لله سبحانه وتعالى قد عجزوا عن التجريد والتنزيه للذات الإلهية ، فكانوا ، لذلك ، مشبهة ومجسمة . .

وفي تراث المعتزلة - وهم فرسان العقلانية الإسلامية - نراهم يعممون إطلاق مصطلح «الحشوية» على «أهل الحديث» ، لإحجامهم عن «التأويل» للنصوص الموهمة لظواهرها للتجسيم والتشبيه . .

بينما لا يعمم غير المعتزلة إطلاق هذا المصطلح على كل «أهل الحديث» ، لأنهم لا يصرحون بالانحياز إلى التشبيه والتجسيم . . بل ويميلون إلى رفضه عندما ينفون «الكيف» عن الذات الإلهية . . فهم يثبتون له - مثلاً - «الوجه» و «اليد» و «الجوى» و «الاستواء»

ولكن «بلا كيف» ، أى على نحو مغاير لما لهذه الجوارح والصفات من شكل وجسم فى المخلوقات والمحدثات ! . .

وهناك اتفاق فى إطلاق مصطلح «الحشوية» و «أهل الحشو» على الذين يؤدى بهم التمسك بظواهر النصوص إلى القول بالتجسيم والتجسيد والتحيز فى المكان بالنسبة للذات الإلهية . . واتفاق على أن القائلين بذلك هم من الفرق الضالة . .

وفى تعريف الإمام تاج الدين السبكي ٧٢٧ - ٧٧١ هـ ١٣٢٧ - ١٣٧٠ م] لهذه الطائفة يقول عنها : «الحشوية : طائفة ضلوا عن سواء السبيل ، يُجرون آيات الله على ظاهرها ، ويعتقدون أنه المراد . .»

ثم نراه يعلل إطلاق هذا المصطلح - الحشوية - بفتح الشين - فيقول : «سموا بذلك لأنهم كانوا فى حلقة الحسن البصرى ٢١١ - ١١٠ هـ ٦٤٢ - ٧٢٨ م] فوجدهم يتكلمون كلاماً ، فقال : ردوا هؤلاء إلى حشاء الحلقة . فنسبوا إلى حشاء ، فهم حشوية ، بفتح الشين» !  
بينما يعلل آخرون تسميتهم بالحشوية لعلاقة التجسيم بالجسم ، والجسم حشو ، فالنسبة إلى الحشو . . ولذلك فهم حشوية - بسكون الشين - . .

وهناك آراء شاذة فى تعليل هذه التسمية بهذا المصطلح ، يرى أصحابها أن المراد بالحشو هو الدّين ، لأن مصدره الكتاب والسنة ، وهما واسطة بين الله ورسوله وبين الناس . . والواسطة فى الشيء هى حشوه ؟ !



وإذا كان «الحشَو» - فى الأفكار والمعانى - هو الزائد الذى لا معنى له ولا داعى لوجوده . . فإن الحشَوَّة - فى الفرق الإسلامية - على أصح الأراء وأكثرها منطقية - هم الذين قصرت بهم مداركهم العقلية عن أن يبدعوا ما هو مفيد . . فوقفوا عند ظواهر النصوص وقوف العامة ، حتى لقد وقعوا فى مستنقع التجسيم والتشبيه والتجسيد بحق الذات الإلهية ، عندما عجزوا عن التجريد والتأويل والتنزيه<sup>(١)</sup> .



(١) مراجع :

- (١) [كتابات اصطلاحات الفنون] للتهانوى - طبعة الهند سنة ١٨٩٢ م .
- (٢) [نيارات الفكر الإسلامى] للذكور محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٨٥ م .

ويسمون بـ «المُحَكِّمة» - لقولهم : لا حكم إلا لله - .. وبـ «الشُّرَاة» - لقولهم إنهم اشتروا الآخرة بالأولى - الدنيا - .. والجنة بأرواحهم و «بالحرورية» - لاجتماعهم أولا بـ «حروراء» - على مقربة من «الكوفة» - .. لكن غلبت عليهم تسمية «الخوارج» - التى لم يختاروها هم لأنفسهم ابتداءً ؟ ! ..

والخوارج هم أولى الفرق الإسلامية التى تبلورت فى مجرى الصراع الذى دار حول الخلافة ، وحول الموقف من قتلة عثمان بن عفان ، والذى بلغ حد القتال بين أنصار على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان .. فبعد التحكيم الذى أعقب وقف القتال فى موقعة «صفين» [ ٣٧ هـ ٦٥٧ م ] رفض فريق من أنصار الإمام على نتائج هذا التحكيم ، وحكموا بكفر من قبلوا به ، وأعلنوا الحرب على طرفى الصراع ...

ولقد مثل الخوارج ، فى التاريخ الإسلامى : «ثورة مستمرة» ونزيفا داخليا ، أضعف الدولة الإسلامية ، دون أن يتمكنوا من إقامة دولة مستقرة لفرقتهم طوال هذا التاريخ ..

وكما جمعتهم «مبادئ ومقولات» - .. فلقد فرقت صفوفهم «مسائل» ، جعلتهم ينقسمون إلى فرق بلغ تعدادها ، عند بعض المؤرخين ، سبعا وعشرين فرقة ..

لقد اجتمعوا جميعا على :

١ - أن الخلافة لمن تجتمع فيه شروطها ، عربيا كان أو أعجميا ، قرشيا كان أو غير قرشي . . وكان أول أمرائهم أزديا - غير قرشي - وهو عبدالله بن وهب الراسبي [ ٣٨ هـ - ٦٥٨ م ] . . وكذلك كان أغلب أمرائهم من غير قریش .

٢ - وفي الثورة إجتمعوا على نظرية « الثورة المستمرة » . . فمتى بلغ الشوار أربعين ثائرا « وجب » عليهم الخروج ، وكانوا على « حد الشراء » - شراء الجنة بأرواحهم - . .

٣ - وفي تقويم التاريخ الإسلامي : يتولون خلافة أبي بكر وعمر . . وخلافة عثمان قبل أحداث سنوات حكمه الأخيرة . . وخلافة عليّ قبل التحكيم - مع البراءة من عثمان وعلى بعد الأحداث والتحكيم . . ومع البراءة من بنى أمية - خلا عمر بن عبد العزيز - ومن بنى العباس . .

٤ - وفي طريق تعيين الخليفة والإمام : هم مع الثورى والاختيار والبيعة ، ككل أهل السنة . . وضد نظرية « النص » . . والتعيين التى يقول بها الشيعة .

٥ - وفي مرتكبي الذنوب الكبائر : يقولون بكفرهم وخلودهم فى النار ، إن ماتوا غير تائبين منها . .

٦ - وفي « العدل » - مبحث « الحرية » . . والاختيار - انحاز الخوارج إلى حرية الإنسان واختياره ، ضد الفكر الجبرى . .

٧ - وفي « التوحيد » : كانوا مع تنزيه الذات الإلهية عن مشابهة

المحدثات ، ومع نفي مغايرة صفات الله لذاته ، أو زيادتها على الذات . . ولقد أدى نفيهم قدم الصفات ، كى لا يتعدد القدماء . . أدى ذلك إلى نفيهم قدم «الكلمة» ، فقالوا - كالمعتزلة - يخلق القرآن .

٨ - وفي الوعد والوعيد : قالوا بصدق وعد الله للمطيع . . وصدق وعيده للعاصي . . دون تخلف الوعد أو الوعيد لسبب من الأسباب .

٩ - وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : قالوا بوجوب إقامة هذه الفريضة - التي هي جماع الفكر السياسى الإسلامى - إقامتها ولو بالثورة ، لتغيير المنكر وإزالة نظم الجور والفساد . .

أما الفرق التي انقسموا إليها . . فلقد اشتهر منها :

١ - الأزارقة . . ب - والنجدات . .

ج - والإباضية . . د - والصفرية . .

ولقد بقيت منهم ، حتى الآن ، بقايا من الإباضية ، في عُمان . . وتونس . . وزنجبار . . مع تطور فى الفقه . . وابتعاد عن نظرية الأوائل فى الثورة والخروج <sup>(١)</sup> .

(١) مراجع :

(١) [الكامل] للمبرد - طبعة دمشق سنة ١٩٧٢ م .

(٢) [تيارات الفكر الإسلامى] للدكتور محمد عمارة - طبعة دار الشروق - القاهرة

سنة ١٩٩١ م .

إحدى فرق الخوارج .. تنسب إلى زعيمها نجدة بن عامر الخنفي - الحروري - [٣٦ - ٧٢ هـ ٦٥٦ - ٦٩١ م] .. تكونت بعد انقسام الخوارج إلى فرق [٦٤ هـ - ٦٨٤ م] ..

والنجدات يتفقون مع كل الخوارج في أمور ويتميزون بأمور .. فجميع فرقهم متفقة على أن :

١ - الخلافة والإمامة يتولاها من توفرت فيه شروطها ، عربيا كان أم أعجميا ، قرشيا كان أم غير قرشي ..

٢ - والثورة فريضة ضد أئمة الجور والضعف والفساد .. ووجوبها فرع عن فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٣ - وهم يتولون أبا بكر وعمر .. وعثمان بن عفان قبل الأحداث التي أحدثها في السنوات الأخيرة من حكمه ، ويبرأون منه فيها وبسببها .. ويتولون علي بن أبي طالب فيما سبق «التحكيم» بينه وبين معاوية بن أبي سفيان ، ويبرأون منه بسببه وفيما بعده ..

٤ - وطريق الخلافة هو الشورى والاختيار والبيعة من ممثلي الأمة ..

٥ - والإنسان حر مختار ..

٦ - واللّه ، سبحانه وتعالى ، منزّه عن مماثلة ومشابهة المخلوقات  
والحدثات ..

فى هذه المقولات والأصول تتفق النجديات مع فرق الخوارج  
الأخرى .. ثم ينفردون عنهم بأمور ، أهمها أن الدين أمران ، هما :

أ - معرفة الله ، سبحانه ، ومعرفة رسوله ، ﷺ ، وتحريم دماء  
المسلمين وأموالهم .

ب - والإقرار بما جاء من عند الله جملة .. أما تفاصيل الحال  
والحرام والشرائع فالجاهل بها معذور .

كما تنفرد النجديات ، فى الفكر السياسى ، بالقول إن «الدولة» -  
أى الإمامة والخلافة - واجبة بالعقل ، وليس بالشرع .. فإقامتها  
معللة بالحكمة الغائية منها ، وليست تعبدية ، فإذا قام العدل  
والتناصف بين الناس ، دون دولة ، لا تحب عليهم إقامتها ..  
واستندوا فى رأيهم هذا إلى عدم وجود نص فى الكتاب والسنة  
يوجب الإمامة والخلافة .. وغيبة النص المتواتر لا تجعل الإجماع  
على إقامتها شرعياً ، لأن شرعية الإجماع تقتضى استناده إلى  
نص شرعى ..

والشهريستانى [٤٧٩ - ٥٤٨ هـ ١٠٨٦ - ١١٥٣ م] - وهو أدق  
من وعى حقيقة مذهبهم هذا - يتحدث عنه فيقول : لقد رأوا أن  
الإمامة غير واجبة فى الشرع وجوباً لو امتنعت الأمة عن ذلك  
استحقوا اللوم والعقاب ، بل هى مبنية على معاملات الناس ، فإن  
تعادلوها وتعاونوا وتناصروا على البر والتقوى ، واشتغل كل واحد من



المكلفين بواجبه وتكليفه ، استغنوا عن الإمام ومتابعته ، فإن كل واحد من المجتهدين مثل صاحبه في الدين والإسلام والعلم والاجتهاد ، والناس كأُسنان المشط . ، فمن أين يلزم وجوب الطاعة لمن هو مثله؟! » .

وهذه النظرية في «الدولة» تشبهها نظريات حديثة تنبأ بذهول «الدولة» وزوالها في مراحل قادمة من مستقبل التطور الإنساني<sup>(١)</sup> ! .



---

(١) مراجع :

(١) [تاريخ الطبري] ج ٥ ، ٦ . طبعة دار المعارف . القاهرة .

(٢) [تيارات الفكر الإسلامي] للدكتور محمد عمارة - طبعة دار الشروق . القاهرة

سنة ١٩٩١ م .

واحدة من أهم فرق الخوارج ، تنسب إلى زعيمها نافع بن الأزرق  
ابن قيس الحنفى الحرورى [٦٥ هـ - ٦٨٥ م]

وهم - ككل الخوارج - يرون :

- الإمامة والخلافة فيمن تتوفر فيه شروطها ، بصرف النظر عن  
جنسه وعن قبيلته . . فلا يشترطون فى الخليفة عروبة ولا قرشية . .
- وطريق الإمامة الشورى والاختيار والبيعة . . فيرفضون قول  
الشيعة إنها بالنص والتعيين من الله سبحانه وتعالى .
- ويتولون ويوالون أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، كخلفاء  
راشدين . . وكذلك عثمان بن عفان فى السنوات الأولى من  
عهده . . ويبرأون منه فى السنوات السبع الأخيرة من حكمه ، لما  
يرون فيها من أحداث مخالفة لرشادة الخلافة ومنهجها . . ومثل  
ذلك موقفهم من الإمام على بن أبى طالب ، يتولونه فيما قبل  
« التحكيم » بينه وبين معاوية عقب موقعة صفين ، ثم يبرأون منه  
بعد التحكيم . .

● ويبرأون من الدولة الأموية ، باعتبارها اغتصابا للخلافة ،

ويرون في خلفائها مرتكبين للذنوب الكبائر ومصرين عليها - أى كفارا - .

● ويغالون في الحكم على مرتكب الكبائر ، المصّر عليها ، الذى يموت دون توبة منها ، فيقولون بكفره ، وبخلوده فى النار . . على حين قال البعض بإيمانه ، والبعض بنفاقه ، والبعض بفسقه وبأنه فى منزلة وسط بين منزلتى الكفر والإيمان ، مع خلوده فى النار . - والكفر عندهم منه ما هو «كفر شرك» . . ومنه ما هو «كفر نعمة» ، أى جحود لأنعم الله .

● ويقولون بحرية الإنسان واختياره ، رافضين «الجبر» الذى كان الفكر التبريرى للمستغيرات التى أحدثها الأمويون فى نظام الحكم الإسلامى . .

● ويشددون على فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وينطلقون منها إلى ما يمكن تسميته نظرية «الثورة المستمرة» وتجريد السيف ضد ولاية الجور والضعف والفسق . .

فعندهم أن الثورة تجب إذا بلغ عدد الثائرين أربعين رجلا - وهذا هو «حد الشّراء» ، أى الذين اشتروا الجنة عندما باعوا أرواحهم - . . أما إذا بلغ الشوار ما فوق الثلاثة ودون الأربعين ، فهم على «حد الدفاع» - يقفون من أعدائهم موقف الدفاع ، لا موقف الخروج - . . فإن كان العدد أقل من الثلاثة جاز لهم

«القيود» - وكانوا على «مسلك الكتمان» - . . أما في حالة قيام «دولتهم» فإنهم يكونون عندئذ على «حد الظهور» . . فمراتبهم من الثورة والسلطة تتراوح ما بين : «مسلك الكتمان» ، و «حد الدفاع» ، و «حد - الشراء» ، و «حد الظهور» . وكانت ثورة الأزارقة - بالبصرة وما حولها - أهم أسباب إضعاف الدولة الأموية ، والتي أفضت إلى سقوطها في يد العباسيين بواسطة الجند الخراسانيين<sup>(١)</sup> .



(١) مراجع :

- (١) [تاريخ الطبري] ج ٤ . طبعة دار المعارف - القاهرة - .
- (٢) [ثبارات الفكر الإسلامي] للدكتور محمد عمارة - طبعة القاهرة - سنة ١٩٩١ م .

المعتزلة : واحدة من أبرز وأخطر وأقدم الفرق الإسلامية . .  
تبلورت ، كمدرسة فكرية ، ذات نظرية متميزة في الفكر الفلسفي  
الإسلامي أواخر القرن الهجري الأول . .

والاعتزال - الذي اشتق منه الاسم - المعتزلة - الذي اشتهرت  
به هذه الفرقة - يعنى : الانشقاق . . فهذا التيار الفكرى بدأ ،  
بقيادة واصل بن عطاء الغزال ( ٨٠١ - ١٣١ هـ ٦٩٩ - ٧٤٨ م ) فى  
صورة انشقاق وتميز عن مدرسة فكرية أوسع هى مدرسة «أهل  
العدل والتوحيد» ، التى كان يقودها - فى البصرة - إمام عصره  
الحسن البصرى ( ٢١١ - ١١٠ هـ ٦٤٢ - ٧٢٨ م ) - فاحتفظ المعتزلة  
بأبرز المعالم الفكرية لأهل العدل والتوحيد . . مع التميز عنهم  
والاختلاف معهم فى أصل واحد هو «المنزلة بين المنزلتين» . . .  
ولذلك ، فكثيرا ما يسمى المعتزلة - أيضا - بـ «أهل العدل  
والتوحيد» ! . .

وفى إطار المعتزلة ، وعلى يدى أعلامهم ، تبلور فى علوم الحضارة  
العربية الإسلامية «علم الكلام» الذى مثل الفلسفة الإسلامية -  
فلسفة «التوحيد» - المتميزة عن فلسفات ذلك العصر ، التى مثلت  
موراث اليونان والفرس والهنود فى ذلك التاريخ . . فكان علم

الكلام الإسلامى ، الذى ارتاد المعتزلة ميدان إبداعه ، التجسيد  
لعقلانية إسلامية متميزة عن مذاهب الأمم الأخرى فى مجالات  
النظر العقلى والإبداع الفلسفى ..

ولقد تميز المناخ الفكرى الذى تبلور فيه الفكر الاعتزالى بعدد من  
التيارات التى مثلت تحديات فكرية وعملية دخل معها المعتزلة فى  
عديد من المعارك والصراعات .. ومن أبرز هذه التحديات ..

أ - المؤسسات الفكرية واللاهوتية التى مثلت فلسفات وديانات  
البلاد التى دخلت فى إطار الدولة الإسلامية بعد الفتوحات ..  
مؤسسات المسيحية واليهودية ومذاهب الفرس واليونان والهنود ..

ب - والتيار «النصوصى - الحرفى - الإسلامى» ، الذى فزع من  
«العقلانية اليونانية» - المتحللة من الوحى والنص - فتمسك  
بالنص وحده ، مهملًا سبيل النظر العقلى .. حتى لقد عجز عن  
مواجهة التيارات والمؤسسات المسلحة بهذه العقلانية اليونانية ،  
ومن ثم عجز عن نشر الإسلام فى البلاد التى تميزت ثقافتها  
بالموارث الفكرية ذات الطابع العقلانى ..

ج - وتيار «التشيع لآل البيت» الذى وإن أخذ فى الفلسفة بقدر  
من العقلانية ، إلا أنه ، فى الفكر السياسى - ونظرية «الإمامة» -  
قد وقع أسير الموارث الفارسية القديمة ، الحملة بمقاصد شعوبية  
معادية للعرب ، والغارقة فى «نصوصية - حرفية» حول فضية  
«الإمامة» بالذات ! ..



د - وفرقة الخوارج . . . التي وإن تميزت بثورية في الفكر السياسي ، إلا أن «البداوة الفكرية» والاستغراق في الثورات والهبات والانتفاضات المستمرة قد أعجزتها عن الإبداع الفكري الذي كان الإسلام في أمس الحاجة إليه ، ليمثل تميزه الفلسفي ، في مناخ احتدم فيه الصراع الفكري ، بعد عصر الفتوحات ، وخاصة في ظلال المبدأ الإسلامي إلا إكراه في الدين . . .

في هذا المناخ . . . وفي مواجهة هذه التحديات الفكرية والسياسية ، تبلورت نظرية المعتزلة ، واكتمل نسقهم الفكري ، الذي تمثل في «الأصول الخمسة» ، التي كانت الإطار الجامع لكل من انتسب إلى هذا التيار . . . وهذه الأصول الخمسة هي :

١ - العدل : ويعنى ، في فكر المعتزلة ، تقرير حرية الإنسان واختياره في ميدان الأفعال الإنسانية المقدورة للإنسان . . . ومن ثم تقرير مسئولية الإنسان عن أفعاله ، وعن نتائجها . . . الأمر الذي يجعل حسابه وجزاءه على أفعاله عدلاً إلهياً لا جور فيه . . .

ولهذا الأصل من أصول الاعتزال بعد سياسي واسع النطاق . . . ذلك أن الفكر الجبري ، الذي ينفي حرية الإنسان واختياره ، كان يُستخدم آنذاك لتبرير التحولات السياسية التي أخرجت الخلافة الإسلامية من إطار الشورى - التي تجسد الحرية الإنسانية - إلى دائرة «الملك العضود» . . . الذي هو «ورثة» تنتقص من حرية الأمة في تقرير نظامها السياسي وعلاقة الحاكم بالمشكوك في دولتها وقواعد توزيع السلطة الإدارية والثروة المالية بين رعيتهما . . .

٢- التوحيد : ويعنى : تنزيه الذات الإلهية عن مماثلة أو مشابهة أى من المخلوقات والمحدثات وكل ما يدخل فى التصورات - فالله ليس كمثله شئ . . . وكل ما خطر على بالك ، فالله ليس كذلك ! . . .

ولقد كان لهذا الأصل - الذى بلغ بتصور المعتزلة للذات الإلهية قمة التنزيه والتجريد - أبعادا حضارية ، إلى جانب أبعاده الفلسفية والفكرية - فلقد كان مواجهة رافضة لكل مذاهب «التشبيه» و «التجسيد» و «الحلول» و «الاتحاد» التى طبعت لاهوت وفلسفات المسيحية واليهودية ومذاهب الفرس ونظريات التصوف والنزعات الإشراقية والغنوصية فى ذلك التاريخ . . كان صياغة للتنزيه الإسلامى ، وتمييزا له عن مذاهب الحضارات الأخرى فى تصور الذات الإلهية ، ومحاولة لتنقية الفكر الفلسفى الإسلامى من تأثيرات تلك المذاهب والتصورات . .

٣- الوعد والوعيد : ويعنى استحالة تخلف «وعد» الله للمؤمنين الطائعين بالنجاة والتعظيم . . و «وعيده» للكافرين والعصاة بالخسران والجحيم .

ولقد كانت لهذا الأصل ، أيضا ، أبعاده السياسية . . فهو يربط بين «الإيمان» وبين «العمل» الذى يترجم عن هذا «الإيمان» . . الأمر الذى يعنى إدانة أهل الظلم والجور الذين حاولوا ، يومئذ ، الإفلات من هذه الإدانة بواسطة فكر «الإرجاء» ، الذى كان

يكتفى بـ «الإيمان» مرجعاً لتقييم «العمل» إلى يوم الدين! . . فكأن هذا الأصل - الوعد والوعيد - قد كان - هو الآخر - رفضاً للفكر الذي رام أن تفلت النظم الجائرة من الإدانة في هذه الحياة الدنيا . . .

٤ المنزلة بين المنزلتين: ويعنى رفض موقف الحُجُوج ، الذي كان يحكم بـ «الكفر» على مرتكب الكبيرة من الذنوب ، إذا مات غير تائب منها . . ورفض موقف المرجئة ، الذي كان يحكم بـ «إيمان» مرتكب الكبيرة . . وكذلك رفض موقف الحسن البصري في هذه القضية . . وهو الذي كان يعتبر مرتكب الكبيرة «منافقاً» . .

لقد رفض المعتزلة هذه المواقف . . واعتبروا مرتكب الكبيرة «فاسقاً» ، وقالوا إنه في منزلة ثالثة بين منزلتي «الكفر» و«الإيمان» ، وأنه مخلد في النار بدرجة دون درجات الكافرين . .

ولقد كان لهذا الأصل ، أيضاً ، بعده السياسي . . فالجدل الذي كان قائماً حول «مرتكب الكبيرة» قد فجرته التحولات السياسية التي غيرت فلسفة نظام الحكم في الخلافة الإسلامية من «الشورى» إلى «الملك العضود» ، والتي استبدلت الأثرة المالية بالعدالة الإسلامية والإيثار الإسلامى . . فالكبائر السياسية هي التي كان يدور حولها الجدل ، ونظم الجور هي التي كانت موضوعاً للتقييم! . . .

٥- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وهو أكثر أصول المعتزلة ارتباطاً بالفكر السياسي الذي صاغوه . . فتحت هذا الأصل يرد :  
● وجوب اهتمام الإنسان بأمر الأمة والمجتمع والدولة وكل شئون العمران . . ووجوب الاشتغال بما يجلب المصالح للأمة ويدفع المفسد عنها . . بما في ذلك تأييد العدل ومعارضة الجور . . وتنظيم التأييد والمعارضة في «الأمة» . . أي «الجماعة» . . التي تنهض بأداء هذه الفريضة الكفائية - الاجتماعية - الإسلامية . . ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر» - آل عمران ١٠٤ - . .

● ويرد : الموقف من وسائل التغيير لنظم الجور والعجز والفسق . . وعلى وجه التحديد ، الموقف من استخدام القوة في هذا التغيير . . فعلى حين رفض الأشعرية وأهل الحديث تجريد السيف في عملية التغيير هذه . . وعلى حين اشترط الشيعة لجوازه ظهور «الإمام المعصوم» وقيادته لهذا التغيير . . وعلى حين أقرط الخوارج في استخدام القوة دون ضوابط تذكر . . كان موقف المعتزلة متميزاً في وسطيته . . فهم يشترطون لتجريد السيف في عملية التغيير لنظم الجور: التحقق من أنها نظم جور ومنكر . . واستنفاد السبل الأخرى للتغيير . . والإعداد الذي يصل إلى حد «التمكن» ليكون النصر مؤكداً ، أو غالباً على الظن . . وذلك ضناً بالجهود والطاقات عن الضياع في التمردات التي لا تأتي إلا بمزيد من الجور

والويلات! .. كما يشترطون اجتماع القوى الساعية إلى التغيير على «إمام» يختارونه بالشورى .. أى على «دولة» بديلة للدولة الظالمة التى يغيرون! ..

● ويرد - تحت هذا الأصل من أصول المعتزلة الخمسة - الممارسات السياسية التى نهضوا بها - سلمية كانت أو ثورية - فلقد عارضوا دولا .. وأعانوا أخرى .. وقادوا ثورات .. وأيدوا أخرى .. ولم يقفوا - فى هذا الميدان - عند حدود النظر الفكرى المجرد .. لأنهم كانوا ، منذ تبلور تنظيمهم تحت قيادة واصل بن عطاء ، تيارا فلسفيا ، ومعارضة سياسية ، وتوجها حضاريا .. وكان من أعمالهم : الثوار .. والزهاد .. والفلاسفة .. ورجال الدولة .. والعلماء المشتغلون بمختلف علوم النظر وعلوم التجريب ..

لقد مثلوا «العقلانية الإسلامية» ، التى جمعت بين العقل والنقل ، فتميزت عن «العقلانية اليونانية» التى لاتعترف بالنقل .. وعن الغنوصية ، التى لاتعترف بغير «الحُدس» و «العرفان» .. وعن «النصوصية - الحرفية» ، التى وقفت عند ظواهر النصوص .. ومثلوا المدرسة الفكرية ، التى كان «الموالى» فى إطارها أعداء الشعوبية وفرسان الدفاع عن عروبة الحضارة الإسلامية! ..

ومثلوا طلائع الفكر السياسى الذى أقام نظرية الإمامة الإسلامية على فلسفة الشورى والبيعة والاختيار ، فى مواجهة فلسفة «النص - والتعيين»! ..

وكانوا فرسان الدفاع عن «حرية الإنسان واختياره ومسئوليته» ،  
على النحو الذي تميز به الإسلام ، عندما ميز بين خلق الله ، الذي  
لا يقدر عليه سواه . . وبين الخلق المقدر للإنسان ، كخليفة عن  
الله<sup>(١)</sup> ! . . .



#### (١) مراجع :

- [المغنى فى أبواب التوحيد والعدل] نقاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمداني -  
طبعة القاهرة - الهيئة العامة للكتاب .
- [الإسلام وفلسفته الحكم] د محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٤٠٩ هـ سنة ١٩٨٩ م .
- [المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية] - د محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨ م .



الزَيْدِيَّةُ : واحدة من الفرق الإسلامية ، التي تميزت - إلى حد ما - بمسائل ومقالات في نظرية الإمامة ، وعلم الكلام ، والفكر السياسي ، والاجتهادات الفقهية .. والتي مارست العمل السياسي ، والثوري ، وأقامت الدول ، ولا يزال لها جمهور يتمذهب بمذهبها حتى الآن .

ولقد أخذت الزيدية اسمها من اسم إمامها وفيلسوفها وفقهها وتأثرها الأول : الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب [ ٧٩ - ١٢٢ هـ ٦٩٨ - ٧٤٠ م ] الذي ثار - في الكوفة .. من أرض العراق - ضد الدولة الأموية سنة ١٢٢ هـ سنة ٧٤٠ م ، على عهد الخليفة هشام بن عبد الملك [ ٧١ - ١٢٥ هـ ٦٩٠ - ٧٤٣ م ] .

وبعد أن هُزمت ثورة زيد بن علي ، واستشهد هو وأغلب الذين صمدوا معه في القتال ، استمرت معارضة أنصاره ، وتواصلت ثوراتهم ضد الدولة الأموية ، ثم ضد العباسية ، بعد أن زال حكم الأمويين .

ولقد كان زيد بن علي واحداً من قيادات شباب آل البيت ، الشائرين على استئثار الأمويين بالدولة والسلطان وحرمان العلويين منهما .. ولقد تبنى الأصول الخمسة للمعتزلة ، وأخذ مذهبهم عن زعيمهم وأصل بن عطاء [ ٨٠ - ١٣١ هـ ٧٠٠ - ٧٤٨ م ] مخالفاً

بذلك تيارا من آل البيت يتزعمه جعفر الصادق [٨٠ - ١٤٨ هـ - ٦٩٩ - ٧٦٥ م] - وهو تيار الشيعة الإمامية - . فلما أعلن زيد ثورته ، التي ساندته فيها المعتزلة ، تبلورت له توجهات سياسية إلى جانب توجهاته الفلسفية ، مضافة إلى عطائه في الفقه والزهد وعلوم الإسلام . . فكان ترائه هو الفكر الذي تواصلت من أجله ثورات أتباعه ، والمسائل والمقالات التي تبلورت حولها فرقة الزيدية بعد ذلك ، كواحدة من الفرق التي انتصرت لأل البيت ، وتدعو إلى أن تكون الإمامة والخلافة في نسل علي بن أبي طالب من زوجة فاطمة الزهراء ، بنت رسول الله ، ﷺ ، والتي تسلك إلى الإمامة سبيل الجهاد والثورة على ولاية الجور والتغلب ، وتتبنى في علم الكلام أصول المعتزلة الخمسة . .

ففي الفكر السياسي ، انطلقت الزيدية من المبادئ التي حددها زيد بن علي في إعلان ثورته :

- ١ - الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله ، ﷺ .
- ٢ - والجهاد ضد السلطة الظالمة وأعوانها . .
- ٣ - ونصرة المستضعفين في الأرض . .
- ٤ - وإنصاف المحرومين الذين أجحف بهم الظلم الأموى . .
- ٥ - والعودة إلى نهج الإسلام في التسوية بين الناس في قسمة الفيء . .
- ٦ - وإغلاق المعسكرات النائية التي جعلت الدولة منها مناف للمتاوئين لها . .

٧ - ونصرة آل بيت الرسول ﷺ ، الذين استأثر الأمويون  
دونهم بالخلافة والسلطان . .

كان هذا هو الفكر السياسي الذي انطلقت منه ثورات الزيدية ،  
والذي تبلورت حوله الزيدية كفرقة من فوق المسلمين . .

فهم يدعون إلى نصرة آل البيت ، ويرون أن الأولى بالخلافة ، هم أبناء  
علي بن أبي طالب من فاطمة الزهراء ، لكنهم يتميزون عن فرق الشيعة  
الأخرى التي تقول بذلك ، برفضهم أن يكون طريق الإمامة هو الوراثية ،  
يوصى بها الإمام للذي يليه ، ودعوتهم إلى أن يكون الجهاد والخروج  
على ولاية الجور هو طريق الإمامة . . وبعبارة زيد بن علي : « ليس الإمام  
منا من أرخى عليه ستره . . وإنما الإمام من شهر سيفه » .

كذلك تميزت عقيدة الزيدية في الإمامة عن غيرهم من فرق  
الشيعة ، برفضها فكرة وجود « نص ووصية وتعيين » لذوات الأئمة  
الاثني عشر - كما هو الحال عن الشيعة الاثني عشرية - فلقد  
قالت الزيدية إن « النص » إنما كان على « صفات » الإمام ، وليس  
على « ذات » الإمام . . وأن النص على الصفات قد اقتصر على  
الأئمة - الثلاثة الأول - علي بن أبي طالب ، والحسن والحسين  
- . . وبعد هؤلاء الثلاثة فالإمام هو المجاهد الثائر العالم من أبناء  
فاطمة الزهراء . . كذلك تميزت الزيدية عن بقية الشيعة برفضهم  
الغلو في العدا للخلفاء الراشدين والصحابة الذين قدموا أبا بكر  
وعمر وعثمان علي علي في ترتيب الخلافة ، فبرئت الزيدية من  
اتهام الصحابة بالكفر أو الفسوق . . وأكثر ما قالوه : إن الصحابة  
تأولوا فأخطأوا في تأخير ولاية علي للخلافة . .

انطلاقاً من هذا الفكر السياسي ، وعلى أساسه توالى ثورات الزيدية ، عقب استشهاد زيد بن علي . .

● وفى الجوزجان - من بلاد همذان - ثاروا بقيادة ابنه يحيى ابن زيد بن علي سنة ١٢٦ هـ سنة ٧٤٤ م ، ضد حكم الخليفة الأموي الوليد بن يزيد (٨٨ - ١٢٦ هـ ٧٠٧ - ٧٤٤ م) . .

● وبعد هزيمة يحيى واستشهاده ، ثارت الزيدية - فى الكوفة - بقيادة عبدالله بن معاوية بن عبد الملك بن جعفر بن أبى طالب سنة ١٢٧ هـ سنة ٧٤٤ م فى عهد آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد [٧٢ - ١٣٢ هـ ٦٩٢ - ٧٥٠ م] .

● وفى سنة ١٤٥ هـ سنة ٧٦٢ م ثارت الزيدية - بالمدينة المنورة - بقيادة النفس الزكية ، محمد بن عبدالله بن الحسن بن علي بن أبى طالب [٩٣ - ١٤٥ هـ ٧١٢ - ٧٦٢ م] ضد الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور [٩٥ - ١٥٨ هـ ٧١٤ - ٧٧٥ م] . . وبعد قمع هذه الثورة ، واستشهاد قائدها ، تواصلت وقائعها - فى البصرة وما حولها - بقيادة أخيه إبراهيم بن عبدالله بن الحسن (٥٧ - ١٤٥ هـ ٧١٦ - ٧٦٣ م] إلى أن هزمت أيضا . .

● وفى خلافة المأمون العباسى [١٧٠ - ٢١٨ هـ ٧٨٦ - ٨٣٣ م] ثارت الزيدية - ببلاد الطائقان ، بخراسان - بقيادة الإمام الزيدى محمد بن إبراهيم بن طباطبا [١٩٩ هـ - ٨١٤ م] . . وبعده تولى إمامتهم محمد بن محمد بن زيد بن علي . . ثم انتقلت إمامتهم إلى محمد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسين [٢١٩ هـ - ٨٣٤ م] .

● وفى سنة ٢٥٠ هـ سنة ٨٦٤ م عادت الزيدية إلى الثورة بالكوفة - خلف إمامها يحيى بن عمر بن الحسين بن عبدالله بن إسماعيل بن جعفر بن أبى طالب ..

● وفى طبرستان نجحت ثورتهم فى أن تقيم لهم دولة استمرت خمسة وسبعين عاما - من سنة ٢٥٠ هـ سنة ٨٦٤ م حتى سنة ٣١٦ سنة ٩٢٨ م ..

● ومن المؤرخين من يدخل «ثورة الزنج» ، التى قادها على بن محمد [٢٧٠ هـ - ٨٨٣ م] بالعراق - فى زمرة الثورات الزيدية ، وهى الثورة التى أقامت دولة حاربت الخلافة العباسية لأكثر من عشرين عاما [٢٤٩ - ٢٧٠ هـ ٨٦٣ - ٨٨٣ م] ..

● أما أشهر ثورات الزيدية ، التى أقامت أكبر دولهم وأطول هذه الدول عمرا ، فهى الثورة التى قادها إمامهم الهادى إلى الحق ، يحيى بن الحسين [٣٤٠ - ٤٢٤ هـ ٩٥٢ - ١٠٣٣ م] والتى أسست دولتهم فى اليمن سنة ٢٨٨ هـ سنة ٩٠١ م .. وهى التى توالى على حكمها واحد وسبعون إماما زيدا ، كان آخرهم المنصور بالله ، محمد البدر بن أحمد بن يحيى حميد الدين ، الذى أطاحت به وبالإمامة الزيدية ودولتها الثورة اليمنية فى ٢٦ ربيع ثانى سنة ١٣٨٢ هـ ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٦٢ م ..

فإذا أضفنا عدد أئمة الزيدية فى اليمن إلى أئمة فرقته منذ مؤسسها زيد بن على بلغ تعدادهم تسعة وثمانين إمام ، يضاف

إليهم على بن أبي طالب ، والحسن ، والحسين ، ليصل عدد أئمة  
الزيدية إلى اثنين وتسعين إماما . .

\*\*\*

وكما تبلور الفكر السياسي للزيدية انطلاقا من مبادئ ثورة إمامها  
زيد بن علي . . كذلك انحازت في المقالات الكلامية إلى أصول  
المعتزلة الخمسة - التي تبناها زيد بن علي - واستمرت هذه  
الأصول الاعتزالية قسمة ملحوظة في فلسفة علماء الزيدية منذ  
انتساب زيد بن علي إلى المعتزلة ، وتلمذه علي واصل بن عطاء ،  
حتى أن دولة الزيدية باليمن هي التي حفظت تراث المعتزلة بعد  
أن اضطهدوا منذ عصر الخليفة العباسي المتوكل [ ٢٣٣ - ٢٤٧ هـ  
٨٤٧ - ٨٦١ م ] ، وظل هذا التراث مغلفة على مخطوطاته صناديق  
مكتبة الجامع الكبير في صنعاء حتى اكتشفته البعثة المصرية التي  
ذهبت إلى هناك - من دار الكتب المصرية وجامعة فؤاد الأول -  
القاهرة سنة ١٩٥١ م . . فكانت الإضافة الفكرية التي أتاحت  
للباحثين الكتابة عن المعتزلة بالاستناد إلى مصادرهم هم ، وليس  
بالرجوع إلى مصادر خصوم الاعتزال . .

وعن تذهب الزيدية بأصول المعتزلة الخمسة ، يقول الشهرستاني  
[ ٧٤٩ - ٥٤٨ هـ ١٠٨٦ - ١١٥٣ م ] : « إن زيد بن علي قد اقتبس  
الاعتزال من واصل بن عطاء ، وصارت أصحابه كلها معتزلة ، يرون  
في الأصول رأى المعتزلة . . ويعظمون أئمة المعتزلة أكثر من  
تعظيمهم أهل البيت » الذين يعظمهم الشيعة الإمامية . . وهذه  
الأصول الخمسة هي :



١ التوحيد.. أى تنزيه الذات الإلهية إلى الحد الذى يجعل صفات الله عين ذاته ، حتى لا تكون هناك شبهة للتعدد أو مماثلة المخلوقات والمحدثات .. وفى هذا التنزيه رفض لمذاهب الحلول والاتحاد والتشبيه والتجسيم ..

٢ - والعدل.. الذى يعنى أن الإنسان حر مختار صانع لأفعاله الاختيارية مسئول عنها ، ومن ثم فإن محاسبته عليها عدل .. وذلك حتى لا يؤدى الجبر إلى شبهة إلحاق الجور بالذات الإلهية ، إذا هى حاسبت الإنسان على ما هو مجبر على فعله .. وفى هذا العدل رفض للفكر الجبرى ، بمختلف درجاته ..

٣ والوعد والوعيد.. وهو يعنى عدم الفصل بين «الإيمان» و «العمل» .. فوعد الله للطائعين صدق لا يمكن أن يتخلف عن الوقوع ، وكذلك وعيده للعصاة .. وفى ذلك رفض لفكرة «الشفاعة» للفسقة ، مع تجويزها للمؤمنين .. وفيه - أيضا - رفض لفكر «المرجئة» ، الذى يعد حباك الأمل للظالمين فى النجاة يوم الدين ..

٤ والمنزلة بين المنزلتين .. ويعنى هذا الأصل أن مرتكبى الذنوب الكبائر ، غير التائبين منها ، ليسوا مؤمنين - كما قالت المرجئة - وليسوا كفارا - كما قالت الخوارج - وإنما هم - إذا لم يتوبوا قبل موتهم - فى منزلة بين منزلتي المؤمنين والكفار ..

٥ - والأمربالمعروف والنهي عن المنكر .. وهو جماع الفكر السياسى ، والمشاركة الإيجابية فى أمر الأمة والمجتمع .. ومنه الانطلاق إلى وجوب تغيير المنكر السياسى ، المتمثل فى سلطة

الجور وولاية التَّغْلُب ، بالثورة والجهاد . . وفيه رفض لفكر «أهل الحديث» - من السلفية - الذين قالوا - بعبارة الإمام أحمد بن حنبل [١٦٤ - ٢٤١ هـ ٧٨٠ - ٨٥٥ م] : «إن من غلب بالسيف حتى صار خليفة ، وسُمِّي أمير المؤمنين ، فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إماما عليه ، برأ كان أو فاجرا ، فهو أمير المؤمنين » . .

وفى هذا الأصل - أيضا - رفض لموقف الشيعة الإمامية ، الذين يحرّمون الثورة والخروج على ولاة الجور إلا إذا ظهر إمامهم الغائب . تلك هي الأصول الخمسة ، التي مثلت جماع المذهب الكلامي للزيدية ، والتي احتذوا فيها حذو المعتزلة . .



أما فى الفقه - علم الفروع - فإن الزيدية هم أقرب إلى مذهب أبى حنيفة [٨٠ - ١٥٠ هـ ٦٩٩ - ٧٦٧ م] مع موافقة لمذهب الشافعى [١٥٠ - ٢٠٤ هـ ٧٦٧ - ٨٢٠ م] فى بعض المسائل . . وإن كانوا قد صاغوا هذا المذهب صياغة متميزة فى اجتهادات أنتمتهم ، وفى مقدمتهم زيد بن على فى كتابه [مجموع الفقه] - والهادى إلى الحق ، يحيى بن الحسين - فى فتاواه التى جمعت فى كتاب [الوافى فى فقه الهادوية الزيدية] - ومن أتى بعدهم من فقهاءهم العظام . .



ولأن الزيدية قد عاشت عمرا طويلا - منذ القرن الهجرى الأول

حتى عصرنا الراهن - وقامت ثوراتها وأقامت دولها في أقاليم مختلفة ، فلقد كان طبيعياً أن تتمايز التيارات الفكرية في إطارها ، حتى ليذهب بعض الذين أرخوا لها إلى الحديث عن انقسامها إلى اثنتي عشرة «فرقة» . . لكن المؤكد أنه قد تمايزت في إطارها فرق ثلاث :

١- الصالحية: نسبة إلى الحسن بن صالح بن حي الهمداني (١٠٠ - ١٦٨ هـ ٧١٨ - ٧٨٤ م) وهي أكثر ميلاً إلى فكر أهل السنة . . وأكثر نقداً لأفكار الشيعة الإمامية الاثني عشرية . .

٢- والسليمانية: وهم أصحاب سليمان بن جرير الرقي ، الذي انفصل عن الشيعة الإمامية الاثني عشرية ، وكان - هو وأصحابه - قريبين من فكر أهل السنة ، ناقدين لفكر الاثني عشرية . . مع خلاف للمعتزلة في قضية الصفات . .

٣- والجارودية: أصحاب أبي الجارود ، زياد بن أبي زياد المنذر الهمداني [المتوفى سنة ١٥٠ هـ سنة ٧٦٧ م أو سنة ١٦٠ هـ سنة ٧٧٧ م] . . ولقد كان - في الأصل - من الاثني عشرية ، ثم تركهم والتحق بالزيدية ، وهو من ثار وحارب مع زيد بن علي . . ولقد مثل - في الزيدية - التيار الأقرب إلى فكر الشيعة الإمامية . .

وكما تمايزت هذه «الفرق» في إطار الزيدية - بناء على التقرب أو البعد عن كل من أهل السنة والشيعة الاثني عشرية - شهدت الزيدية تمايزاً آخر بناء على الموقف من فكر الاعتزال وأصول المعتزلة الخمسة . . فكان فيهم معتزلة انتسبوا إلى الزيدية - مثل الحاكم

الجشمى [٤١٣ - ٤٩٤ هـ ١٠٢٢ - ١١٠١ م] - . . وزيدية اعتزلوا  
 - مثل أحمد بن يحيى بن المرتضى [٧٦٤ - ٨٤٠ هـ ١٣٦٣ -  
 ١٤٣٦ م] - . . ومنهم من تحققت في فكره الموازنة والامتزاج بين  
 الزيدية والمعتزلة - مثل المؤيد بالله ، أبو إدريس يحيى بن حمزة  
 [٦٦٩ - ٧٤٩ هـ ١٢٧٠ - ١٣٤٨ م] - . . ومنهم من عارض  
 المعتزلة ، بسبب الخلاف حول نظرية الإمامة - مثل حميدان بن  
 يحيى بن حميدان [٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م] - . .

كذلك شهدت الزيدية ، في عصورها المتأخرة ، كوكبة من أعلام  
 علمائها ، اقتربت أكثر وأكثر من أهل السنة ، حتى أصبحت  
 اجتهاداتهم ضمن مرجعية أهل السنة ، فحققوا همزة الوصل بين  
 الزيدية وأهل السنة . . وهو هؤلاء المجتهدين المجددين : ابن الوزير ،  
 محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى [٧٧٥ - ٨٤٠ هـ ١٣٧٣ -  
 ١٤٣٦ م] . . وابن الأمير ، محمد بن إسماعيل بن صلاح بن  
 محمد بن حفظ الدين الأمير [١٠٩٩ - ١١٨٢ هـ ١٦٨٨ -  
 ١٧٦٨ م] . . وأشهرهم الشوكاني ، محمد بن علي بن محمد بن  
 عبد الله الشوكاني [١١٧٣ - ١٢٥٠ هـ ١٧٥٩ - ١٨٣٤ م] . . ففى  
 المشاريع الفكرية والاجتهادات الفقهية لهؤلاء الأعلام التحمت  
 الزيدية مع أهل السنة تحت مظلة التجديد للفكر الإسلامى ، وهو  
 التجديد الذى سبق عصر الزحف الاستعماري الأوربي على  
 بلادنا ، والذى عاجله هذا الاستعمار ، حتى يحل نموذج الغربى  
 محل نموذج الإسلام فى التقدم والنهوض . .

\*\*\*

ولأن اليمن قد شهدت أطول دول الإمامة الزيدية عمرا ، والمكان  
الذى استقرت فيه الزيدية كفرقة . . فلقد انحصر الوجود الزيدى -  
تقريبا- فى اليمن ، ويبلغ تعدادهم - وفق إحصاء سنة ١٩٩٠ م -  
٤.٠٠٠.٠٠٠ (أربعة ملايين) أى نحو ٣٥٪ من تعداد سكان اليمن  
- وهو ١١.٥٠٠.٠٠٠ نسمة - . .

ولقد تراجع تأثير الزيدية - كفرقة - بسبب الجمود الفكرى الذى  
ساد فى العصور المتأخرة من عمر دولتها باليمن ، ثم تراجع أكثر  
وأكثر عندما دالت دولتها ، بإلغاء نظام الإمامة ، وإعلان الجمهورية  
فى اليمن سنة ١٣٨٢ هـ سنة ١٩٦٢ م<sup>(١)</sup> .



#### (١) مراجع :

- (١) رسائل العدل والتوحيد دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٧ م
- (٢) [الملل والنحل] للشهرستانى . طبعة القاهرة سنة ١٣٢١ هـ .
- (٣) [الزيدية] للدكتور أحمد محمود صبحى . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٤ م
- (٤) [تيارات الفكر الإسلامى] للدكتور محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٨ م
- (٥) [الإسلام وفلسفة الحكم] للدكتور محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٩ م

الرافضة - في عرف أهل السنة والجماعة - بمذاهبهم ومدارسهم المختلفة - : هم الشيعة ، الذين ، سمووا بذلك ، لرفضهم شرعية خلافة أبي بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، رضى الله عنهم . . ومن ثم رفضوا شرعية التاريخ الإسلامى ، انطلاقاً من دعواهم وجود «نص» و«تعيين» إلهى للإمام على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه ، إماماً للمسلمين وخليفة لرسول الله ، ﷺ . .

فرفض الشيعة - بجميع فروعها القائلة «بالنص» و«التعيين» للإمام على . . والرافضة للشورى والبيعة والاختيار للخليفة من الأمة . . ومن ثم رفضهم للخلفاء الراشدين : أبى بكر ، وعمر ، وعثمان - الذين تولوا الخلافة بالشورى والبيعة والاختيار . . هذا «الرفض» الشيعى ، هو الذى جعل هذا المصطلح - «الرافضة» - علماً على أصحاب هذا الموقف الرافض لشرعية الخلافة الراشدة . . وللتاريخ الذى صنعه ، ولمذهب أهل السنة والجماعة فى هذا الموضوع . .

وفى كتاب [منهاج السنة] لشيخ الإسلام ابن تيمية ( ٦٦١ - ٧٢٨ هـ ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م ) - وهو الذى عقده «لنقض كلام الشيعة والقدرية» - نجده يطلق مصطلح «الرافضة» على الشيعة الإمامية . .

فيقول ، في مقدمته ، معللاً تأليفه إياه : «أما بعد . فإنه أحضر إلى طائفة من أهل السنة والجماعة كتاباً صنّفه بعض شيوخ الرافضة في عصرنا . . يدعو به إلى مذهب الرافضة الإمامية . . .» ثم يمضى ابن تيمية مفتتحاً أغلب فصول كتابه بعبارة : [فصل : قال الرافضي . . .]

وفي الوقت الذي اصطُح فيه أهل السنة والشيعة على أن مصطلح «الشيعة» هو المميز للمقائلين من شيعة على وآل البيت «بالنص» و «الوصية» في تعيين الإمام وتمييزه . . . واصطُح فيه أهل السنة على وصف الشيعة «بالرافضة» ، فلقد تحفظ الشيعة على قبول هذا المصطلح ، وإن لم يتحفظوا على الموقف الرافض لشرعية خلافة أبي بكر وعمر وعثمان ! ..

لكن الرافض الشيعة لمصطلح «الرافضة» علماً على فرقتهم ، لم يمنع بعضاً منهم - فرطاً اعتزاز منه بالمذهب - من القبول به . . . كالشاعر الشيعي الذي قال :

إن كان رفضاً حب آل محمد      فليشهد الثقلان أنني رافض ! ..

هذا عن المصطلح . . . ودلالته . . . وموضوعه . . .

أما البدايات والملازمات التي شهدت ظهور هذا المصطلح وتداوله في الحياة الفكرية والسياسية الإسلامية ، فإن أغلب المصادر الإسلامية تحدد مجتمع الكوفة إبان ثورة الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب [٧٩ - ١٢٢ هـ ٦٩٨ - ٧٤٠ م] ضد الحكم الأموي ، على عهد الخليفة هشام بن عبد الملك [٧١ -



١٢٥ هـ ٦٩٠ - ٧٤٣ م] .. مكانا وزمانا لبداء ظهور وتداول هذا الاصطلاح ..

فزيد بن علي كان واحدا من ثوار شباب آل البيت ، الذين خالفوا إمام الشيعة في عصره الصادق ، جعفر بن محمد [٨٠ - ١٤٨ هـ ٦٩٩ - ٧٦٥ م] عندما تمذهب ، في الأصول ، بمذهب المعتزلة ، وتبع في ذلك واصل بن عطاء [٨٠ - ١٣١ هـ ٦٩٩ - ٧٤٨ م] . وعندما اتجه ، في المعارضة لبني أمية إلى طريق الثورة وتجريد السيف ، مخالفا نصيحة جعفر الصادق لشيعة آل البيت ، التي يقول فيها : «إن بني أمية يتطاولون على الناس ، حتى لو طاولتهم الجبال لطالوا عليها! . وهم يستشعرون بغض أهل البيت . ولا يجوز أن يخرج واحد من أهل البيت حتى يأذن الله بزوال ملكهم! ..»

خالف زيد بن علي عمه جعفر الصادق ، عندما تمذهب بأصول المعتزلة الخمسة .. وعندما سلك سبيل الثورة في تغيير النظام الأموي القائم .. فلما أعلن ثورته ضد هشام بن عبد الملك ، من الكوفة ، أواخر المحرم سنة ١٢٢ هـ - أواخر ديسمبر سنة ٧٣٩ م - رفض الشيعة الإمامية - أتباع جعفر الصادق - الانخراط في القتال معه - بعد أن كانوا قد بايعوه - فسموا «رافضة» - لذلك - منذ ذلك التاريخ! ..

ومن المؤرخين من يعلل رفض الشيعة الإمامية للثورة خلف زيد ابن علي بامتناعه عن إدانة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب - رغم تفضيله علي بن أبي طالب عليهما - ..

ولقد شارك في «رفض» الثورة خلف زيد بن علي فريق آخر من شيعة آل البيت ، الذين كانوا يدعون لبني العباس . . فكتب محمد بن علي (٦٢ - ١٢٥ هـ - ٦٨١ - ٧٤٣ م) إلى داعيته في العراق بكير بن ماهان طالبا تحذير شيعته من الثورة مع زيد . . فرفضوه هم أيضا ! . .

وسواء أكانت بداية ظهور المصطلح بسبب رفض الشيعة الإمامية طريق الثورة يومئذ . . أو بسبب اعتراف زيد بن علي بشرعية خلافة أبي بكر وعمر ، وإنكاره رفضهم لشرعية خلافتيهما . . فيبقى «رفض» الشيعة الإمامية لشرعية الخلافة الراشدة ، وشرعية التاريخ الإسلامي وشرعية مذهب أهل السنة والجماعة في سبيل تعيين الخليفة ، بواسطة الشورى والبيعة والاختيار . . يبقى هذا «الرفض» السبب في إطلاق هذا المصطلح على فرقته من قبل أهل السنة والجماعة . .

كما تبرز أحداث ثورة زيد بن علي الملابس والتاريخ الذي ظهر فيه هذا المصطلح إلى ميدان الحياة الفكرية والسياسة في تاريخ الإسلام والمسلمين<sup>(١)</sup> .

---

#### (١) مراجع:

- (١) [الملل والنحل] - للشهرستاني - طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ هـ .
- (٢) [ثورة زيد بن علي] - للناجي حسن - طبعة بغداد سنة ١٩٦٦ م .
- (٣) [تيارات الفكر الإسلامي] للدكتور محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٨٥ م .

الشيعة - لغة - : القوم الذين يجتمعون على الأمر .. والفرقة من الناس .. وأتباع الرجل وأنصاره .. وهى من المشايعة ، أى المطاوعة والمتابعة ..

وجمع الشيعة : شيع . وجمع الجمع : أشيع .

ولقد اشتهرت كلمة الشيعة - فى الاصطلاح - للدلالة على الفرقة : أو الفرق - الذين يتولون ويشايعون الإمام على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه ، وآل بيته ، حتى صار مصطلح الشيعة اسماً خاصاً بهم .

ولقد بدأت شيعة على والتشيع له فى صورة أولية ، تمثلت فى الميل إليه ، وتمنى تقديمه فى ترتيب تولى الخلافة بعد رسول الله ، ﷺ ، وكان ذلك من قبل بعض بنى هاشم ، ونفر من الصحابة ، يذكر فيهم المقداد بن الأسود ، وسلمان الفارسى ، وأبو ذر الغفارى ..

أما المعيار الفارق الذى يميز الشيعة - كفرقة من الفرق الإسلامية - فلقد تجاوز الميل إلى على والتفضيل له وتقديمه فى الترتيب بين الخلفاء الراشدين .. وأصبح هذا المعيار - فى مذهب الشيعة - هو دعوى وعقيدة أن إمامة على بن أبى طالب والأئمة من بنيهِ إنما هى « بالنص والوصية والتعيين » ، أى النص الإلهى والوصية

الدينية ، التى بلغها رسول الله ﷺ ، للأمة ، كما بلغ أصول الدين . . . فهى ، عندهم ، المرادة بقول الله ، سبحانه وتعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [المائدة: ٦٧] . .

فكل من عدا الشيعة - من الفرق الإسلامية - قد قالوا إن الإمامة ، والخلافة طريقها الشورى والاختيار والبيعة من الأمة أو نوابها . . . بينما انفردت الشيعة - بفرقها المتعددة - بادعاء أن الإمامة سبيلها «النص والوصية والتعيين» ، فهى شأن دينى سماوى ، وهى من أمهات العقائد الدينية ، ولا مدخل للأمة أو الشورى فيها . .

والشيعة قد قاسوا «الإمامة» على «النبوة» ، فجعلوها - كالنبوة - اصطفاة إلهيا ، لا اختيارا بشريا ، وجعلوا للإمام العصمة التى للأنبيا ، بل ورفعوا مكانتها على مكانة النبوة ، لأن النبوة ، عندهم ، «لُطف خاص» أى انتهى دورها - بينما الإمامة «لُطف إلهى عام» - لأنها مستمرة بأداء رسالة النبوة ، بعد انتهاء طور النبوات . . . حتى ليقول الإمام آية الله الخمينى - عن علو مقام الأئمة على الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين : «إن من ضرورات مذهبنا أن لأئمتنا مقاما لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل» . . !

ولقد انعكست هذه العقيدة ، التى ميزت نظرية الإمامة عند الشيعة ، والتى ميزت الشيعة عن من عداها من الفرق الإسلامية ،

انعكست عل صفات الإمام عندهم ، وعلى السلطات التى  
اختصوه بها . .

\*\*\*

وباستقراء المصادر الأصلية ، التى كتبت فى نظرية الإمامة - من  
قبل مختلف الفرق الإسلامية - وفى مقدمتها المصادر الشيعية -  
لا نجد ذكرا ولا مجرد إشارة لعقيدة «النص والوصية» قبل عصر  
إمامهم السادس - الصادق - أبو عبد الله جعفر بن محمد [ ٨٠ -  
١٤٨ هـ ٦٩٩ - ٧٦٥ م ] . . وأقدم عناوين المؤلفات التى كتبت فى  
الإمامة - والتى أحصاها ابن النديم [ ٤٣٨ هـ - ١٠٤٧ م ] فى  
[الفهرست] - والتى أشارت إلى فكرة «الوصية» بالإمامة ، منسوب  
إلى عالمهم هشام بن الحكم [ ١٩٠ هـ ٨٠٥ م ] . . فمن مؤلفاته  
[كتاب الوصية والرد على من أنكروها] . .

ويشهد لهذه الحقيقة - حقيقة الظهور المتأخر لعقيدة الشيعة فى  
«النص والوصية والتعيين» - خلو تاريخ الصراع على الإمامة قبل  
ذلك التاريخ من أية إشارة للاحتجاج بهذه العقيدة فى ذلك  
الصراع . . فلقد اختلف المسلمون حول من يتولى الخلافة - عقب  
وفاة رسول الله ، ﷺ - فى سقيفة بنى ساعدة ولم يذكر أحد من  
الفرقاء الذين اختلفوا أن هناك نصا وتعيينا لمن يليها . . وتأخرت  
بيعة على بن أبى طالب لأبى بكر الصديق عدة أشهر ، ثم بايع ،  
ولم يؤثر عنه فى ذلك التاريخ تعليل لتأخر بيعته بأن هناك نصا  
يعينه هو للخلافة بدلا من الصديق . . ثم شارك على فى شورى

البيعة لكل من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، دون أن يشير إلى أن هناك نصا إلهيا ووصية نبوية باختصاصه هو ، دون غيره ، بالإمامة والخلافة . وبعد مقتل عثمان ، عقدت البيعة بالخلافة لعلي بن أبي طالب ، وتلقاها وتولاها هو بالبيعة ، ولم يؤثر عنه أنه قال لمبايعيه : لست في حاجة إلى بيعتكم ، لأن هناك نصا على إمامتي ، يخرجها عن الشورى والاختيار والبيعية . . . بل إن كتاب [نهج البلاغة] ، الذي جمعه الشيعة - بواسطة إمامهم «الشريف الرضي» [٣٥٩ - ٤٠٦ هـ ٩٧٠ - ١٠١٥ م] - باعتباره خطب ومراسلات وأحاديث وحكم الإمام علي بن أبي طالب ، لا أثر فيه لإشارة - مجرد إشارة - إلى عقيدة «النص والتعيين» . الأمر الذي يجعل استقراء التاريخ ، واستقراء الفكر من صدر الإسلام إلى عصر جعفر الصادق ، شاهدا على أن هذه العقيدة - التي ميزت الشيعة كفرقة ، بالمعنى الاصطلاحي للتشيع - لم تظهر قبل تأليف هشام بن الحكم فيها ، وتبنى الشيعة للاعتقاد بها منذ ذلك التاريخ .



وإذا كانت الشيعة - على اختلاف فرقهم - معتدلين كانوا أم غلاة - اتفقوا على نظرية «النص والوصية والتعيين» الإلهي لإمامة علي بن أبي طالب ، خليفة ووصيا وإماما بعد رسول الله ، ﷺ ، فإنهم قد اختلفوا إلى فرق متعددة ، بعد هذه العقيدة التي جعلوها أهم عقائد الإيمان الديني ، يكفر - في نظرهم - من جحدتها .

فالشيعة الإثني عشرية - وهم أغلبية الشيعة المعاصرين - يقولون إن عليا قد أوصى بالإمامة لابنه الحسن ، الذي أوصى بها إلى

أخيه الحسين .. وهكذا استمرت في أبناء علي من فاطمة الزهراء حتى إمامهم الثاني عشر .. ولقد سموا بالاثني عشرية لقولهم بإمامة هؤلاء الأئمة الاثني عشر :

١ - أبو الحسن ، علي بن أبي طالب - «المرتضى» - [٢٣ ق هـ - ٤٠ هـ ٦٠٠ - ٦٦١ م] .

٢ - أبو محمد ، الحسن بن علي - «الزكي» - [٣ - ٥٠ هـ ٦٢٤ - ٦٧٠ م] .

٣ - أبو عبدالله ، الحسين بن علي - «سيد الشهداء» - [٤ - ٦١ هـ ٦٢٥ - ٦٨٠ م] .

٤ - أبو محمد ، علي بن الحسين - «زين العابدين» - [٣٨ - ٩٤ هـ ٦٥٨ - ٧١٢ م] .

٥ - أبو جعفر ، محمد بن علي - «الباقر» - [٥٧ - ١١٤ هـ ٦٧٦ - ٧٣٢ م] .

٦ - أبو عبدالله ، جعفر بن محمد - «الصادق» - [٨٠ - ١٤٨ هـ ٦٩٩ - ٧٦٥ م] .

٧ - أبو إبراهيم ، موسى بن جعفر - «الكاظم» - [١٢٨ - ١٨٣ هـ ٧٤٥ - ٧٩٩ م] .

٨ - أبو الحسن ، علي بن موسى - «الرضا» - [١٥٣ - ٢٠٣ هـ ٧٧٠ - ٨١٨ م] .

٩ - أبو جعفر ، محمد بن علي - «الجواد» - [١٩٥ - ٢٢٠ هـ ٨١١ - ٨٣٥ م]



١٠ - أبو الحسن ، علي بن محمد - «الهادي» . [٢١٤ - ٢٥٤ هـ  
٨٢٩ - ٨٦٨ م] .

١١ - أبو محمد ، الحسن بن علي - «العسكري» . [٢٣٢ -  
٢٦٠ هـ ٨٤٦ - ٨٧٣ م] .

١٢ - أبو القاسم ، محمد بن الحسن - «المهدي» - [٢٥٦ -  
١٠٠٠ هـ ٨٧٠ - ١٠٠٠ م] الذي اختفى في سرداب بمدينة  
«سامراء» - من أرض العراق - ولا يزال في «الغيبه» - فهو  
«المهدي» ، الذي ينتظرون ظهوره ، ويدعون الله أن يعجل  
فرجه ، ليملا الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً - وعنه  
ينوب ، في عصور غيبته ، العلماء المجتهدون - .

أما الشيعة «الكيسانية» ، فإنهم لم يحصروا الإمامة في أبناء  
فاطمة الزهراء ، وإنما قالوا إنها انتقلت من الإمام علي إلى ابنه  
محمد بن الحنفية [ ٢١ - ٨١ هـ ٦٤٢ - ٧٠٠ م] ..

أما الإسماعيلية - وهم من الباطنية الغلاة .. حتى في نظر  
الاثني عشرية - ويوجد منهم في عصرنا : البهرة .. والنصيريون ..  
والدروز - فلقد اتفقوا مع الاثني عشرية على تسلسل الإمامة من  
علي حتى جعفر الصادق ، ثم جعلوها - بعد الصادق - لابنه  
إسماعيل [ ١٤٣ هـ - ٧٦٠ م] .. وليس لابنه موسى الكاظم ، كما  
قالت الاثني عشرية ، ثم انفرد الإسماعيلية - منذ إسماعيل -  
بسلسلة خاصة بهم في الإمامة ..

أما الشيعة الزيدية - أتباع زيد بن علي بن الحسين [ ٧٩ - ١٢ هـ

٦٩٨ - ٧٤٠م] فلقد تميزوا بالاعتدال الذي اقترب بهم من فكر أهل السنة ، فقالوا في عقيدة «النص» : إن النص لم يكن على «ذات» الإمام ، وإنما كان على «صفاته» ، وأن هذا «النص» لم يتعد ثلاثة من هؤلاء الأئمة ، على والحسن والحسين . . والإمامة بعدهم لمن تجتمع فيه شروط الإمام من أبناء فاطمة - وهي شروط لا أثر فيها لغلو الفرق الشيعية الأخرى- . .



ولأن الشيعة - فيما عدا الزيدية - قد قاسوا «الإمامة» على «النبوة» ، وليس على «الإمارة» . . والولاية» ، كما صنع أهل السنة ، فلقد أضفوا على الإمام صفات فاقت حتى صفات الأنبياء . . فهو- عندهم - معصوم في كل شيء - بينما الأنبياء معصومون فيما يبلغونه عن الله- . . وروح القدس «الذي حمل النبي به النبوة» ، قد انتقل بعد النبي إلى الإمام» . . وهو يعلم - بالعلم اللدني - كل ما يريد علمه «بالقوة القدسية الإلهامية» ، بلا توقف ، ولا ترتيب مقدمات ، ولا تلقين معلم ، تنجلي في نفسه المعلومات كما تنجلي المرئيات في المرأة الصافية . . حتى يستطيع علم كل العلوم ، والحديث بجميع اللغات ، والكتابة بكل الحروف ، دون معلم ولا مدرسة ولا كُتّاب ولا كِتَاب! . . «فالأئمة - كما يقولون- لم يتربوا على أحد ، ولم يتعلموا على يد معلم ، من مبدأ طفولتهم إلى سن الرشد ، حتى القراءة والكتابة . ولم يثبت عن أحدهم أنه دخل الكتّاتيب أو تلمذ على يد أستاذ في شيء من الأشياء ، مع ما لهم من منزلة علمية لا تجارى ، وما سئلوا عن شيء

إلا أجابوا عليه فى وقته ، ولم تمر على ألسنتهم كلمة « لا أدرى » ،  
ولا تأجيل الجواب إلى المراجعة أو التأمل ، أو نحو ذلك - » ! . .

وهى صورة تعلو على صورة الرسل أولى العزم ، الذى كان  
خاتمهم ، ﷺ ، يُسأل فينتظر - أحيانا - وحى السماء . . والذى  
قال لصحابته « أنتم أعلم بشئون دنياكم » . .

ولعصمة الإمام عند الشيعة . . ولأن كل الأمة - برأيهم - يمكن  
أن تجتمع على ضلال ، كان الإمام وحده مصدر الشريعة ، والحجة  
والقيّم حتى على الدين والقرآن . .

\*\*\*

أما سلطات الإمام عندهم فهى كل سلطات الرسول ، التى هى  
كل سلطات الله المفوضة إلى الرسول ، ولذلك ، فإن الراد على  
الإمام راد على الله تعالى ، وهو على حد الشرك بالله . . ولالإمام  
كل الدنيا - وبعبارتهم « فإن الدنيا كلها للإمام ، على وجه الملك ،  
وأنه أولى بها من الذين هى فى أيديهم » . .

\*\*\*

وغير عقيدة الإمامة - بما فيها من « النص والوصية والتعيين » . .  
وصفات الإمام . . وسلطاته - انفردت الشيعة بعقائد . . منها :

● **التقية** : أى إظهار الإنسان غير ما يبطن ، اتقاء لضرر محقق  
الوقوع . . وهى عندهم دين ، يروون فيه عن جعفر الصادق : « التقية  
دينى ودين آبائى . . ومن لا تقية له لا دين له » ! . .

● والرجعة : وتعنى - عندهم - أن الله سيعيد إلى الحياة ، قبل قيام الساعة - وعند قيام المهدي - قوما قد توفاهم ، فى صورهم التى كانوا عليها قبل موتهم ، وفى مقدمتهم أكثر المظلومين من آل البيت ، وأكثر الظالمين لهم ، وبعد ، إن يُعز المظلومين ويذل الظالمين بتوفاهم ثانية .

ثم ، إن الشيعة ، بعد ذلك - باستثناء الباطنية الغلاة - يتفقون مع العديد من الفرق الإسلامية الأخرى فى ثوابت العقائد الإسلامية وشعائر وعبادات الإسلام . . فهم جزء من الأمة الإسلامية . ولو أنهم جعلوا الإمامة - كما فعل أهل السنة - من الفروع ، وليس من أصول وأمّهات العقائد ، لكان الخلاف بينهم وبين أهل السنة مجرد تنوع فى المذهب الفقهي - المذهب الجعفري - الذى لا تزيد الاختلافات بينه وبين مذاهب الفقه السنية عن الاختلافات التى بين المذاهب السنية ذاتها . .

ولأن عقيدة الشيعة ، فى الإمامة والإمام ، هى «حلم مثالى» ، أفرزته معاناة الاضطهاد من قبل السلطة البشرية - فى الدولة الأموية - فلقد ظل هذا «الحلم» مستعصيا على التطبيق حتى عندما حكم الشيعة فى إيران عقب إسقاط النظام الشاهنشاهاى سنة ١٩٧٩ م . . فلقد استمر الحكم بالمؤسسات الشورية ، والنظام النيابى ، والدستور ، وسلطة الأمة والرأى العام . . ولم يطرأ على هذا النظام الديمقراطى - مع المرجعية الإسلامية - إلا منصب «ولاية الفقيه» - الذى هو محل خلاف بين مراجع الشيعة . . والذى تنبئ المساجلات الدائرة حوله عن أنه فى طريقه إلى الزوال . . .

أما التوزيع الجغرافي للمشيعة الإمامية ، فهو في إيران والعراق ولبنان واذربيجان وأفغانستان ، والإسماعيلية في الهند وباكستان وتركيا وسوريا ولبنان .. أما شيعة اليمن فهم من الزيدية ..

وإذا كان تعداد الأمة الإسلامية يبلغ الآن مليارا وثلاث المليار - ١,٣٧٤,٨٠٠,٠٠٠ - فإن نسبة أهل السنة تبلغ ٩٠٪ من هذا التعداد ، والباقي شيعة - بفرقها المختلفة - وخوارج وإباضيون<sup>(١)</sup> .



#### (١) مراجع :

- (١) الكليني [الأصول من الكافي] طبعة طهران سنة ١٣٨٨ هـ .
- (٢) محمد رضا المظفر [عقائد الإمامية] طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م .
- (٣) محمد باقر الصدر [التشيع ظاهرة طبيعية في إطار الدعوة الإسلامية] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م .
- (٤) ابن النديم [الفهرست] طبعة ليبزج سنة ١٨٧١ م .
- (٥) د . محمد عمارة [تيارات الفكر الإسلامي] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٨ م .
- (٦) د . محمد عمارة [الإسلام وفلسفة الحكم] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٩ م .

## الكيسانية

إحدى فرق الشيعة الإمامية - منسوبة إلى داعيها «كيسان» -  
مولى على بن أبي طالب .

ولقد تميزت الكيسانية عن الاثنى عشرية . . وعن الإسماعيلية ،  
بفروعهما ، لأنها لم تحصر الأئمة في أبناء على من فاطمة رضي  
الله عنها ، فجعلت الإمام - بعد الحسن والحسين - : محمد بن  
الحنفية [ ٢١ - ٨١ هـ ٦٤٢ - ٧٠٠ م ] وهو ابن على بن أبي طالب  
من زوجته خولة بنت جعفر - التي اشتهرت بـ «الحنفية» نسبة  
إلى بنى حنيفة . .

ولقد اعتقدت الكيسانية في إمامها - ابن الحنفية - الغيبة -  
فرفضوا التسليم بموته - وقالوا إنه حي «بجبل رضوى» تراجعهم  
الملائكة الحديث . . وأنه سيعود ليملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت  
جوراً؟! . . وفي هذه العقيدة يقول «كثير» الشاعر - عن على  
والحسن والحسين وابن الحنفية - :

ألا إن الأئمة من قریش	ولاة الحق أربعة سواء
على والثلاثة من بنيہ	هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر	وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا تراہ العين حتی	يقود أخيل يتبعها اللواء
تَغِيبُ لا يُرَى فيهم زمانا	«برضوى» عنده غسل وماء! . .

كذلك يعتقد الكيسانية في إمامهم الإحاطة بالأسرار ، من علوم التأويل والباطن والآفاق والأنفس . وقالت الكيسانية بأن الدين هو طاعة الإمام ، وبلغ بهم الغلو في التأويل الفاسد إلى تأويل الأركان الشرعية والعقائد على نحو عطلها وأسقطها . . ولقد ثارت الكيسانية بالكوفة ، بقيادة المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي [ ٦٧ - ٦٧ هـ ٦٢٢ - ٦٨٧ م ] انتقاماً لمقتل الحسين ، وأقاموا دولة استمرت سلطتها ستة عشر شهراً .

ولقد انقسمت الكيسانية إلى إحدى عشرة فرقة ، ومنهم من قال بالتناسخ ، والخلول ، والرجعة بعد الموت . وهم من الفرق الغالية التي بادت منذ قرون<sup>(١)</sup> . .



(١) مراجع :

[ الملل والنحل ] للشهرستاني ، طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م .

[ تيارات الفكر الإسلامي ] للدكتور محمد عمارة ، طبعة القاهرة سنة ١٩٩١ م .



الباطنية مصطلح عام - نسبة إلى «الباطن» - المقابل «لظاهر» - يطلق على العديد من الفرق - الإسلامية وغير الإسلامية - التي لم تقف في قضية «التأويل» عند حدود الاعتدال ، وإنما ذهبت فيها مذاهب الغلو والتعميم والإطلاق ..

فـ «التأويل» - في مصطلح العربية - هو - كما يقول أبو الوليد ابن رشد [ ٥٢٠ - ٥٩٥ هـ ١١٢٦ - ١١٩٨ م ] : «إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية» من غير أن يدخل ذلك بعادة لسان العرب في التجوُّز ..»

وهو - بهذا المعنى ، وبهذا الضبط - قد لجأت إليه كل تيارات الفكر الإسلامي ، مع اختلاف في الإكثار منه أو الاقتصاد فيه .. لكنها جميعاً ، وبإزاء بعض ظواهر النصوص ، التي لا تتفق مع المقاصد الشرعية أو الكليات الاعتقادية ، لجأت إلى التأويل ، فأخرجت دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية .. وبعبارة الغزالي [ ٤٥٠ - ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ - ١١١١ م ] - عن التأويل : فإنه «ما من فريق من أهل الإسلام إلا وهو مضطر إليه ..»

لكن الباطنية قد تميزوا عن الفرق المعتدلة في الموقف من التأويل ، عندما لم يجعلوه «ضرورة واستثناء» وإنما جعلوه «القاعدة - والأصل» ذات «العموم - والإطلاق» .. لقد رأوا أن لكل ظاهر

باطنا ، ولكل تنزيل تأويلا . . ومن ثم فإنهم لا يقفون عند الظاهر -  
أى ظاهر - إلا ليتجاوزوه إلى الباطن . . ولا يقفون عند التنزيل -  
كل التنزيل - إلا ليتجاوزوه إلى التأويل ! . . وهم يعمسون ذلك فى  
العقائد والعبادات والمعاملات . . فى الثوابت والمتغيرات . . فى  
أخبار عالم الغيب وعالم الشهادة . . فضلا عن الإغراق والمغالاة  
فيما ادعوه أسراراً ورموزاً للحروف والأعداد ! . .

ذلك هو الإطار الجامع للفرق الباطنية ، التى تعددت بسبب  
تشعب الطرق التى أثمرها هذا الغلو فى التأويل ، ولأسباب أخرى  
كثيرة . . وهذا هو المعيار الذى استحققت بسببه هذه التسمية ، سواء  
فى إطار الفرق الإسلامية أو فى النحل غير الإسلامية . .

وفى الإطار الإسلامى نجد تفاوت علماء الفرق فى تعداد فصائل  
الباطنية . . وإن كنا نستطيع أن نقول إن خلاصة أبحاثهم ، عند  
المقارنة ، تقول إن الفرق والجماعات الباطنية فى الإسلام هى :

١ - الإسماعيلية: وهم فرقة من الشيعة الإمامية انشقوا عن الإمامية  
الاثنى عشرية عندما وقع الخلاف على من يكون الإمام بعد جعفر  
الصادق [ ٨٠ - ١٤٨ هـ ٦٩٩ - ٧٤٨ م ] فقال الاثنا عشرية إنه موسى  
الكاظم [ ١٢٨ - ١٨٣ هـ ٧٤٥ - ٧٩٩ م ] بينما قالت الإسماعيلية إنه  
إسماعيل بن جعفر الصادق [ ١٤٣ هـ - ٧٦٠ م ] .

ولقد تفرعت الإسماعيلية فصائل ومذاهب كانت جميعها  
باطنية . . خلطت الإسلام بالمذاهب الغنوصية الفارسية القديمة  
وبالأفلاطونية الحديثة وبكثير من الأسرائيليات .

٢- القرامطة: وهم من أبرز فصائل الإسماعيلية الباطنية -  
وتسميتهم بالقرامطة قد أتت من اسم أحد دعائهم - حمدان  
قرمط - . . ويسمون أيضا بـ «السبعية» ، لاعتقادهم بأن أدوار  
الإمامة سبعة ، كما أن تدبير العالم السفلي منوط بالكواكب  
السبعة - [انظر مادة القرامطة] -

٣- الدرزي: - نسبة إلى مؤسس فرقتهم محمد بن اسماعيل  
الدرزي [٤١١ هـ - ١٠٢٠ م] . . وهم يعتقدون أن الخليفة الفاطمي  
الحاكم بأمر الله [٣٧٥ - ٤١١ هـ ٩٨٥ - ١٠٢١ م] هو الناسوت  
الذي حل فيه اللاهوت . . ويسمون أنفسهم «الموحدين» !

٤- النصيرية : نسبة إلى داعيهم محمد بن نصير [٢٥٩ هـ -  
٨٧٣ م] . . وهم يعتقدون أن للإمام علي بن أبي طالب جانبا  
لاهويا حل فيه .

٥- البابية.. والبهائية : التي أسسها السيد علي محمد الشيرازي  
[١٢٣٦ - ١٢٦٦ هـ ١٨٢١ - ١٨٥٠ م] الذي ادعى أنه باب العلم  
بالحقيقة الإلهية ، وسمى نفسه بـ «الباب» [١٢٩٠ هـ ١٨٤٤ م] . .  
وعن البابية تولدت البهائية ، التي أسسها ميرزا حسين علي نوري  
[١٢٣٢ - ١٣٠٩ هـ ١٨١٧ - ١٨٩٢ م] وسمى نفسه «بهاء الله» ! . .

وجميع هذه الفرق باطنية ، لإغراقها في التأويل لظواهر التنزيل . .  
وغالبية في تشيعها لأئمة آل البيت . . وذات تاريخ سياسي مشبوه ،  
لعدائها لوحدة الأمة ، وتعاون كثير منها مع أعداء الأمة ، من التتر  
والصليبيين والاستعمار الغربي الحديث . .

٦- البابكية : نسبة قائد ثورتها بابك الخرمي [٢٢٣ هـ ٨٣٨ م] ،  
الذي خرج على الدولة العباسية في خلافة المعتصم العباسي  
[٢١٨ - ٢٢٧ هـ ٨٣٣ - ٨٤٢ م] من بعض الجبال بناحية  
أذربيجان . . والبابكية فرقة باطنية من فرق المزدكية - وهو مذهب  
من مذاهب الفرس القديمة . . وليسوا شيعة ولا من فرق الإسلام . .  
تلك هي أبرز فرق وفصائل التيار الباطني . . تفرقت بها سبل  
وصور وأسباب الغلو . . وجمعها إطار الاعتقاد بالباطن . .  
والتأويل . . والخاص والعام . . والتقية<sup>(١)</sup> . .



#### (١) مراجع :

- [مذاهب الإسلاميين] للدكتور عبد الرحمن بدوي - طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م .  
[دائرة المعارف الإسلامية] الطبعة العربية الثانية - القاهرة - مؤسسة دار الشعب .

هم الشيعة الباطنية ، الذين غالوا في التأويل على نحو لم يلتزموا فيه قواعد العربية ولا منطق الشريعة . . كما جعلوه قاعدة مطلقة ، وليس ضرورة واستثناء . . فلكل ظاهر عندهم باطن ، ولكل تنزيل تأويل ، يعممون ذلك في العقائد والعبادات والمعاملات والقيم ، في الثواب والمتغيرات ، في أخبار عالم الغيب وعالم الشهادة ، مع الإغراق فيما سموه وادعوه أسراراً ورموزاً للأسماء والحروف والأعداد .

وفي عقائد الإسماعيلية تمتاز الفلسفة اليونانية - وخاصة الأفلاطونية الحديثة - بفلسفة الإشراق - الغنوصية - بالإسلام . . ولقد بدأت الإسماعيلية في صورة انشقاق عن الشيعة الإمامية ، عندما قالوا إن الإمام بعد جعفر الصادق [ ٨٠ - ١٤٨ هـ ٦٩٩ - ٧٤٨ م ] هو ابنه الأكبر إسماعيل [ ١٤٣ هـ ٧٦٠ م ] وليس موسى الكاظم [ ١٢٨ هـ - ١٨٣ هـ ٧٤٥ - ٧٩٩ م ] . . ومن الإسماعيلية تفرعت انشقاقات عديدة ، أو غلبت عليها أسماء متميزة في بعض المواطن . . ففيها تعد : القرامطة . . والدروز . . والنصيرية . . والبابية والبهائية . . والبهرة . .

ولا يزال لهم وجود في أنحاء متفرقة من مشرق الوطن العربي والعالم الإسلامي<sup>(١)</sup> .

(١) مراجع :

[ مذاهب الإسلاميين ] للدكتور عبد الرحمن بدوي - طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م

[ كشاف اصطلاحات الفنون ] للتهانوي - طبعة الهند سنة ١٨٩٢ م

## القائمة

القرامطة واحدة من أهم وأخطر وأشهر الفرق الباطنية الإسماعيلية الشيعية . . ولقد جاءها هذا الاسم من اسم واحد من أشهر دعايتها : حمدان قرمط - أو قرمطويه - الذي كان من الأنباط في سواد - [ريف] - العراق . .

ومن أسماء هذه الفرقة - ذات الصلات بعقائدها - اسم : «السبعة» - نسبة إلى العدد سبعة . . ذلك أن من عقائدهم :

● أن الرسل سبع : آدم ، ونوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، ومحمد المهدي - وهو محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق . .

● وأن لأئمة - بعد محمد ، عليه السلام ، سبع : علي بن أبي طالب - وهو إمام رسول - والحسن ، والحسين ، وعلي بن الحسين ، ومحمد بن علي ، وجعفر بن محمد ، ومحمد بن إسماعيل بن جعفر - وهو الإمام القائم المهدي ، وهو رسول - وهؤلاء رسل أئمة . .

● وأن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قد انقطعت عنه الرسالة في حياته ، وانتقلت إلى الإمام علي بن أبي طالب ، في يوم «غدير خم» ، عندما قال ، وهو عائد من حجة الوداع - سنة ١٠ هـ - : « من كنت مولاه فعلى مولاه » . . فخرج بذلك من الرسالة والنبوة ، وأصبح تابعا لعلي ، ومحجوجا به .

● وأن بين كل اثنين من «الرسلى - الأئمة : النطقاء» سبعة أئمة يتممون الشريعة ، وبهم يُقتدى ، وهم : إمام يؤدى عن الله . . وحجة يؤدى عن هذا الإمام ، ويَحْمَلُ عليه ، ويَحْتَجُّ به له . . وذو قصَّة - أى ذلك الذى يَمُصُّ العلم - أى يأخذه - من الحجة . . وأربعة أبواب : هم الدعاة : الداعى الأكبر - وهو لرفع درجات المؤمنين - والداعى المأذون - الذى يأخذ العهود على الطالبين من أهل الظاهر فيدخلهم فى ذمة الإمام ويفتح لهم باب العلم والمعرفة - . . ومُكَلِّب - قد ارتفعت درجته فى الدين ، لكن لم يُؤذَن له فى الدعوة ، بل فى الاحتجاج على الناس ، فهو يحتج ويُرَغِّب إلى الداعى - . . ومؤمن يتبعه - أى يتبع الداعى - وهو الذى أَخَذَ عليه العهد وأمن وأيقن بالعهد ودخل فى ذمته وحزبه . .

● وأن الشرائع منسوخة بشريعة القائم المهدي سابع النطقاء محمد بن إسماعيل . . الذى جعل الله له جنة آدم - وهى عندهم - فى تأويلهم - : الإباحة للمحارم وجميع ما خلق فى الدنيا . . وأن تأويل قوله تعالى : ﴿ وَكَلَّا مِنْهَا رَغْداً حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ [البقرة: ٣٥] . . يعنى : محمد بن إسماعيل وأباه إسماعيل . . وتأويل : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ [البقرة: ٣٥] أى موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، ومن ادعى الإمامة من ولده . . فمحمد بن إسماعيل ، عندهم ، هو خاتم النبيين . .

● وأن جميع ما فرض الله على العباد ، وسائر ماسن الرسول لهم لها ظاهر وباطن . . وأن جميع الظاهر هى أمثال مضروبة :



والمراد منها المعاني الباطنة فيها ، وهي التي عليها العمل ، وفيها النجاة . . وأن الظاهر منتهى عنه ، وفي استعماله الهلاك ، وهو جزء من العذاب الذي يعذب به الآخضون به ، لأنهم لم يعرفوا الحق الباطن .

● وهم يعللون هذا «النظام السبعى» الذى اعتقدوه ، بكون أولى العزم - عندهم - سبعة : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، وعلى ، ومحمد بن إسماعيل . . والسموات سبع . . والأرضين سبع . . وبدن الإنسان سبع : يده ، ورجلاه ، وظهره ، وبطنه ، وقلبه . . ورأس الإنسان سبع : عيناه ، وأذناه ، ومنخراره ، وفمه - وفيه لسانه ، وفمه بمنزلة صدره الذى فيه قلبه . . والأئمة سبع ، قلبهم محمد بن إسماعيل . .

ولقد بدأ ظهور القرامطة فى الكوفة ، ثم انتشر مذهبهم باليمن والبحرين واليمامة . . ودخلت دولهم فى صراعات مسلحة ضد كل من الدولتين العباسية والفاطمية . . فهاجمت جيوشهم أجزاء عديدة من الشام والعراق والحجاز ، حيث قتلوا الحجاج بمكة ودنسوا بيت الله الحرام وانتزعوا من الكعبة الحجر الأسود . . كما هاجموا مصر الفاطمية عدة مرات . .

والقرامطة - فى الفكر السياسى والاجتماعى - تيار ثورى اشتراكى فى إطار فصائل الإسماعيلية الباطنية - ولقد استهوت مبادئهم - كما يقول أبو حامد الغزالى - «الطبقات العاملة وأهل الصناعات والحرف» . . وهم - فى المجتمعات التى أقاموها - قد تدرجوا فى الوصول إلى نظام «الاشتراك» فى الثروات والأموال . .

وينسب إليهم إباحة الاشتراك في النساء ، كما هو الحال في الأموال . . ومن الشعر المنسوب إليهم ، والذي ينم عن نزعة إلحادية ونظرة مادية ، قول أحد شعرائهم :

تلوم على ترك الصلاة حليتي      فقلت : اغربى عن ناظري ، أنت طالق  
قبوالله لا صليت لله مُفْلِسًا      يصلى له الشيخ الجليل وفائق  
لماذا أصلى ؟ أين بغيبى ومنزلى ؟      وأين خيولى والحلى والمناطق ؟ !  
أصلى ولا فتر من الأرض يحتوى      عليه يمينى ؟ إننى لمنافق !  
بلى . إن عَلَى الله وَسْع لم أزل      أصلى له ما لاح في الجو بارق !

كما كان النظام السياسى ، فى دولهم ، أقرب إلى النظم الجمهورية ، رغم قيام مذهبهم على الوصية والوراثة والنص والتعيين للإمام المعصوم .

وكان القرامطة يتدرجون فى الدعوة إلى مذهبهم ، وفى الارتقاء بالمدعويين عبر مراتب دعوتهم . . فهناك :

أ - مرتبة الزرق . . وفيها يتم تفرس حال المدعو . . هل هو قابل للدعوة أو لا ؟ . .

ب - ومرتبة التأئيس . . وفيها يستميلون المدعو بما يميل إليه هواه وطبعه ، من الزهد أو الخلاعة أو غيرهما . .

ج - ومرتبة التشكيك فى أركان الشريعة . .

د - ومرتبة التدليس . . وفيها يوهمونه بموافقه أكابر الدين والدنيا لمذهبهم حتى يزداد المدعو ثقة فى المذهب . .

هـ - ومرتبة التأسيس .. وفيها يمهّدون بمقدمات يسلم المدعو بها ، وتكون مفضية إلى الباطل الذي يقصدونه من بعد ..

و - ومرتبة الخلع .. وهو الاطمئنان إلى إسقاط الأعمال والتكاليف البدنية عن المدعو ..

ز - ومرتبة السلخ عن الاعتقادات الدينية - وفيها تكون الإباحة لكافة اللذات .. والحث على استعمالها . وتأويل سائر الشرائع ..

وفي بعض الدراسات أن مراتب الدعوة عندهم تسع لا سبع ..

ومن أمثلة التأويل للشرائع عندهم : تأويل الوضوء للصلاة .. بموالة الإمام .. وتأويل التيمم بالأخذ عن المأذون عند غيبة الإمام - الذي هو الحجّة - .. وتأويل الصلاة بالناطق - أى الرسول - وتأويل الاحتلام فى النوم بإفشاء شيء من أسرارهم إلى من ليس بأهل له ، دون قصد .. وتأويل الغسل بتجديد العهد .. وتأويل الزكاة بتزكية النفس عن طريق معرفة ما هم عليه من المذهب .. وتأويل الكعبة بالنبي .. وتأويل الباب بالإمام على بن أبى طالب .. وتأويل الصفا بالنبي .. والروة بالإمام على .. والميقات بالإيناس .. والتلبية بإجابة المدعو لدعوتهم .. والطواف بالبيت سبعا بموالة أئمتهم السبعة .. وتأويل الجنة براحة الأبدان من التكاليف .. والنار بمشقة الأبدان بمزاولة التكاليف .. الخ .. الخ<sup>(١)</sup> ..

(١) مراجع :

- [كشف اصطلاحات الفنون] للذهابى - طبعة الهند سنة ١٨٩٢ م .
- [مذاهب الإسلاميين] للدكتور عبد الرحمن بدوى . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .
- [الإسلام والثورة] للدكتور محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨ م .

## إخوان الصفا

هم جماعة «إخوان الصفاء وخلاان الوفاء» .. جماعة سرية .. شيعية .. إسماعيلية .. باطنية ، ذات توجه فلسفى تلفيقى ، جمعت فى نزعتها بين الإسلام - فى صورته التى تأوّلوها - وبين حكمة اليونان والفرس والهنود .. ولقد أخذوا من حكمة اليونان مثل الأفلاطونية ، وليس عقلانية المشائية الأرسطية .. ففيثاغورس [القرن السادس قبل الميلاد] وأفلاطون [٤٢٧ - ٣٤٧ ق . م] أنسب لعرفانهم الباطنى من أرسطو [٣٨٤ - ٣٢٢ ق . م] .. ولنظرية «الفيض» و «صدر» العالم عن الله بالتدرىج - العقل ، فالنفس ، فالمادة ، فعالم الطبايع ، فالأجسام ، فالأفلاك ، فالعناصر ، ثم المعادن والنبات والحيوان - لهذه النظرية فى الفيض شيوع فى تصوراتهم للموجود وللعلاقة بين مكوناته ..

ولم تقف نزعتهم التليفىقية عند حدود مزج الإسلام - بعد تأويله - بفلسفة اليونان والفرس والهنود .. وإنما طمحت هذه النزعة إلى توحيد الأديان كذلك ، حتى تتفق مع فلسفتهم ..

ولقد «ظهرت» هذه الجماعة أول ما ظهرت فى «البصرة» فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى .. وعرف المؤرخون لها من علمائها خمسة : أبو سليمان محمد بن مشير البُستى - المشهور بالقدسى - .. وأبو الحسن على بن هارون الزنجباني ، وأبو أحمد

محمد بن أحمد النهرجورى ، وأبو الحسن العوفى ، وزيد بن رفاعه . .

وكان أبو حيان التوحيدى [ ٤٠٠ هـ ١٠١٠ م ] عارفا بمذهبهم ، من طريق زيد بن رفاعه ، فنقل عنه سبب إقامتهم لهذه الجماعة . واتجاههم هذه الوجهة ، بأن «الشرعية قد دُنت بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية . . ومتى انتظمت الفلسفة الاجتهادية اليونانية والشرعية العربية فقد حصل الكمال . .»

فالفلسفة ، عندهم ، حاوية «للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية» . . ومعنى هذا أنها بديل يغنى عن الدين ؟ ! . .

ويؤكد هذا المذهب تفضيلهم الفلسفة على الشرعية ، على النحو الذى يجعلها تغنى عن الشرعية . . «فالشرعية : طب المرضى ، والفلسفة : طب الأصحاء . والأنبياء يطبون المرضى حتى لا يتزايد مرضهم ، وحتى يزول المرض بالعافية فقط . وأما الفلاسفة فإنهم يحفظون الصحة على أصحابها ، لا يعتر بهم مرض أصلا . فبين مدير المريض وبين مدير الصحيح فرق ظاهر وأمر مكشوف » !

ولقد أودعت هذه الجماعة فلسفتها فى «الرسائل» الاثنتين والخمسين - رسائل إخوان الصفا - التى عرضت للرياضيات . . والمنطق . . والعلوم الطبيعية . . وعلم النفس . . وما بعد الطبيعة . .

والتصوف .. والتنجيم .. والسحر .. الخ .. الخ ..

أما تنظيمهم السرى ، فكانت فيه أربع مراتب :

١ - مرتبة ذوى الصنائع : وهم الشبان الذين أتموا سن الخامسة عشرة ، والتميزون بصفاء جوهر النفس ، وجودة القبول وسرعة التصور .. ويسمونهم «الإخوان الأبرار والرحماء» ..

٢ - ومرتبة الرؤساء ذوى السياسات : وهم الذين أتموا سن الثلاثين ، وعرفوا بالحكمة والعقل ، ويسمونهم «الإخوان الأخيار والفضلاء» ..

٣ - ومرتبة الملوك ذوى السلطان : وتكون من الذين أتموا سن الأربعين ، وعرفوا بالقيام على حفظ التاموس - القانون - الالهى .. ويسمونهم «الإخوان الفضلاء الكرام» ..

٤ - والمرتبة العليا : التى يدعون الجميع إلى بلوغها ، وتتكون من الذين أتموا سن الخمسين .. وهم الذين أشبهوا الملائكة بقبول التأييد ، ومشاهدة الحق عيانا ، والوقوف على أحوال الآخرة .

ولقد تركت آراء إخوان الصفا آثارها فى فرق وحركات باطنية وإسماعيلية كثيرة ، من مثل الخشاشين ، والدروز<sup>(١)</sup> .

(١) مراجع :

(١) [رسائل إخوان الصفا] طبعة بيروت سنة ١٩٥٧ م .

منذ تأسيس الدولة الأموية (٤١ - ١٣٢ هـ - ٦٦١ - ٧٥٠ م) أصبحت شيعة آل البيت - علويين وعباسيين - في صفوف المعارضة ، التي لقيت من عنف الاضطهاد الأموي الشيء الكثير . . ولم يكن للعباسيين - ولد العباس بن عبد المطلب (٥١ ق . هـ - ٣٢ هـ ٥٧٣ - ٦٥٣ م) - طموح معلن في الخلافة ، ولا وجود ظاهر في دعوات الإمامة والمهدية وثوراتها على عهد الأمويين . . بل إن بعض أعلام البيت العباسي - ومنهم أبو العباس - السفاح - (١٠٤ - ١٣٦ هـ ٧٢٢ - ٧٥٤ م) وأبو جعفر المنصور (٩٥ - ١٥٨ هـ ٧١٤ - ٧٧٥ م) قد بايعا - أثناء اضطراب أمور الدولة الأموية - أواخر عهدها - لإمام علوي ، هو النفس الزكية ، محمد بن عبدالله بن الحسن (٩٣ - ١٤٥ هـ ٧١٢ - ٧٦٢ م) في المؤتمر الذي عقدته المعارضة بمكة للنظر في من يكون بديلا لبنى أمية في حكم المسلمين . .

لقد كانت معارضة آل البيت ، وهي تجمع بيعة المعارضين ، لا تحدد اسم الإمام المرشح ، وإنما كانت تدعو لبيعة «الرضي من آل محمد» ؟ . . ولم يكن المبايعون يعلمون شخص الإمام الذي تعقد له البيعة السرية ، علويا هو أم من بنى العباس ؟ . . وعندما انعقد مؤتمر مكة كانت البيعة لعلوي ، سبقت له الثورة خلف إمام



علوى سنة ١٢٢ هـ سنة ٧٤٠ م هو زيد بن على [٧٩ - ١٢٢ هـ  
٦٩٨ - ٧٤٠ م] ..

لكن خضم الدعوة السرية قد شهد استقلالاً عباسياً عن  
التيار العلوى ، منذ عهد محمد بن على بن عبدالله بن العباس  
[٦٢١ - ١٢٥ هـ ٦٨١ - ٧٤٣ م] . . الذى ولد فى «الحميمة» -  
بين الشام والمدينة - بالقرب من معان - بأرض الشراة - . . فلقد  
بدأ دعوة سرية لإمامة عباسية منذ سنة ١٠٠ هـ سنة ٧١٨ م . .  
وكان له دعاة ونقباء يجوبون له الخمس من شيعته فى البلاد . .  
وبعد سنة ١٢٠ هـ سنة ٧٣٨ م أصبح محمد بن على هذا  
الإمام السرى للهاشميين . . واستمر كذلك حتى وفاته سنة  
١٢٥ هـ سنة ٧٤٣ م . .

وكان لمحمد بن على هذا أبناء ثلاثة : إبراهيم [٨٢ - ١٣١ هـ  
٧٠١ - ٧٤٩ م] وأبو العباس - السفاح - وأبو جعفر المنصور . . وبعد  
وفاته تولى إمامة الدعوة العباسية ابنه إبراهيم ، بوصية من أبيه . .

وكان دعاة الدعوة العباسية يركزون على الأطراف التى لم تنضج  
عروبتها من أقاليم الدولة . . لأن عصبية العرب كانت فى بنى  
أمية . . والاتجاه العربى فى المعارضة كان مع العلويين . . ومن هنا  
كان اختيار الإمام إبراهيم بن محمد بن على بن عبدالله بن  
العباس لأبى مسلم الخراسانى [١٣٧ هـ ٧٥٥ م] ليكون والياً فى  
الدعوة السرية ، على الدعاة والشيعية فى خراسان . .

فلما اضطرب أمر الدولة الأموية ، فى عهد خليفتها مروان بن محمد

[١٢٧ - ١٣٢ هـ ٧٤٤ - ٧٥٠ م] وازداد نشاط الدعوة العباسية وبلغ مروان خبر إمامها إبراهيم ، قبض عليه ، وسجنه في حران ، إلى أن قتله في سجنه سنة ١٣١ هـ سنة ٧٤٩ م . . . أى قبل عام واحد من سقوط الدولة الأموية تحت ضربات الثورات التي اشتعلت في كثير من أقاليمها . .

وبعد مقتل الإمام إبراهيم . . انعقد مؤتمر المعارضة ، بمكة ، الذي بايع للنفس الزكية ، محمد بن عبدالله بن الحسن - وهو علوى - . . لكن التيار الخراساني في الثورة - بقيادة أبى مسلم الخراساني - كان عباسى الهوى والاتجاه ، ينفر - لتوجهه الشعبى - من التوجه العربى في الثورة ، الذى يقوده العلويون . . وكان مع أبى مسلم فى قيادة جيوش الثورة قائد عربى هو أبو سلمة الخلال ، حفص بن سليمان الهمداني [١٣٢ هـ ٧٥٠ م] - وكان يلقب فى حركة الثورة بـ «وزير آل محمد» - على حين كان يلقب أبو مسلم الخراساني بـ «أمين آل محمد» . .

فأراد التيار الخراساني ، ذو التوجه الشعبى . . والذى كان ينفذ - فى الموقف من العروبة - وصية الإمام العباسى إبراهيم بن محمد ، الموجهة لأبى مسلم والتي تقول : « . . وإن استطعت ألا تدع بخراسان أحدا يتكلم بالعربية إلا وقتلته فافعل ! . . » وعليك بضر ، فإنهم العدو القريب الدار ، فأبد خضراءهم ، ولا تدع على الأرض منهم ديارا ؟ . . » . .

أراد هذا التيار الشعبى الخلاص من التيار العربى . . فاغتالوا

أبا سلمة الخلال ، وألقوا بثقلهم وراء الفرع العباسي ، مستبعدة النفس الزكية ، وعاقدين البيعة بالخلافة لأبي العباس السفاح ! . . .  
ولقد استمر النفوذ الشعبي على الدولة العباسية ودعوتها ظاهراً حتى بعد قتل المنصور لأبي مسلم الخراساني سنة ١٣٧ هـ سنة ٧٥٥ م . . . ولم تبرأ هذه الدولة ودعوتها من سيطرة التيار «الخراساني - الشعبي» إلا بنكبة البرامكة [١٨٧ هـ ٨٠٣ م] على عهد هارون الرشيد [١٧٠ - ١٩٣ هـ ٧٨٦ - ٨٠٩ م] . . . وعند ذلك انفتح الباب للتيار العربي ، الذي كان المعتزلة من قواه الفكرية والاجتماعية والسياسية ، فبرز تأثيرهم في عهد المأمون [١٩٨ - ٢١٨ هـ ٨١٣ - ٨٣٣ م] والمعتصم [٢١٨ - ٢٢٧ هـ ٨٣٣ - ٨٤٢ م] والوائق [٢٢٧ - ٢٣٢ هـ ٨٤٢ - ٨٤٧ م] . . . برز تأثيرهم على الدولة العباسية ودعوتها . . .

ولقد ظلت الدعوة العباسية - في ظل دولتها - تواجه خطر الانشقاق العلوي ، الذي تمثل في الدعوة الزيدية ، وفي ثوراتها التي شقت عصا الطاعة ، وتمكنت من إقامة دول زيدية خارجة عن سلطة العباسيين . . . حتى لقد أحدث هذا الانشقاق في الهاشميين - الانشقاق : العباسي - العلوي - انشقاقاً في صفوف المعتزلة . . . «فمعتزلة البصرة» - «القدماء» هم الذين أيدوا الدولة ودعوتها . . . بينما وقف «معتزلة بغداد» - «المحدثون» - مع العلويين والزيديين<sup>(١)</sup> ! .

(١) مراجع :

- [الإسلام وفلسفة الحكم] للدكتور / محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٨٩ م
- [تيارات الفكر الإسلامي] للدكتور / محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٨٥ م

من الفرق الإسلامية المبتدعة . . وتنسب إلى داعيها أبو  
عبدالله ، محمد بن كرام بن عراق بن حزابة السجزي - أي  
السجستاني - [ ٢٥٥ هـ ٨٦٩ م ] .

والكرامية فرع من «المرجئة» . . ولهم في الإيمان مذهب يقول :  
إنه هو الإقرار والتصديق باللسان دون القلب ، ولذلك فالمتناقضون -  
في مذهبهم . . مؤمنون على الحقيقة ، لأنهم أقروا وصدقوا  
باللسان ، ولا عبرة بالكفر القلبي . .

والكفر ، عند الكرامية ، هو الجحود والإنكار باللسان . لكنهم يفرقون  
بين تسمية المؤمن مؤمناً فيما يرجع إلى أحكام الظاهر والتكليف في  
الدنيا ، وفيما يرجع إلى أحكام الآخرة والأجزاء ، فلتنافق مؤمن في الدنيا  
حقيقة ، ومستحق للعقاب الأبدى في الآخرة .

وهم يشبّهون الصفات للذات الإلهية على نحو يجعلهم «مُشَبَّهَةً  
وَمُجَسِّمَةً» . .

وفي السياسة يقولون : إن الإمامة تثبت بإجماع الأمة -  
فيتفقون مع أهل السنة - ويخالفون الشيعة القائلين بالنص  
والتعيين - . . وهم يقرّون البيعة لإمامين في قطرين ، لا اعترافهم  
بإمامة علي - في العراق - ومعاوية - في الشام . .

ولقد انقسمت الكرامية إلى فرق بلغ عددها الاثنى عشرة ، من أهمها : العابدية ، والنونية ، والزرينية ، والإسحاقية ، والواحدية ، والهيصمية - نسبة إلى دعائها .

مذهب فارسي قديم ، يذهب في تفسير العالم إلى القول بمبدأين متقابلين أزليين قديمين ، هما : النور والظلمة . . فالنور هو إله الخير والظلمة إله الشر . .

والثنوية فرق كثيرة ، تجتمع في اعتقاد المبدأين الأزليين - النور والظلمة - إلهي الخير والشر - وتختلف في فروع وتفصيل . . ومن أشهر فرقهم « المانوية » - أتباع ماني بن فاتك الحكيم [ ٢١٥ - ٢٧٦ م ] - الذي ظهر في عهد سابور بن أردشير [ ٢٤١ - ٢٧٢ م ] وقتله بهرام بن هرمز بن سابور . . وكانت المانوية مزيجاً من المجوسية والنصرانية . . وله كتاب « السابرقان » . . وأتباعه يقولون أنه خاتم الأنبياء ! .

ومن الثنوية : « المزدكية » - أتباع مزدك - الذي ظهر في زمن قباد [ ٤٨٨ - ٥٣١ م ] والد كسرى أنو شروان [ ٥٣١ - ٥٧٩ م ] - ولقد تبعه قباد ، لكن ابنه أنو شروان قتله لفساد مذهبه - وخاصة دعوته إلى مشاعية الأموال والنساء . . .

ومن فرق الثنوية - غير المانوية والمزدكية - الديصانية ، والمرقيونية ، والماهانية ، والصيامية ، والمقلاصية . .

والثنوية من المذاهب الغنوصية ، ذات النزعة التليفية بين الفلسفات الباطنية العرفانية وبين الأديان - والنصرانية والمجوسية - بوجه خاص (١) .

(١) مراجع :

المغني في أبواب التوحيد والعدل ج ٥ للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني - طبعة القاهرة .

فرقة من فرق الديانات الوضعية بالهند ، عرفها المسلمون عندما وصل الإسلام إلى شبه القارة الهندية ، وهم ينكرون النبوات والرسالات ، ويزعمون أن الأنبياء هم الذين فرقوا البشرية إلى فرق متناحرة . وفي المعارف وطرق اكتسابها هم ماديون دهيون ، ينكرون أن تكون للمعارف وسائل غير الخواص الخمس ، ولقد قادهم ذلك إلى إنكار وجود إله لا تدركه الخواص . .

ولقد دارت بين سمنية «السند» وبين طوائف من علماء الإسلام مناظرات في العهدين الأموي والعباسي . . وكانوا يتحدون المسلمين في المناظرات . . ومنهم من أسلم كثمرة لهذه المناظرات ، وخاصة عندما كان طرفها الإسلامي من علماء المعتزلة ، الذين استخدموا العقل وبراهينه في المناظرة ، وذلك على عكس علماء «أهل الحديث» ، الذين كانوا يحتجون بنصوص لا يؤمن السمنية بحججيتها<sup>(١)</sup> .

(١) مراجع :

[كشاف اصطلاحات الفنون] للتهانوي - طبعة الهند سنة ١٨٩١ م .  
[تيارات الفكر الإسلامي] للدكتور محمد عمارة - طبعة دار الشروق سنة ١٩٩١ م



## الطبايعيون

هم الذين يجعلون الأسباب المركبة في الطبيعة فاعلة - بشكل ذاتي ومستقل وكامل - للمسببات ، منكرين بذلك وجود خالق مسبب لهذه الأسباب والمسبباتها . . فهم يرجعون نمو الأشياء وتغيرها وحركاتها إلى طبيعتها ذاتها . . ويقولون إن «نسمة الحياة الأولى» قد تخلقت ذاتيا- وطبيعيا - دونما فعل خالق مفارق للطبيعة ووراءها .

وفي مقابل الطبايعيين ، وعلى النقيض منهم ، القائلون بنفي الأسباب من الطبيعة نفيا تاما ، وإرجاع كل الأسباب والمسببات إلى الذات الإلهية وحدها . .

وبين هذين المذهبين يتوسط الإسلام ، الذي يرى الطبيعة ذاتها مخلوقة لله ، سبحانه وتعالى - بل إن مصطلح «الخلقة» - في العربية - مرادف لمصطلح «الطبيعة» . . ويرى - الإسلام - أن خالق الطبيعة قد خلق فيها أسبابا وقوانين فاعلة لمسبباتها ، ولا تبديل ولا تحويل لعمل هذه الأسباب إلا بإرادة الخالق سبحانه وتعالى إذا أراد إحلال قوانين أخرى محلها . . وبهذا المذهب جمع الإسلام بين «الطبايع» وبين «التوحيد» لخالق الطبيعة وما فيها من قوى وأسباب . .

وتعبيرا عن المذهب الإسلامي - الذي توسط بين غلو مادي وغلو باطني - يقول أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ ١٦٣١ - ٢٥٥ هـ

٧٨٠ - ٨٦٩م] : «إن المصيب هو الذى يجمع تحقيق التوحيد وإعطاء الطبائع حقها من الأعمال . ومن زعم أن التوحيد لا يصلح إلا بإبطال حقائق الطبائع ، فقد حمل عبزه على الكلام فى التوحيد ، وكذلك إذا زعم أن الطبائع لا تصح إذا قرنها بالتوحيد ، ومن قال هذا فقد حمل عبزه على الكلام فى الطبائع . . وإنما يئأس منك الملحد إذا لم يدعك التوفر على التوحيد إلى بخس حقوق الطبائع ، لأن فى رفع أعمالها رفع أعيانها ، وإذا كانت الأعيان هى الدالة على الله ، فرفعت الدليل ، فقد أبطلت المدلول عليه! . .»

والطبائعيون هم الدهريون . . وجمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ - ١٣١٤هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] رسالة فى نقض مذهبهم ، وتعقب فكرهم عبر الحضارات الإنسانية ، غربية وشرقية ، مع إبراز دورهم فى انهيار هذه الحضارات . . ولقد كتبها - رسالة الرد على الدهريين - بالفارسية ، وترجمها إلى العربية الشيخ محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] بمساعدة خدام الأفغانى «أبو تراب»<sup>(١)</sup> . .

(١) مراجع :

[الإسلام وقضايا العصر] للدكتور . محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٨٤ م  
[الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة طبعة  
القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

## الوهابية

الوهابية . . مصطلح لا يرضاه أنصار هذه الدعوة علماً على دعوتهم! . . ومع ذلك فلقد اشتهرت به . . ولقد جاءها بسبب اشتهار نسبتها إلى داعيتها وشيخها محمد بن عبد الوهاب [١١١٥ - ١٢٠٦ هـ - ١٧٠٣ - ١٧٩٢ م] . .

ففى القرن الثانى عشر الهجرى - الثامن عشر الميلادى - ولد ونشأ محمد بن عبد الوهاب ، فى «نجد» - من شبه الجزيرة العربية - وكانت أسرته عامرة بالفقهاء ، الذين أخذ عنهم علوم الدين ، قبل أن يستزيد منها على يدى علماء مكة والمدينة . .

وكانت بادية نجد ، التى تغلب عليها بساطة الفكر ، وخشونة الطبيعة ، تخضع - كغيرها من أنحاء شبه الجزيرة العربية لسلطان الدولة العثمانية ، وتسود فيها الفكرية التى سادت ذلك العصر ، والتى أدخلت فى التصورات الاعتقادية الإسلامية ، وكذلك فى شعائر الإسلام وعباداته الكثير من البدع والخرافات ، فتغيبشت الصورة النقية لعقيدة التوحيد الإسلامى إلى حد كبير ، وأصبح العامة يتخذون الوسائل والوسائط شفعاء إلى الله ، بل ويتوجهون إلى الوسائط بالدعاء وطلب قضاء الحاجات عند المللمات! . .

ولما رأى ابن عبد الوهاب ذلك ، وعرض صورة «إسلام العامة» على حقيقة «إسلام السلف» وجد أن الإسلام الأول - إسلام

السلف - قد أصبح « غريباً »! . . فقرر أن يجاهد لتجديد وتصحيح عقائد الناس ، مقتدياً بإمام السلفية الأول الإمام أحمد بن حنبل [ ١٦٤ - ٢٤١ هـ ٧٨٠ - ٨٥٥ م ] ومن أتى بعده من أئمة هذا الاتجاه ، الذي مثل في تياراتنا الفكرية : النزوع إلى الوقوف عند النصوص ، والحدّ من التأويل وغيره من أدوات النظر العقلي ، مخافة التأثير بالتصورات الوافدة من الموارث الفكرية للحضارات الأخرى ، وتشبهاً بصورة الإسلام البسيطة التي سادت شبه الجزيرة العربية قبل عصر الفتوحات والتأثيرات الفكرية التي تلتها . .

ولقد كانت بيئة « تجدد » ، البسيطة ، أكثر ملاءمة للإسلام السلفي البسيط ، فظواهر النصوص تكفي للإجابة على علامات استفهام إنسانها البسيط ، كما تكفي لتصحيح معتقداته وتصوراتهِ وإعادة عباداته إلى إطار الإسلام الصحيح والبسيط ، دونما حاجة إلى العقلانية الكلامية أو الفلسفية ، وما أثمرت من « قياس » و « رأي » و « تأويل » . .

لقد انطلق ابن عبد الوهاب من تراث التيار السلفي ، وفكر الأئمة : أحمد بن حنبل ، وابن تيمية [ ٦٦١ - ٧٢٨ هـ ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م ] وابن قيم الجوزية [ ٦٩١ - ٧٥١ هـ ١٢٩٢ - ١٣٥٠ م ] مركزاً جهده على إصلاح « العقائد » وتقويم « التصورات » وتصحيح « العبادات » . . فحكم بالشرك ، الظاهر والجلي ، على المتوسلين إلى الله بالأولياء والصالحين والمشاهد والمزارات والرموز ، بل لقد رأى أن شركهم هذا هو أعظم من شرك الجاهلية الأولى . . ورفض - كما صنع أعلام السلفية الأولى - أن يحتكم لغير النصوص ، فهاجم

«القياس» ، حتى لو كان صحيحا ، وأعرض عن «التأويل» فى فهم النصوص وتفسيرها . . وأعلن أن «الرأى» لا وزن له بجانب النصوص . . ملتزما ، فى ذلك كله ، المنهج الذى صاغه الإمام أحمد ابن حنبل لهذا التيار . .

وكان طبيعيا أن تصطدم هذه الدعوة السلفية بالفكرية السائدة فى مناخ الدولة العثمانية ، والمنتشرة بين العامة ، والتى يرعاها سلاطين آل عثمان . .

بل إن هذا الصدام قد تعدى الحدود الفكرية . . فلقد كان ابن عبد الوهاب أكثر من «شيخ» ، وأعظم من «فقيه» ، وأكبر من «داعية» . . ومن ثم فإنه لم يشأ أن يقف بدعوته عند رسائل يؤلفها ، أو مواعظ يلقيها ، أو مذهب فقهي يبشر به ، أو حتى حلقة من أتباع والمريدين . . لقد أراد أن تكون «لدعوته» «دولة» ، تضمن لها التطبيق والانتشار والاستمرار . . فآله يزع «بالسلطان» مالا يزع «بالقرآن» ! . . ولعله قد أدرك أن أعلام التجديد والاجتهاد ، الذين بقى تجديدهم واجتهادهم فى نطاق تأليف الكتب وحلقات الدرس ودائرة المريدين ، قد عجزت جهودهم عن تغيير واقع التخلف الحضارى . . ولعله ، أيضا ، قد أبصر ما يميز به عصره من تعاظم التحديات التى تواجه الاسلام والمسلمين ، فأراد لجهوده ولدعوته أن تكون «حركة» ، ولهذه «الحركة» أن لاتقف عند حدود «القلم» ، فطمح أن يكون «اللقلم» «سيف» يضمن «للفكر» الفعل والصمود والانتشار والاستمرار ! . .



غادر ابن عبد الوهاب «حريملا» - التي بدأ فيها دعوته - إلى «العينينة» ، فعرض مذهبه عل رئيسها عثمان بن أحمد بن معمر ، الذى استجاب لدعوته ، فعقد معه عهداً أن ينصر دعوة التوحيد [لا إله إلا الله] ، ويسخر قوته لاقتلاع عقائد «الشرك» ورموزه ، مقابل أن يملكه الله نجداً وأعرابها» ! . فتحرك جيش «العينينة» ، وفى مقدمته ابن عبد الوهاب ، لهدم القباب المقامة على مقابر الأولياء ، ولاقتلاع الأشجار وإزالة الرموز التى كانت مقدسة لدى العامة ، يتخذونها وسائل تقربهم - بزعمهم - إلى الله زلفى ! . . . وكان قبر الصحابى زيد بن الخطاب [١٢ هـ ٦٢٣ م] ، باليمامة ، من بين القباب التى قاد ابن عبد الوهاب عملية هدمها ، بعد أن أجفل وتردد حتى جند أمير «العينينة» عن الإقدام على هدمه ! . . . ولقد استفز هذا العمل أعراب ناحية اليمامة ، فخشى عثمان بن معمر عداءهم وتمردهم ، فطلب إلى ابن عبد الوهاب مغادرة المنطقة خوفاً على حياته ، فغادر «العينينة» إلى «الدرعية» سنة ١١٥٨ هـ سنة ١٧٤٥ م . . .

وفى «الدرعية» تحالف ابن عبد الوهاب مع أميرها محمد بن سعود [١١٧٩ هـ ١٧٦٥ م] . . . فسادت الدعوة السلفية فيها وفى نجد وما تآخمها . . . ثم أخذ يعرض دعوته على حجاج بيت الله الحرام وزوار مسجد الرسول ﷺ ، فى موسم الحج والزيارة . . . وبدأ الحجاج يسمعون ويتناقلون آراءه التى تحكم «بالكفر» على المخالفين ! . . .

وكان ابن عبد الوهاب يقود الجهاد ، فى طليعة جيش ابن سعود . . . فهاجموا «كربلاء» ، بالعراق ، واستولوا على الكنوز



الذهبية والفضية النفسية لمشاهدها ومزاراتها سنة ١٢١٦ هـ سنة ١٨٠١ م . . ودخلوا المدينة المنورة سنة ١٢٢٠ هـ سنة ١٨٠٥ م ، وأزالوا القباب والشواهد الخاصة بمزارات الصحابة في مقابر البقيع . . وفي العام التالي ذهب ابن سعود إلى مكة ، حاجا ومستعرضا قوته ، فبايعه «شريفها» ، وطرد من كان بها من رجال الدولة العثمانية . . وهكذا تمت للوهابية - الدعوة والسلطة - السيطرة على الحرمين ونجد والحجاز ، فتصاعد تحديها للدولة العثمانية ، ولفكريتها المثقلة بالبدع والخرافات . .

لكن العثمانيين ، بعد أن فشلوا في مواجهة الوهابية ، استعانوا بمحمد علي باشا [١١٨٤ - ١٢٦٥ هـ ١٧٧٠ - ١٨٤٩ م] والجيش المصرى ، الذى أسقط الدولة الوهابية وأجهز عليها عندما احتل عاصمتها «الدرعية» فى ٧ ذى القعدة سنة ١٢٣٣ هـ ٨ سبتمبر سنة ١٨١٨ م ، بعد سنوات طويلة من القتال وذلك بعد ثلاثة أرباع القرن على ظهور دعوة ابن عبد الوهاب - . . وبتت الوهابية «دعوة» تسعى لإقامة «الدولة» ، حتى تيسر لها ذلك فى العقدين الثانى والثالث من القرن العشرين الميلادى ، على يد الملك عبد العزيز آل سعود [١٢٩٣ - ١٣٧٣ هـ ١٨٧٦ - ١٩٥٣ م] . .



لقد كانت الوهابية ، على جبهة «العقائد والشعائر الدينية» ، حركة تجديد سلفية ، انتقلت بالتجديد من إطاره الفردى إلى إطار «الدعوة» التى جاهدت لامتلاك «الدولة» لتتمكن من ترسيخ



فكرها وضمائم انتشاره واستمراره . . وفى هذا الإطار مثلت أولى حركات اليقظة الإسلامية فى عصرنا الحديث . .

كذلك ، مثلت ، على « الجبهة الحضارية » دعوة إلى تميز الحضارة الإسلامية عن الفكر الوافد - اليونانى القديم . . والغربى الحديث - . . وإن تكن بداوة بيئتها ، وفقر الفكر الفلسفى عند أعلامها قد جعل إسهامها على هذه الجبهة متمثلا فى رفض التبعية الفكرية ، مع العجز عن الإبداع فى بلورة البديل وتطويره . .

وعلى الجبهة السياسية ، مثلت الوهابية حركة معارضة للدولة العثمانية ، بدأت بالرفض للفكرية الدينية المحملة بالبدع والشعوذة ، والتي كانت سائدة فى مناخ الدولة العثمانية ، ثم اصطدمت دولتها بالسلطنة العثمانية . . بل لقد كان تبنى الوهابية للموقف السلفى للإمام أحمد بن حنبل ، حول « قرشية » الإمام ، ومن باب أولى « عربنة » . . كان تبنى الوهابية لهذا الموقف يعنى ، فى الواقع ، الرفض لشرعية الخلافة العثمانية ، والدعوة إلى خلافة عربية قرشية ! . .

وهى قد تميزت كطليعة للحركات التجديدية الإسلامية الحديثة بإقامة العلاقة بين الدين والدولة . . بين الدعوة الإسلامية وإقامة المجتمع الذى يطبق منهاج الدعوة الإسلامية . . لكنها ، بسبب من بداوة البيئة التى نشأت فيها ، وخصوصية التحديات المحلية التى واجهت إمامها - الشيخ محمد بن عبد الوهاب - قد اتخذت موقفا غير ودى من « العقلانية » ومن « التمدن » . . فظواهر النصوص كانت كافية للإجابة على ما تثيره بيئتها البدوية البسيطة من

مشكلات ، وماتطرحه من علامات استفهام . . ومواريتها السلفية ،  
التي بدأت بإمام السلفية أحمد بن حنبل ، قد رفضت «عقلانية  
المسلمين» ضمن رفضها «لعقلانية اليونان» ! . . وجاءت الوهابية ،  
محكومة بأوضاع بيئتها البدوية ، وبالمنهاج النصوصي لمواريتها  
السلفية ، فرفضت «التمدن» عامة ، كجزء من رفضها ذلك  
«التمدن الغربى» ، الذى كان يتسلل إلى عالم الإسلام من تلك  
الثغرات التى فتحها الغرب فى جدار دولة آل عثمان ؟ . .

لقد كانت تجديدا للعقيدة الدينية . . وجمودا فى التمدن  
الدينى . . وصدق فى دعائها قول الإمام محمد عبده ١٢٦٦ -  
١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م : « . . إنهم ، وإن أنكروا كثيرا من  
البدع ، ونحووا عن الدين كثيرا بما أضيف إليه وليس منه ، إلا أنهم  
يرون وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد ، والتقييد به ، بدون  
التفات إلى ما تقتضيه الأصول التى قام عليها الدين وإليها كانت  
الدعوة ولأجلها منحت النبوة ، فلم يكونوا للعلم أولياء ولا للمدنية  
أحباء ؟ ! . . »

ولعل هذا الطابع الذى تميزت به الوهابية هو الذى حال دون  
انتشارها خارج البيئة البدوية التى نشأت فيها<sup>(١)</sup> .

#### (١) مراجع :

- [مجموعة التوحيد] - رسائل للإمام محمد بن عبد الوهاب - طبعة المكتبة السلفية - القاهرة .  
[الدعوة الوهابية] العبد الكريم الخطيب - طبعة القاهرة سنة ١٩٧٤ م .  
[تيارات الفكر الإسلامى] للدكتور محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٨٥ م .

## الجامعة الإسلامية

الجامعة الإسلامية : «دائرة انتماء» ، عقدي .. وحضاري ..  
وسياسي .. نبت وتنع لدى المسلمين من حقيقة إسلامية أقامت  
الوحدة بينهم عندما وجدت انتماءهم إلى خمسة جوامع أساسية ،  
لا تنفي وحدتها ما بداخلها من تمايزات في «الانتماءات  
الفرعية» .. فالمسلمون توحدتهم :

١ - العقيدة الدينية الواحدة .. وفي إطارها تتمايز مذاهبهم  
الكلامية والصوفية ..

٢ - والشرعية الإلهية الواحدة .. وفي إطارها تتمايز مذاهبهم  
الفقهية في فروع العبادات والمعاملات ..

٣ - والحضارة الإسلامية الواحدة .. وفي إطارها تتمايز العادات  
والتقاليد والأعراف ..

٤ - والأمة الواحدة - بالمعنى العقدي والسياسي والحضاري  
للمتدينين بالإسلام - وبالمعنى السياسي والحضاري والثقافي  
للملئ والنحل التي تعيش في عالم الإسلام ، جزءاً أصيلاً في  
الأمة والرعية - وفي إطار وحدة الأمة تتمايز شعوب الأمة وقبائلها  
وأقوامها وأجناسها ومللها ..

٥ - ووحدة دار الإسلام .. وفي إطارها تتمايز الأوطان والأقاليم  
والولايات ..

فالانتماء إلى الجامعة الإسلامية ، وإن اعترف واحترم واعتنى

بالانتماءات الفرعية ، إلا أنه لا يكتفى بها ولا يقف عند حدودها كنهاية للمطاف ..

فهو يعنى رفض الوقوف بفكرة «الوطن» عند حدود دائرة «الإقليم» ، بل ويتجاوز دائرة «الوطن القومى» إلى «عالم الإسلام» ، الذى يضم «الأقاليم» و «القوميات» ..

وهو يعنى وجود «طابع حضارى» لهذا «الانتماء الإسلامى» ، فعلاقات الأقاليم الإسلامية والقوميات التى يضمها عالم الإسلام لا تقف عند حدود حسن الجوار ، أو المصالح الأمنية والاقتصادية .. وإنما تعنى ، فوق ذلك ، ومع ذلك ، وجود «وحدة فى الحضارة الإسلامية» ، تجعل من عالم الإسلام هذا ، بأقاليمه وقومياته منظومة حضارية متميزة بين الحضارات الإنسانية الأخرى ..

فهو انتماء موحد إلى الجوامع الخمسة الموحدة للمسلمين ، يغتنى بما فى داخلها من تمايزات وانتماءات فرعية ..



وفى العصر الحديث ، أصبح شعار «الجامعة الإسلامية» العنوان والمظلة لذلك التيار الفكرى والسياسى العريض ، الذى أبصر قاداته ودعاته ودعواته وحركاته وأنصاره أن هناك عددا من التحديات التى تواجه الفكر الإسلامى وعالم الإسلام ، سواء أكانت تلك التحديات داخلية ، كالتخلف الفكرى والروحى والانحدار الحضارى والسياسى والصراعات الإقليمية والقبلية .. أو آتية من الخارج ، فى شكل المد الاستعمارى الغربى ، وما جاء فى ركابه من غزو فكرى يحتل العقل المسلم ، ونهب اقتصادى للثروات الإسلامية ، واحتلال عسكرى يلحق عالم الإسلام إلحاق التبعة بالمركز الغربى ، تأييدا للتخلف ، وإعاقة للتقدم والنهوض ..

تيار الجامعة الإسلامية ، هو الذى أبصر أصحابه هذه التحديات ، ثم آمنوا بأن تشخيصها ، فى مختلف البلاد الإسلامية ، ومن ثم تحديد سبل الخروج منها ، لا بد وأن ينطلق من المنهاج الإسلامى والمرجعى الإسلامية . . فالإسلام - عند هذا التيار - هو باعث النهضة ، ومنهاج التقدم ، لعودة المسلمين - مرة أخرى - إلى مكانتهم الحضارية التى سبق واحتلوها بهذا الإسلام .

\*\*\*

ولكن وحدة شعار الجامعة الإسلامية ، لم تخف فى يوم من الأيام حقيقة تمايز تيار الجامعة الإسلامية إلى «مدارس» و «فصائل» و «دعوات» ، ميزت بينها «الفروق» ، كما جمعت بينها «الأشباه والنظائر» . . وذلك عندما اتفقت فى المقاصد - وجوهرها : إنهاض المسلمين بالإسلام - . . وتميزت فى الوسائل والسبل والتفاصيل - . .

● فنحن نستطيع أن نذكر الحركة الوهابية ، التى أسسها إمامها الشيخ محمد بن عبد الوهاب [ ١١١٥ - ١٢٠٦ هـ ١٧٠٣ - ١٧٩٢م ] كأقدم فصيل فكرى وسياسى يمكن أن يندرج تحت شعار «الجامعة الإسلامية» فى عصرنا الحديث . . فلقد كانت الوهابية - فى الفكر - دعوة وحركة ترمى إلى تجديد شباب الإسلام والمسلمين ، عن طريق طرح ركam البدع والخرافات التى دخلت فى عقائد المسلمين . . ثم إنها لم تقف عند حدود «الدعوة» ، وإنما غدت لها «دولة» جسدتها فى الممارسة والتطبيق .

● وكانت الحركة السنوسية ، التى أسسها بالمغرب العربى إمامها الشيخ محمد بن على السنوسى [ ١٢٠٢ - ١٢٧٦ هـ ١٧٨٧ -

١٨٥٩م] هي الامتداد الوهابي إلى بلاد الشمال الإفريقي ، بعد أن أدخلت في بنيتها الفكرية ونشاطها العملي خصائص المكان وتحديات الاستعمار الغربي ، الذي وأجهته . . ومن ثم ، فإن السنوسية التي تميزت عن الوهابية بمزج الصوفية بالسلفية ، وبمواجهة الاستعمار الغربي ، لا الدولة العثمانية . . كانت هي الأخرى فصيلا من فصائل الجامعة الإسلامية . . وغدت ، من خلال « الزوايا » ممارسة حياتية جسدت « الدعوة » في واقع الحياة . .

● وكذلك الدعوة والحركة المهدية ، التي أسسها - بالسودان - إمامها محمد أحمد « المهدي » [ ١٢٠٦ - ١٣٠٢ هـ ١٨٤٤ - ١٨٨٥م ] بما مثلت - في الفكر - من تجديد . . وفي السياسة من تصد للغرب ، ومن دعوة لتحرير عالم الإسلام « من غانة إلى فرغانة » - كما قال المهدي - كانت هي الأخرى فصيلا من فصائل الجامعة الإسلامية ، تلاءمت مع ظروف السودان وواقعه في ذلك التاريخ . . ولقد جسدت « الدعوة » من خلال « الثورة » و « الدولة » لعدة عقود .

● بل إن تيار الدعوة الإسماعيلية الحديثة ، التي كان من أبرز قادتها « أغاخان » [ ١٢٩٤ - ١٣٧٦ هـ ١٨٧٧ - ١٩٥٧م ] قد عمل هو الآخر تحت شعار الجامعة الإسلامية ، وفي ذلك يقول أغاخان : « إن هناك جامعة إسلامية حقة صريحة ينضم إلى لوائها الحركل مسلم مؤمن مخلص ، أعنى بذلك الرابطة الروحانية الوجدانية ، والوحدة الجامعة بين أتباع صاحب الرسالة الإسلامية . فهذه الوحدة الإسلامية الروحانية التهذيبية يجب أن تتعهد فتنموا أبدا ، لأنها عند أتباع النبي أس الحياة وجوهر النفس » . .



فحتى عند الباطنية ، ارتفع هذا الشعار ، عنوانا على الرابطة  
«الروحية الوجدانية» الجامعة . .

● ومن فصائل الجامعة الإسلامية من دعت الظروف والملايسات  
والإمكانات إلى التركيز على العمل السياسى أكثر من الإحياء  
الدينى الشامل . . وذلك مثل «الحزب الوطنى» ، الذى قاده  
مصطفى كامل باشا [١٢٩١ - ١٣٢٦ هـ ١٨٧٤ - ١٩٠٨ م] . .  
فلقد كانت معركته الكبرى هى إجلء الاحتلال الإنجليزى عن  
مصر ، ومن ثم كان تركيزه على «الوطنية المصرية» ، ولكن فى إطار  
الانتماء للجامعة الإسلامية . . ولقد عبر عن هذه العلاقة بقوله :  
«إننا نطلب استقلال وطننا وحرية ديارنا . . ولا ينعنا هذا من النظر  
إلى الوجهة الدولية للمسألة المصرية . . فمصر للمصريين . . ومحال  
أن نطلب مالكا أجنبيا عنا . . لكننا نود أن نكون قوة محالفة للدولة  
العلية (العثمانية) . . فمن ناموس الطبيعة أن من اتفقت مصالحهم  
يجتمعون ويتناصرون . . ونحن إذا اعتمدنا على الإسلام وقواعده  
وأوامره وإرشاداته ، وأخذنا من المدنية الغربية فوائدها ومنافعها . .  
بلغنا أقصى مايرام من مجد وعز وسؤدد ومقام رفيع . . فميل المسلم  
لأبناء دينه أمر طبيعى وشرعى ، يزكيه أن لتأخر الشعوب  
الإسلامية أسبابا واحدة . . وهذا هو معنى حركة الجامعة  
الإسلامية . .»

فالانتماء الفرعى - مصر للمصريين - والذى كان تحدى  
الاحتلال الإنجليزى سببا للتركيز عليه ، قد أصبح جزءا من  
الانتماء الإسلامى الجامع . .

● بل إن الدعوة والحركة والثورة العربية - التى قادها أحمد  
عرابى باشا [١٢٥٧ - ١٣٢٩ هـ ١٨٤١ - ١٩١١ م] . . فى مصر



[١٢٩٩ هـ ١٨٨٢م] - والتي رفعت ، هي الأخرى ، شعارات وطنية . . لم تكن بمعزل عن الانتماء إلى تيار الجامعة الإسلامية . . فعرباني هو صاحب تشبيه العلاقة بين الأوطان والأقاليم الإسلامية وبين خلافة السلطان العثماني بالمنزل ، الذي يختص كل ساكن بحجرة فيه ، دونما تناقض أو انفصال بين الحجرات ، وأيضا دونما إلغاء لهذا الاختصاص ! . . وهو ، أيضا ، الذي استنكر - في رسالته إلى جورجى زيدان - أن يكون هدف الثورة العربية إسقاط الجامعة الإسلامية من محيط الانتماء ، وقال : «إن هذا الادعاء هو من إرجاف المرجفين . . لأننى أرى فى ذلك ضياعا للإسلام عن بكرة أبيه » . .

● على أن أشهر وأفضل وأعظم فصائل تيار الجامعة الإسلامية ، كان ذلك الذى تبلور من حول جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] . . والذى تأسس شعبيا أهليا - وخاصة بين الصفوة من العلماء والقادة للرأى العام - ثم تحالف مع الدولة العثمانية لنصرة الدعوة إلى الجامعة الإسلامية . . كما تميز بشموله كل عالم الإسلام . . فلم يقف عند إقليم أو قضية وطنية ، مع ربطها بالجامعة الإسلامية . . وإنما انطلق من شمولية الدعوة للجامعة الإسلامية ، سالكا القضايا الوطنية والمشكلات الإقليمية فى سلكها العام ، دون إغفال للأوزان المتفاوتة للقضايا الوطنية ، لعلاقة هذه الأوزان بنصره المقصد العام . .

كذلك تميزت دعوة الجامعة الإسلامية ، عند هذا التفصيل ، بعدد من المميزات ، كان فى مقدمتها :

١ - الإصلاح الدينى ، من منطلق العقلانية التى توازن بين «الرأى» و «الأثر» ، إيمانا بأن الشرق لن ينتصر فى صراعه مع

الغرب إلا إذا تسلح بسلاح العقل ، ذلك السلاح الذى ضمن للغرب تفوقه فى هذا الصراع .

٢- وتجديد الصلات الحضارية مع الغرب ، واقتباس المناسب من حضارته وعلومه - كما صنع العرب والمسلمون فى العصر العباسى - حتى يتمكن الشرق من العودة إلى التأثير والعطاء الحضارى مرة أخرى .

٣- والحفاظ على بقاء السلطنة العثمانية ، وتنمية جوانبها الإيجابية ، والعمل على تجديد شبابها ، لا من منطلق الإيمان بحيازتها شروط الخلافة الإسلامية الكاملة ، وإنما من منطلق الضرورات التى يحتمها التصدى للعدو الرئيسى وهو الاستعمار الغربى الزاحف على ديار الإسلام ..

ولذلك ، كان تحالف هذا الفصيل مع الدولة العثمانية ، ومع السلطان عبد الحميد الثانى [١٢٥٨ - ١٣٣٦ هـ ١٨٤٢ - ١٩١٨ م] فى الدعوة للجامعة الإسلامية ، جامعاً لمقاصد هذا التيار فى التصدى للتحديات الاستعمارية المهددة للوجود المستقل للأمة .. وفى التجديد للذاتية الإسلامية ، باعتبار هذا التجديد باب التقدم والنهوض ، وشرط الانتصار على التحديات الاستعمارية .. ومن هنا كان تعاون الأفغانى مع السلطان عبد الحميد تعاوناً يستهدف تحقيق ..

١ - فعالية أكبر فى مواجهة الخطر الرئيسى : الاستعمار الغربى ..

٢ - والإصلاح الدستورى لنظام الحكم وفلسفته فى الدولة ..

٣ - وتطهير أجهزة الدولة القيادية من الخونة والعجزة والفاستدين ..

٤ - واستبدال «اللامركزية» - التى تتيح فرص النمو والازدهار

للخصائص القومية والإمكانات الوطنية والمادية - فى علاقات أقاليم الدولة وولاياتها «المركزية» القتالة للخصائص الذاتية للأقاليم والولايات . . وحتى تغلق الأبواب أمام دعوات التمزيق والتشردم باسم القوميات والمذاهب والملل المختلفة . .

٥ - وتعريب «الدولة» لتصبح الدولة الإسلامية ناطقة بلسان الإسلام والقرآن . .

٦ - وتحرير ثروات العالم الإسلامى من نهب واستغلال الشركات الاستعمارية . . «غاية الجامعة الإسلامية الاقتصادية» هى : ثروة المسلمين للمسلمين ، وثمرات التجارة والصناعة فى جميع المعمور الإسلامى هى لهم يتنعمون بها ، وليست لنصارى الغرب يستنزفونها . وهى : نفص اليد من رءوس المال الغربية والاستعاضة عنها برءوس مال إسلامية ، وفوق جميع هذا ، هى تخطيط نواجذ أوربة ، تلك النواجذ العاضة على موارد الثروة الطبيعية فى بلاد المسلمين ، وذلك بعدم تجديد الامتيازات فى الأرضين والمعادن والغابات وقطر الحديد والجمارك ، والعقود التى ما دامت خارجة من أيدي العالم الإسلامى فهو يظل عالة على الغرب» . .

لتحقيق هذه الأهداف قام التحالف بين تيار الجامعة الإسلامية ، الذى قاده جمال الدين الأفغانى ، - وهو الذى أصبح شعار «الجامعة الإسلامية» علما عليه - وبين الدولة العثمانية ، وسلطانها السلطان عبد الحميد الثانى . . وأعلن الأفغانى : «أن الممالك الإسلامية فى الشرق لا تسلم من شرك أوربا ولا من السعى وراء إضعافها وتجزئتها ، وفى الأخير ازديادها واحدة بعد أخرى ، إلا بيقظة وانتباه عمومى ، وانصواء تحت راية الخليفة الأعظم . . .» . .



وإذا كانت التحديات قد غالبت هذا «التيار الإنقاذي» ، فحالت بينه وبين تجديد الدولة العثمانية وإنقاذ الممالك الإسلامية من شرارك أوروبا . . بل وغالبت هذه التحديات الدولة العثمانية فغلبتها ، وطوت صفحاتها في سنة ١٣٤٢ هـ سنة ١٩٢٤ م . . فلقد ظلت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية المظلة التي تظل كل الدعوات الساعية إلى تجديد الإسلام لتتجدد به دنيا المسلمين . .

وفى مواجهة الأحزاب الوطنية ، التي وقفت بالوطن عند الإقليم . . والأحزاب القومية ، التي وقفت عند العرق واللغة ، مديرة ظهرها للدائرة الحضارية الإسلامية . . ظلت دعوات الجامعة الإسلامية على منهاجها الجامع بين «الوطنية» و «القومية» فى إطار «الجامعة الإسلامية» . . ولقد جسّد الشيخ حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م] هذا المنهاج عندما قال : «إن مصر هى قطعة من أرض الإسلام ، وزعيمة أمّة ، وفى المقدمة من دول الإسلام وشعوبه . . والمصرية لها فى دعوتنا مكانها ومنزلتها وحققها فى الكفاح والنضال . . إننا نعتز بأننا مخلصون لهذا الوطن الحبيب ، عاملون له ، مجاهدون فى سبيل خير ، وسنظل كذلك ما حيينا ، معتقدين أن هذه هى الحلقة الأولى فى سلسلة النهضة المنشودة . وأنها - [أى مصر] - جزء من الوطن العربى العام ، وأننا حين نعمل لمصر نعمل للعروبة والشرق والإسلام . .

والعروبة - وهى الحلقة والدائرة الثانية والتالية - لها فى دعوتنا كذلك مكانها البارز وحظها الوافر ، فالعرب هم أمة الإسلام الأولى وشعبه المتخير ، وبحق ما قاله عليه السلام : «إذا ذلّ العرب ذلّ الإسلام!!» . ولن ينهض الإسلام بغير اجتماع كلمة الشعوب العربية ونهضتها . . إن هذه الشعوب الممتدة من الخليج إلى المحيط

كلها عربية ، تجمعها العقيدة ، ويوحد بينها اللسان ، وتؤلفها  
الوضعية المتناسقة في رقعة من الأرض متصلة متشابهة ، لا يحول  
بين أجزائها حائل ، ولا يفرق بين حدودها فارق . . ونحن نعتقد  
أننا حين نعمل للعروة نعمل للإسلام ، ولخير العالم كله . .

ودعوتنا ذات مراحل ، ونرجو أن تتحقق تباعا . نرجو أن تقوم في  
مصر دولة مسلمة ، تحتضن الإسلام ، وتجمع كلمة العرب ، وتعمل  
لخيرهم ، وتحمي المسلمين في أكناف الأرض من عدوان كل ذي  
عدوان . . فواجب أن يعمل الإنسان لوطنه ، وأن يقدمه في العمل  
على سواه . . وواجب أن نعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها  
ومناصرتها . . باعتبارها الحلقة الثانية في النهوض . . وواجب أن  
نعمل للجامعة الإسلامية ، باعتبارها السياج الكامل للوطن  
الإسلامي العام . . ولا تعارض بين هذه الواحدات ، بهذا الاعتبار ،  
فكل منها يشد أزر الأخرى ، ويحقق الغاية منها . .



لقد ظلت راية الجامعة الإسلامية مرتفعة ، تظلل الدعوات  
الإسلامية الإحيائية والنهضوية ، لكن أولوياتها قد تغيرت بعد  
سقوط الخلافة العثمانية وانفراط عقد ولاياتها الإسلامية ، عن  
أولوياتها قبل هذا التحول الجوهري والمتغير الفارق في تاريخنا  
الحديث . .

فقبل انفراط عقد الوحدة الإسلامية ، كان هدف تيار الجامعة  
الإسلامية : الحفاظ على عقد هذه الوحدة ، والاستعانة على ذلك  
بتجديد الذات ، تعظيما للقوة التي نتصدي بها للتحديات  
الخارجية . . أما بعد انفراط عقد الوحدة الإسلامية ، فلقد غدا

الطريق إلى الجامعة الإسلامية هو : إقامة الدولة الإسلامية النموذج ، التي لا تقف مقاصدها عند دائرة الإقليم ، وإنما تسعى لتسلك دوائر «الوطنية» و «القومية» في إطار الجامع الأعظم للإسلام ، وذلك وصولاً إلى إعادة الوحدة إلى الجوامع الإسلامية الخمسة ، التي توحد المسلمين في العقيدة .. والشريعة .. والأمة .. والحضارة .. ودار الإسلام .

ولهذه الحقيقة ، لم تعرف دعوات الجامعة الإسلامية - ولم تعترف - بـ «الجنسية» ، التي جاءتنا من نظام وثقافة «الدولة القومية» الأوروبية ، والتي تقف عند الدائرة القومية لا تتعداها ، ممزقة بهذه «الجنسية» وحدة الجوامع التي أقامها الإسلام .. فهذه «الجنسية» - كما يقول الإمام محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] - ليست معروفة عند المسلمين ، ولا لها أحكام تجري عليهم ، لا في خاصتهم ولا عامتهم ، وإنما الجنسية عند الأمم الأوروبية تشبه ما كان يسمى عند العرب : عصبية .. جاء الإسلام فألغاه .. فلا جنسية في الإسلام .. . فجنسية الأمة الإسلامية هي دينها .. ووطنها هو دار الإسلام ..

وكما طمحت الجامعة الإسلامية إلى جعل الطوائف والمملك الدينية لبنات في بناء الأمة الواحدة ، لأنه «إذا تنافرت الطوائف تشاغل كل منها بما يحط شأن الأخرى ، فكانت كل مساعيهم ضرراً على أوطانهم» - كما يقول الإمام محمد عبده - .. ولأن مابين الديانات السماوية من مقاصد مشتركة كبير وكثير ، إذ «لا ترى في الأديان الثلاثة ما يخالف نفع المجموع البشري ، بل بالعكس تحضه على أن يعمل الخير المطلق مع أخيه وقريبه ، وتحظر



عليه عمل الشر مع أى كان . . أما اختلاف أهل الأديان فهو صنع بعض رؤسائها ، الذين يتجرون بالدين ، ويشترون بآياته ثمنًا قليلًا . ساء ما يفعلون ! - كما يقول الأفغانى . . .

كما طمحت الجامعة الإسلامية إلى التأليف بين الملل الدينية فى إطار وحدة الأمة الإسلامية والرابطة الشرقية ، كذلك حرصت على نفي تهمة الحرب الدينية - مع أوروبا - عن مقاصدها ومقاصد الداعين إليها - وفى ذلك يقول الإمام محمد عبده : «إنه لم يخطر ببال أحد من يدعون إلى الرجعة إلى الدين أن يثير فتنة على الأوربيين أو غيرهم من الأمم المجاورة للمسلمين . . .»

إنها انتماء جامع ، لأمة عظيمة ، تبتغى النهضة بالإسلام ، كى تتخذ لها المكان اللائق بها بين أمم الحضارات الأخرى ، وليس على حساب تلك الأمم ، ولا فى عداء لتلك الحضارات<sup>(١)</sup> .

#### (١) مراجع :

- ١ - الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٩ م .
- ٢ - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣ م .
- ٣ - حاضر العالم الإسلامى - د . دلوثرروب ستودارد . ترجمة : عجاج لويهض . وتعليق : شكيب أرسلان . طبعة بيروت سنة ١٩٧١ م .
- ٤ - مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا . طبعة دار الشهاب بالقاهرة - بدون تاريخ .
- ٥ - جمال الدين الأفغانى بين حقائق التاريخ وأكاذيب لويس عوض للدكتور محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٩٧ م .
- ٦ - الجامعة الإسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل . للدكتور محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤ م .



الصَّحْوَة - لغة - من الصَّحَّو - وهو ذهاب الغيم .. وارتفاع النهار .. وذهاب السُّكْر .. وترك الصُّبَا والباطل .. وفي الاصطلاح : هي اليقظة ، تصيب الفرد أو الأمة ، بعد سِنَةٍ وغفلة وتخلّف وتراجع .. ويشيع إطلاقها - في واقعنا المعاصر - على نزوع أمتنا إلى النهضة الإسلامية ، بعد عصر التراجع الحضارى ، الذى امتد تحت حكم العسكر المماليك والسلطنة العثمانية .. وهى صحوة تجاهد على صعيدين ، وفى جبهتين :

- ١ - صعيد وجبهة التخلف الذاتى ، الموروث عن حقبة التراجع الحضارى ..
- ٢ - وصعيد وجبهة التحديات الغربية ، التى تريد تهميش دور الأمة الإسلامية ، وإحاقها بالتبعية للغرب ، ليتأبد استغلال الغرب وهيمنته على عالم الإسلام ..

ووصف هذه الصحوة بالإسلامية ، إنما يأتى تمييزاً لها عن مشاريع النهوض التى اختار أصحابها المذاهب والفلسفات الغربية مرجعية لدعوات النهوض ونماذج التحديث التى يبشرون بها - ليبرالية .. أو اشتراكية .. أو قومية كانت تلك النماذج والدعوات ..

فالصحوة الإسلامية هى ذلك التيار العريض - المتعدد ألفصائل والمستويات - الذى يسعى إلى تجديد الدين الإسلامى لتتجدد به دتيا المسلمين ..

ولما كانت سُنَّة الله ، سبحانه وتعالى ، فى مسارات الأمم  
والحضارات ، هى «سنة الدُّورات» ، التى تتداول فيها الأمم  
والحضارات فترات وحقب التقدم والتراجع ، والصعود والهبوط ،  
والنهوض والركود ، والحياة والموت . . . وهى السنة التى أشار إليها  
القرآن الكريم عندما قال : ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم  
الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ﴾  
[آل عمران : ١٤٠] ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا  
أمثالكم ﴾ [محمد : ٣٥] ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض  
لفسدت الأرض ﴾ [البقرة : ٢٥١] والتى بيّنها حديث رسول الله ،  
ﷺ ، الذى قال فيه : «لا يلبث الجور بعدى إلا قليلا حتى يطلع  
فكلما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله ، حتى يولد فى  
الجور من لم يعرف غيره . ثم يأتى الله ، تبارك وتعالى ، بالعدل ،  
فكلما جاء من العدل شيء ذهب من الجور مثله ، حتى يولد فى  
العدل من لا يعرف غيره» - رواه الإمام أحمد - . .

إذا كانت «سُنَّة الدُّورات» هى التى تحكم مسارات الأمم والحضارات ،  
فإن هذه السُنَّة تقتضى «الصَّحوة» . . و «اليقظة» . . و «التجديد» :  
خروجاً من مراحل ودورات «الغفلة» . . و «التراجع» . . و «الجمود» . .  
فصحوة التجديد هى الأخرى سُنَّة من سنن الله فى الاجتماع  
الإنسانى وفى مسارات الحضارات . . وعن هذه الحقيقة - التى  
يؤكدها استقراء مسارات الحضارات الإنسانية - ، ينبع حديث

رسول الله ﷺ ، الذى يقول : « يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » - رواه أبو داود - . .

وإذا كانت الحضارات الإنسانية هي مواضع بشرية وإبداعات مدنية ، لا توصف بالخلود ولا بالإطلاق ، ومن ثم يجوز عليها الموت وإخلاء الطريق لحضارات أخرى وارثة لأعمها وشعوبها وتاريخها ، بمعنى أن سنة الصحوة والتجديد قد تأتي في صورة تداول الحضارات ، لا ببعثها وتجديدها . . فإن الحضارة الإسلامية - وأيضاً اللغة العربية - مع أنهما مواضع بشرية وإبداعات إنسانية - هما استثناء من مصير موت وفناء الحضارات واللغات . . فالعاملة فيهما هي سنة البعث والصحوة والتجديد ، لا سنة الموات ، وذلك لارتباطهما بالمطلق الدينى - وهو الإسلام الخالد والخاتم . . والقرآن الكريم ، الذى تعهد الله بحفظه ، وجعله بلسان عربى مبين - . . ولذلك ، كانت الصحوة وكان التجديد سنة مطردة وقانوناً لازماً في مسار الحضارة الإسلامية ، يقودها إلى النهوض بعد كل ركود . . وهذا هو الذى جعل حضارتنا الإسلامية . . ومعها اللغة العربية - أطول الحضارات المعاصرة عمراً ، وأرسخها قدماً على درب النهوض من العثرات ، وأكثرها استعصاء على فقدان الهوية والخصوصية ، لارتباط ذلك فيها بالمطلق الدينى والخالد الإلهى . . فهى إبداع مدنى بشرى ، حفز إليه وصبغه وحدد معايير الوضع الإلهى ، المتمثل فى وحى الله ونبأ السماء العظيم - وتلك خصيصة لحضارتنا الإسلامية تفردت بها دون كل الحضارات - . .

وإذا كانت الحقبة «المملوكية - العثمانية» قد مثلت مرحلة التراجع فى مسيرة حضارتنا الإسلامية ، فإن بواكير الصحوة الإسلامية قد بدأت فى بلادنا منذ أكثر من قرنين من الزمان . .

وفى استطاعة المؤرخ لهذه الصحوة أن يتخذ من نداء الشيخ حسن العطار [١١٨٠ - ١٢٥٠ هـ ١٧٦٦ - ١٨٣٥ م] - أواخر القرن الثامن عشر الميلادى - علامة على مرحلة التبلور لبواكير هذه الصحوة . . ذلك النداء الذى قال فيه هذا الشيخ الرائد : «إن بلادنا لا بد أن تتغير ، ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها . .»

ولقد كان تلاميذ الشيخ حسن العطار - وفى طليعتهم الشيخ رفاعة الطهطاوى [١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ ١٨٠١ - ١٨٧٣ م] - الذين سعوا إلى تجديد «الذات الإسلامية» - بالإحياء - وإلى الاستفادة من علوم المدنية الغربية - علوم الواقع والتمدن المدنى - بالتفاعل - وليس بالمحاكاة والتقليد - كانت هذه المدرسة هى طلائع وجذور الصحوة الإسلامية الحديثة والمعاصرة . .

فلما حدث وعاجل المد الاستعمارى الغربى مشروع النهضة الذى قاده محمد على باشا الكبير [١١٨٤ - ١٢٦٥ هـ ١٧٧٠ - ١٨٤٩ م] - والذى جسّد إلى حد كبير فكر هذه الصحوة - تسلم ريادة هذه الصحوة تيار الجامعة الإسلامية ، الذى تبلور - شعبيا - عبر العالم الإسلامى - حول جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] ، والذى كان الإمام محمد عبده المهندس الأول لمشروعه الفكرى النهضوى . . والذى حملته إلى العالم الإسلامى - على امتداد أربعين عاما - مجلة [ المنار ] التى رأس تحريرها الإمام محمد رشيد رضا [١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م] . . ثم أسلم أمانة هذه الصحوة إلى الحركات والتنظيمات الإسلامية الحديثة - سواء منها تنظيمات الصفوة أو التنظيمات الجماهيرية ، تلك التى نشأت عقب عموم بلوى الاستعمار الغربى للعالم الإسلامى - إبان الحرب

الاستعمارية العالمية الأولى [١٣٣٢ - ١٣٣٦ هـ ١٩١٤ - ١٩١٨ م]  
- وبعد إسقاط الخلافة الإسلامية [١٣٤٢ هـ ١٩٢٤ م] ..

ولأن هذه الصحوة كانت تواجه جناحي المآزق الحضارى :  
التخلف الموروث .. والزحف الاستعماري الغربي .. ولأنها قد  
سعت إلى الإحياء والتجديد الدينى ، لبثورة معالم المشروع  
النهضوى العصرى ، فى مواجهة الجمود والتقليد اللذين أوجدا  
«الفراغ الفكرى» فى بلادنا ، وهو «الفراغ» الذى سعى الاستعمار  
الغربى إلى ملئه بنموذج الحضارى الوضعى العلمانى ، فلقد كان  
تركيز هذه الصحوة على تجديد دين الإسلام لتتجدد به - وليس  
بالنموذج الغربى - دنيا المسلمين ..

وهذه الحقيقة هى التى جعلت رفاعة الطهطاوى يدعو إلى إحياء  
الشريعة الإسلامية بالاجتهاد الجديد ، وإلى تقنين فقه معاملاتها ،  
ليحكم - بدلا من القانون الوضعى الفرنسى - حركة الاجتماع  
والاقتصاد والسياسة فى بلادنا «لأن بحر هذه الشريعة الغراء ، على  
تفرع مشاريعه ، لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا  
أحصاها وأحياها بالسقى والرى ، ولم تخرج الأحكام السياسية عن  
المذاهب الشرعية ، لأنها الأصل ، وجميع مذاهب السياسات عنها  
بمنزلة الفرع .. ولأن تحسين التواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا  
قرره الشارع .. فمتبغى تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع ، لا  
بطرق العقول المجردة .. أما المعاملات الفقهية ، فإنها لو انتظمت ،  
وجرى عليها العمل ، لما أخلت بالحقوق ، بتوفيقها على الوقت  
والحالة .. وكُتِبَ الفقه الإسلامية لا تخلو من تنظيم الوسائل  
النافعة من المنافع العمومية ..»

ولقد انطلق الأفغانى من ذات الموقف - إسلامية الصحوة - فرفض أن يبدأ صحوتنا من حيث انتهى المشروع الغربى العلمانى ، قائلا : «إنه لا مُلجئ للمشرقى فى بدايته أن يقف موقف الغربى فى نهايته . . فالتمدن الغربى هو فى الحقيقة تمدن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى . . والإسلام هو السبب المفرد لسعادة الإنسان . . ومن طلب إصلاح الأمة بوسيلة سوى هذه ، فقد ركب بها شططا ، ولا يزيدها إلا نحسا ، ولا يكسبها إلا تعسا . . »

وعلى هذا الدرب - فى إسلامية الصحوة - سار الإمام محمد عبده ، قال «إن الإسلام دين وشرع . . وهو لم يَدْعُ ما لقيصر لقيصر ، وإنما كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ما له ، ويأخذ على يديه فى عمله . . فهو كمال للشخص ، وألفة فى البيت ، ونظام للملك ، امتازت به الأم التى دخلت فيه عن سواها من لم يدخل فيه . . فهو المدرسة الأولى التى يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية . . ومن طلب إصلاح الأمة من غير طريق الدين فقد بذر بذرا غير صالح للتربة التى أودعه فيها . . فسبيل الدين ، لمريد الإصلاح فى المسلمين ، سبيل لا مندوحة عنها . . »

ولم تقف هذه الصحوة عند حدود «الفكر» و «الدعوة» . . وإنما سلكت سبيل «التنظيم» ، لإبلاغ الرسالة ، واستمرارية الدعوة . . فعرفت مسيرتها تنظيمات : «الحزب الوطنى الحر» و «جمعية العروة الوثقى» و «جمعية أم القرى» - فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر - كما عرفت «الحزب الوطنى» ، الذى قاده مصطفى كامل باشا (١٢٩١ - ١٣٢٦ هـ ١٨٧٤ - ١٩٠٨ م) فى العقد الأول من



القرن العشرين - وهو الحزب الذى جمع - فى دوائر الانتماء - بين «الوطنية» وبين «الجامعة الإسلامية» . «فالدين والوطنية توءمان متلازمان ، وإن الرجل الذى يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حبا صادقا ، ويفديه بروحه وما تملك يده . . وإن فى الإسلام كافة المواد الحيوية لأرقى مدنية يشتهيها بنو الإنسان ، فهو الدين الذى يؤهل أهله وذويه إلى أسعد حالات الحياة وأتم نعيمها . .»

وليس صحيحا ما يظنه البعض من أن الصحوة الإسلامية قد تمثلت فقط فى الحركات والتنظيمات الإسلامية فأوسع وأعرض فصائل الصحوة الإسلامية هو التيار الشعبى ، المستمسك بالهوية الإسلامية . . وفى مقدمة مؤسسات الصحوة الإسلامية الأزهر الشريف ، الذى ظل يرعى علوم الشريعة والعربية ويحرس الوجدان الإسلامى للأمة عبر تاريخها الطويل . . كما أن هناك ميادين الإبداع فى الفكر الإسلامى ، والتى شهدت مواكب الأعلام والعلماء والمفكرين ، الذين دافعوا عن إسلامية الصحوة ومشروع النهضة والمدنية ، فى مختلف ميادين الإبداع الفكرى . . وإذا كان الطهطاوى قد تمنى إحياء الشريعة الإسلامية وتقنين فقه معاملاتها ، فلقد سعى على هذا الطريق العديد من أعلام الفقه والقانون . . وكان الدكتور عبد الرزاق السنهورى باشا ( ١٣١٣ - ١٣٩١هـ ١٨٩٥ - ١٩٧١م ) واحدا منهم ، جعل هذه المهمة مشروع حياته - تأليفا وتطبيقا - «فالإسلام - عنده - دين ودولة . . ملئك إلى جانب العقيدة ، وقانون إلى جانب الشعائر . . وهو دين ومدنية . . والمدنية الإسلامية أساسها الشريعة الإسلامية ، وهى



أكثر تهديدا من المدنية الأوروبية . . والشريعة الإسلامية هي النور الذي نستطيع أن نضيء به جوانب الثقافة العالمية في القانون . . ودول الشرق لا يمكن أن تجتمع على شيء واحد غير الإسلام . . فالإسلام بالشرق ، والشرق بالإسلام . .

وإذا كانت العقود الأخيرة قد شهدت تعاظم الصحوات الدينية ، في مختلف الديانات ، بعد أن فشلت مشاريع النهوض والتحديث اللادينية ، فإن تعاظم الصحوة الإسلامية يستند إلى خصيصة إسلامية ، ينفرد بها الإسلام عن غيره من الديانات ، هي منهاجه الشامل ، الذي يجعله بديلا حضاريا ، وليس مجرد عقائد وعبادات . .

هكذا ارتبطت الصحوة الإسلامية بحلم الأمة في النهوض ، والانعقاد من أسر التخلف الموروث ، ومن الهيمنة الاستعمارية والحضارية الغربية ، منذ فجر هذه الصحوة وحتى الآن<sup>(١)</sup> .

#### (١) مراجع :

- ١ - الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي [دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة] - طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م .
- ٢ - الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني [دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة] - طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م . وبيروت سنة ١٩٧٩ م .
- ٣ - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده [دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة] - طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣ م .
- ٤ - الصحوة الإسلامية والتحدى الحضاري [للدكتور . محمد عمارة] - طبعة القاهرة سنة ١٩٩٨ م .
- ٥ - أهل الإسلام هو الحل<sup>(٢)</sup> [للدكتور . محمد عمارة] - طبعة القاهرة سنة ١٩٩٨ م .

## الحزب الوطني الحد

لعله أول تجمع يحمل اسم «الحزب» في تاريخ الشرق الحديث .  
أقامه جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م]  
في سنوات إقامته بمصر في سبعينيات القرن التاسع عشر [١٨٧١ -  
١٨٧٩ م] وضم قيادات الدعوة الإصلاحية التي تكونت من  
حوله ، وخاصة تلاميذه الذين كان يعدهم للعمل السياسي -  
مقاومة النفوذ الأجنبي الزاحف على بلاد الإسلام .. والتصدى  
للاستبداد الداخلي .. والمظالم الاجتماعية .. والجمود الفكري -

وكان الحزب تجمع صفوة وقيادات .. بل لقد نجح الأفغاني في  
استمالة الأمير توفيق - ولي العهد يومئذ - إلى مبادئ الحزب ،  
على أمل أن يلتزم بمنهاجه الفكري عندما يخلف أباه الخديو  
إسماعيل [١٢٤٥ - ١٣١٢ هـ ١٨٣٠ - ١٨٩٥ م] .

وإبان الصراع حول عزل الخديوي إسماعيل ، كانت المرة الأولى  
التي أعلن فيها عن وجود هذا الحزب .. وكما يقول الإمام محمد  
عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] فإن الحزب ، بزعامة  
الأفغاني ، سعى إلى عزل إسماعيل ، وإلى أن يخلفه توفيق  
[١٢٦٨ - ١٣٠٩ هـ ١٨٥٢ - ١٨٩٢] .. الذي سرعان ما تنكر  
لمبادئ الحزب .. وخضع لنفوذ الأجانب ، حتى نفى زعيمه -

الأفغانى - من مصر فى أغسطس سنة ١٨٧٩م ! .. وعزل عددا من قياداته عن مواقع التأثير على الجماهير ! ..

ومن المفارقات - بل المتناقضات - أن مصر شهدت - بعد وفاة الأفغانى ومحمد عبده - قيام حزب يحمل نفس الاسم - [الحزب الوطنى الحر] - فى سبتمبر سنة ١٩٠٧م . . لكنه كان مؤلفا من عملاء الاستعمار الإنجليزى ، المبشرين بمنافع الاحتلال وأفضاله على مصر ، والداعين إلى «استيعاب الحضارة الأوروبية» . . وكان من قادته محمد وحيد الأيوبى - وهو زعيمه - ومجموعة المثقفين المؤرنة الذين مثلوا الأركان الثقافية والإعلامية لسلطات الاحتلال الإنجليزى فى مصر - يعقوب صروف . . وشاهين مكاربوس . . وفارس نمر . . الخ . .

وكان قيام هذا الحزب ردا استعماريا على قيام [الحزب الوطنى] الذى تزعمه مصطفى كامل (١٢٩١ - ١٣٢٦ هـ ١٨٧٤ - ١٩٠٨م) والذى تألف فى نفس العام - سنة ١٩٠٧م - . . لكن حزب مصطفى كامل عاش - كتنظيم وطنى - وكصيغة فكرية جمعت بين الانتماء الوطنى والجامعة الإسلامية . . حتى لقد تفرعت عن هذه الصيغة الفكرية كثير من حركات ودعوات وأحزاب التغيير فى تاريخ مصر الحديث . . بينما اختفى حزب الأيوبى ومكاربوس وصروف !<sup>(١)</sup> .

(١) مراجع :

إجمال الدين الأفغانى : بوقظ الشرق وفيلسوف الإسلام [للدكتور محمد عمارة . طبعة دار الشروق سنة ١٩٨٨م :

[موسوعة السياسة] طبعة بيروت سنة ١٩٨١م .



## العروة الوثقى



اسم الجمعية سياسية سرية . . وعنوان للمجلة العلنية التي كانت لسان حال هذه الجمعية السرية .

أما الجمعية فهي التي أنشأها جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] وناب عنه فى رئاستها الشيخ محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] فى ثمانينيات القرن التاسع عشر ، وبالأذات عقب احتلال مصر سنة ١٨٨٢ م . . وكانت تنظيم صفوة ونخبة ، يضم ساسة وقادة وعلماء . . ومقصده الأول مقاومة الزحف الاستعمارى على بلاد الشرق ، وخاصة الاستعمار الإنجليزى ، أما نطاق التنظيم فكان العالم الإسلامى ، وخاصة مصر وشبه القارة الهندية .

ولقد بقى من أوراق هذا التنظيم - غير أعداد المجلة التى نطقت باسمه - «لائحة» تنظيم «عقوده» - أى خلاياه - وهى تعكس خبرة فى التنظيم الحزبى لم تكن الأحزاب الأوربية قد بلغت فى ذلك التاريخ ، وأغلب الظن أن محمد عبده - وهو واضعها - والأفغانى - وهو عقل التنظيم المدبر - قد استفادا من تراث الحركات السرية فى تاريخ الحضارة الإسلامية . . كما بقيت من أوراق التنظيم مراسلات بعثها محمد عبده إلى بعض عقود

الجمعية ، عكست خبرات في فن الدعوة والعمل السري تستلقت الانتباه .

أما المجلة - التي حملت ذات الاسم - [العروة الوثقى] - فلقد أصدرها الأفغاني - كمدير للسياسة- ومحمد عبده - كمحرر أول - من غرفة فوق سطح أحد المنازل ٤٦ شارع «مارتل» بباريس . . وصدر منها ثمانية عشر عددا - أولها بتاريخ الخميس ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١ هـ ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ م وآخرها بتاريخ الخميس ٢٦ ذى الحجة سنة ١٣٠١ هـ ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤ م . . وكانت المجلة ترسل سرا إلى قرائها في بلاد العالم الإسلامي الخاضعة للاحتلال . . فلما ضيقت سلطات الاحتلال عليها سبل الوصول - وفرضت الحكومة الإنجليزية بالهند - مثلاً - على من تضبط عنده [العروة الوثقى] غرامة مائة جنيه مع الحبس سنتين ! - اضطرت المجلة إلى التوقف عن الصدور . .

ولقد عبرت أعداد العروة الوثقى عن منهاج الجمعية في التجديد الديني والإصطلاح الاجتماعي ، ومثلت مقاومة هذا التيار للزحف الاستعماري على بلاد الإسلام . . كما عكست مقالاتها خبرة متميزة بواقع السياسة الدولية يومئذ وتياراتها وتناقضاتها وصراعاتها ، مع لمحات عن كيفية استفادة المسلمين من هذه التناقضات . .

وكانت مقالات العروة - حتى بعد توقفها - واحدة من أدبيات

الدعوة الإصلاحية الإسلامية ، ظلت لعقود كثيرة ينسخها الساسة والدعاة والعلماء ويتتلمذون على أفكارها .

ومقالات أعداد العروة مطبوعة في [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] أما لاثحتها ومراسلات محمد عبده مع أعضائها فهي في [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده]<sup>(١)</sup> ..



---

(١) مراجع :

[الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] دراسة وتحقيق : د . محمد حمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٨١ م .

[الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة دار الشروق سنة ١٩٩٣ م .

هي جمعية سرية ، أنشأها عبد الرحمن الكواكبي [ ١٢٧٠ - ١٣٢٠ هـ ١٨٥٤ - ١٩٠٢ ] ودعا إلى مؤتمر سرى حضره - فى مكة - أم القرى - مندوبون مثلوا أغلب شعوب الأمة الإسلامية . . سماه «مؤتمر النهضة الإسلامية» - ولقد عرف الناس بأمر هذه الجمعية عند نشر الكواكبي مذكرات وحوارات هذا المؤتمر - بعد تطويرها - فى كتابه [ أم القرى ] . .

وكان انعقاد هذا المؤتمر فى شهر ذى القعدة - فى موسم حج سنة ١٣١٦ هـ - مارس - أبريل سنة ١٨٩٩ م - وفى المدة من ١٥ حتى ٢٩ ذى القعدة عقد المؤتمر اثنى عشر اجتماعا ، بحثوا فيها أسباب «الفتور» فى الأمة الإسلامية ، وسبل النهوض بها . . ولقد اتخذ المؤتمر أسماء مستعارة - فى مداولاتهم - بدلا من أسمائهم الحقيقية . . وهى السيد الفراتى ، والفاضل الشامى ، والبلخى القدسى ، والكامل الإسكندرى ، والعلامة المصرى ، والحديث اليمنى ، والحافظ البصرى ، والعالم النجدى ، والمحقق المدنى ، والأستاذ المكى ، والحكيم التونسى ، والمرشد الفاسى ، والسعيد الانكليزى ، والمولى الرومى ، والرياضى الكردى ، والمجتهد التبريزى ، والعارف التاتارى ، والخطيب القازانى ، والمدقق التركى ، والفقير الأفغانى ، والصاحب الهندى ، والشيخ السندى ، والإمام الصينى . .



- بل واتخذوا «شفرة - رقمية» لهذه الألقاب . . .
- ولقد وصلت مداولات المؤتمر إلى عشرة نتائج . . هي :
- ١ - المسلمون في حالة فتور مستحكم عام .
  - ٢ - يجب تدارك هذا الفتور سريعا ، وإلا فتنحل عصبيتهم كليا .
  - ٣ - سبب الفتور : تهاون الحكام ، ثم العلماء ، ثم الأمراء .
  - ٤ - جرثومة الداء : الجهل المطلق .
  - ٥ - أضر فروع الجهل : الجهل في الدين .
  - ٦ - الدواء هو : أولا : تنوير الأفكار بالتعليم . ثانيا : إيجاد شوق للترقى في رؤوس الناشئة .
  - ٧ - وسيلة المداواة : عقد الجمعيات التعليمية والقانونية .
  - ٨ - المكلفون بالتدبير هم : حكماء ونجباء الأمة من السراة والعلماء .
  - ٩ - الكفاءة لإزالة الفتور بالتدريج موجودة في العرب خاصة .
  - ١٠ - يلزم تشكيل جمعية ذات مكانة ونفوذ في دائرة القانون -  
الآتى البيان - باسم : [جمعية تعليم الموحدين] .
- وهكذا انتهى المؤتمر السرى لجمعية أم القرى - بعد تشخيص  
الداء . . والإشارة إلى الدواء - بتكوين جمعية قانونية - اتخذوا  
من مصر مقرا لها . . لكن صفحتها قد طويت بموت الكواكبي سنة  
١٩٠٢ م .

وعلى حين يرى البعض أن هذه الجمعية هي من «خيال» الكواكبي، تصورها ليسوق على ألسنة أعضائها الحوار حول مشكلات الأمة... فإن الشيخ رشيد رضا [١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ - ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م] يقول - نقلاً عن الكواكبي - : «إن لهذه الجمعية أصلاً»<sup>(١)</sup>.




---

١١ مراجع:

- الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي: دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م.
- عبد الرحمن الكواكبي: شهيد الحرية ومحدد الإسلام، للدكتور محمد عمارة - طبعة سنة ١٩٨٨ م.



فى الوقت الذى كانت تتفتح فيه وتنضج «المشاعر الإسلامية» لدى الشيخ حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م] - مؤسس ومرشد وقائد كبرى الجماعات الإسلامية فى عصرنا الحديث - كانت ساحة العالم الإسلامى تشهد تحولات وأحداثا بلغت مبلغ الزلازل والكوارث والنذر التى زلزلت ضمير الأمة من الأعماق ، واستنفرت واستنفرت عوامل المقاومة لخطر الهيمنة الغربية الزاحفة ، ولاحتواء عالم الإسلام من قبل الغزوة الاستعمارية الحديثة .. حفاظا على الذات الحضارية الإسلامية المهددة بالافتتاع ! ..

● ففى [ ٢٢ رجب ١٣٤٢ هـ ٣ مارس ١٩٢٤ م ] ألغيت الخلافة العثمانية .. فزال «الرمز» الذى حافظ - ولو من حيث الشكل - على وحدة الأمة ، والذى أبقت عليه الأمة منذ ظهور الإسلام ..

● وفى [رمضان ١٣٤٣ هـ أبريل ١٩٢٥ م] نشر الشيخ على عبد الرازق [١٣٠٥ - ١٣٨٦ هـ ١٨٨٧ - ١٩٦٦ م] كتابه [الإسلام وأصول الحكم] .. فكان أول كتاب يكتبه مسلم ، بل وشيخ أزهري ، يتولى منصب القضاء الشرعى .. يزعم أن الإسلام «دين» لا «دولة» .. و «وينظر» - من ثم - لإلغاء الخلافة الإسلامية ، عندما ينقضى عن نظامها أى علاقة بالإسلام ..

● وفى [ذى القعدة ١٣٤٣ هـ يونية ١٩٢٥م] عزل الإنجليز الشريف حسين بن على [١٢٧٢ - ١٣٥٠ هـ ١٩٥٦ - ١٩٣١م] ونفوه إلى جزيرة قبرص . . فجسدوا بهذا القرار غدرهم بالحركة العربية والفكرة القومية العربية ، التى استعانوا بها واستخدموها خلال الحرب العالمية الأولى ضد الفكرة الإسلامية والخلافة الإسلامية والعثمانية . . فبلغ الاستعمار ما أراد ، وضاع من يد المسلمين - إسلاميين كانوا أو قوميين - كل شئ ! . .

● وفى [سنة ١٣٤٤ هـ سنة ١٩٢٦م] نشر الدكتور طه حسين [١٣٠٦ - ١٣٩٣ هـ ١٨٨٩ - ١٩٧٣] كتابه [فى الشعر الجاهلى] . . الذى استخدم فيها «الشك الديكارتى» للتشكيك فى «الشعر الجاهلى» . . ثم تجاوز نطاق «الشعر» فشكك فى بعض قصص القرآن الكريم ، من أمثال قصص الحنفاء . . وإبراهيم وإسماعيل ، عليهما السلام ! . .

فكان هذا الكتاب - بعد كتاب [الإسلام وأصول الحكم] - ثانى عمل فكرى - يكتبه شيخ أزهرى - يمثل اقتحام «التغريب» لمقدسات المسلمين ، واستفزاز «النزعة المادية» الغربية لمشاعر المسلمين ! . .

حدثت هذه الأحداث - وأمثالها - التى هزت كيان الإسلاميين ، فاستنفرتهم للمقاومة ، على حين كانت «المشاعر الإسلامية» للشيخ حسن البنا تتبلور ويكتمل نضجها ، فكانت العامل الحاسم الذى دفعه إلى تكوين «جماعة الإخوان المسلمين» - بمدينة الإسماعيلية أولاً - حيث كان يدرس اللغة العربية بإحدى

مدارسها الابتدائية - في سنة ١٣٤٧ هـ سنة ١٩٢٨ م - . . والتي  
نمت فغدت كبرى الحركات الإسلامية في عصرنا الحديث . .

وإذا شئنا كلمات للرجل تشير إلى علاقة هذه الأحداث التي  
زلزلت كيان الأمة بتأسيس هذه الجماعة ، فإن في كلمات المرشد  
الدليل . . يقول : « . . وليس يعلم أحد إلا الله كم من الليالي كنا  
نقضيها - [هو وثلاثة رفاق جالت في أذهانهم الفكرة] - نستعرض  
حال الأمة ، وما وصلت إليه في مختلف مظاهر حياتها ، ونحلل  
العلل والأدواء ، ونفكر في العلاج وحسم الداء ، ويفيض بنا التأثير  
لما وصلنا إليه إلى حد البكاء ؟ ! . . وكم كنا نعجب إذ نرى أنفسنا  
في مثل هذه المشغلة النفسانية العنيفة ، والخليون يتسكعون بين  
المقاهي ويترددون على أندية الفساد والإتلاف ؟ ! . . لقد كانت ، في  
مصر وغيرها من بلدان العالم الإسلامي ، حوادث عدة ، ألهمت  
نفسى ، وأهاجت كوامن الشجن في قلبى ، ولفنت نظرى إلى  
وجوب الجهد والعمل ، وسلوك طريق التكوين بعد التنبيه ،  
والتأسيس بعد التدريس ! » . .

لقد كانت هذه الأحداث ، التي شهدتها العالم الإسلامي عقب  
الحرب العالمية الأولى ، إذانا بسيطرة الغرب على الشرق ، واقتحام  
الحضارة الغربية قدس أقداس الإسلام والمسلمين . . لقد احتلت  
الديار ، ونهبت الثروات ، ثم اقتحمت ميدان الفكر ، والفكر  
الدينى ، بل وبواسطة عدد من «الشيوخ - العلماء» . . فلم يكن  
هناك بد من تنبه المشاعر : «القومية» ، ردا على «الغزو السياسى» ،  
و «الإسلامية» ، ردا على هذا «الطغيان الفكرى والاجتماعى» . .

وبعبارة الشيخ حسن البنا : « . . إن الحضارة الغربية ، بمبادئها المادية ، قد انتصرت في هذا الصراع الاجتماعي على الحضارة الإسلامية ، بمبادئها القوية الجامعة للروح والمادة معا ، في أرض الإسلام نفسه ، وفي حرب ضروس ميدانها نفوس المسلمين وأرواحهم وعقائدهم وعقولهم ، كما انتصرت في الميدان السياسي والعسكري . . وكما كان لذلك العدوان السياسي أثره في تنبيه المشاعر القومية ، كان لهذا الطغيان الاجتماعي أثره كذلك في انتعاش الفكرة الإسلامية . . ! » . .

هكذا نشأت « جماعة الإخوان المسلمين » . . موقفاً مجاهداً ضد التحدي الغربي الحضاري ، أولاً ، باعتبار أن الانتصار الإسلامي على جبهة الصراع هذه ، هو السبيل لإنقاذ النفس المسلمة ، وتسليحها بالإسلام ، كي تستطيع تحقيق النصر على الحضارة الغربية في ميادين السياسة والعسكرية والاقتصاد - وموقفاً مجدداً ، أيضاً ، على جبهة الموروث الإسلامي ، المثقل بكثير من البدع ، وبما تجاوزته التطور من أقوال السالفين . . إذ التجديد هو السبيل لإبداع البديل الإسلامي للنموذج المادي الغربي الذي جاء به الغرب في ركاب جيوش الغزو والاستعمار . .

ولهذه الملاحظات جميعها ، قدمت « جماعة الإخوان المسلمين » رؤيتها الشاملة للإسلام . . دين ودولة . . مصحف وسيف . . قيم وسلوك . . فرد ومجتمع وأمة . . عقيدة وشرعية وحضارة . . ودعت الأمة إلى حمل هذه الرسالة ، ولم تقف بها عند حدود الصفوة والنخبة والعلماء . .

ولقد مثلت كتابات المرشد الأول للجماعة التعبير الأول عن فكرها وعن رسالتها ..

● فنقده للحضارة الغربية ولأمراضها المزمنة يبرز في حديثه عن قسمااتها التي يبرز فيها :

أ - الإلحاد والشك في الله وإنكار الروح والجزاء الآخروي والوقوف عند حدود الكون المادى المحسوس ..

ب - والإباحية والتهافت على اللذة والتفنن في الاستمتاع وإطلاق الغرائز الدنيا من عقالها ..

ج - والأثرة في الأفراد ..

د - والربا السائد في الاقتصاد والمعاملات المالية ..

هـ - والفشل في تحقيق السعادة والطمأنينة للإنسان ، على الرغم من الوفرة المادية والتقدم العلمى ، والتفوق العسكرى ..

● ونقده للتخلف الموروث من عصور تراجعنا الحضارى وجمودنا الفكرى ، نراه فى تحليله لعوامل التحلل فى كيان الدولة الإسلامية .. ومنها :

أ - الخلافات السياسية والعصبية وتنازع الرياسة وأجها ..

ب - والخلافات الدينية والمذهبية ..

ج - والانغماس فى ألوان الترف والنعيم ..

د - وانتقال السلطة والرياسة إلى غير العرب ، من الفرس تارة والديلم تارة أخرى والمماليك والأتراك وغيرهم ممن لم يتذوقوا طعم



الإسلام الصحيح ، ولم تشرق قلوبهم بأنوار القرآن لصعوبة إدراكهم لمعانيه ..

هـ - وإهمال العلوم العملية والمعارف الكونية ، وصرف الأوقات وتضييع الجهود في فلسفات نظرية عقيمة وعلوم خيالية سقيمة ..

و - وغرور الحكام بسلطانهم والانخداع بقوتهم وإهمال النظر في التطور الاجتماعي للأمم من غيرهم ، حتى سبقتهم في الاستعداد والأهبة وأخذتهم على غرة ..

ز - والانخداع بدسائس المتملقين من خصومهم ، والإعجاب بأعمالهم ومظاهر حياتهم والاندفاع في تقليدهم فيما يضر ولا ينفع ..

فالإخوان قد وقفوا من التراث موقفا نقديا .. وكذلك صنعوا في النظرة إلى التاريخ الإسلامي .. فكانوا - بعبارة الشيخ البنا - : «دعوة من الدعوات التجديدية لحياة الأمم والشعوب ..» ..

وهم وإن لم يبلغوا في التجديد والعقلانية مستوى مدرسة جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] والإمام محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥] إلا أنهم لم يهبطوا - في هذا الميدان - إلى مستوى الدعوة الوهابية! .. فلقد كان للعقل والعقلانية في تجديدهم مكان ملحوظ ، وإن لم يكن بارزا؟! .. ولقد قطع الأستاذ البنا باستحالة التناقض والصدام بين «النظر العقلى» و «النظر الشرعى» فى الأمور «القطعية» .. ورأى أن بعض المجالات مختص بواحد من سبل النظر دون الآخر ..

كالإلهيات ، مثلاً . . «ف ذات الله ، تبارك وتعالى ، أكبر من أن تحيط بها العقول البشرية ، أو تدركها الأفكار الإنسانية ، لأنها مهما بلغت من العلوم والإدراك محدودة القوة ، محصورة القدرة . . فالعقل البشرى قاصر عن إدراك حقائق الأشياء» فى مثل هذه الميادين . . ولذلك ، فإن «الإسلام قد أرشد العقول إلى التزام حدها ، وعرفها قلة علمها ، وندبها إلى الاستزادة من معارفها ، فقال تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٨٥) [الإسراء : ٨٥] وقال تعالى : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ (١١٤) [طه : ١١٤] .

وإذا كانت «طبيعة المبحث» هى التى تحدد «أداة النظر» فيه ، وهل الأولى أن تكون «العقل» أو «الشرع» ، فإن خلاfehهما إنما يكون فى «الظاهر» ، وفيما هو «ظنى» ، لم يبلغ فيه أحدهما مرتبة «اليقين» . . «فقد يتناول كل من النظر الشرعى والنظر العقلى مالا يدخل فى دائرة الآخر ، ولكنهما لن يختلفا فى القطعى ، فلن تصطدم حقيقة علمية بقاعدة شرعية ثابتة ، ويؤول الظنى منها ليتفق مع القطعى ، فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعى أولى بالاتباع حتى يثبت العقلى أو ينهار» . .

وإذا كان الإسلام قد رفض «غرور العقل» و «انقراذه بالنظر» فى كل الميادين ، ودعا إلى التوازن بين نظره وبين النظر الشرعى . . فإنه «لم يحجر على الأفكار ولم يحبس العقول . . بل جاء يحزر

العقل ، ويبحث على النظر في الكون ، ويرفع قدر العلم والعلماء ،  
ويرحب بالصالح النافع من كل شيء ..  
كما قال الشيخ حسن البنا ..

● والجهد لتحقيق الاستقلال السياسي لكل أوطان الأمة  
الإسلامية واحد من أبرز أهداف جماعة الإخوان المسلمين .. بل  
إنه حجر الزاوية ، الذي ستترب عليه إمكانات تحقيقهم لكثير من  
الأهداف التي يقف دونها وتمنع من تحقيقها الاستعمار .. والوطن  
الذي يجاهد الإخوان لتحريره يشمل «القطر الخاص أولا ، ثم يمتد  
إلى الأقطار الإسلامية ، ثم يرقى إلى الإمبراطورية الإسلامية  
الأولى» .. - فهم لا ينسون الأجزاء السلبية والفرايس المفقودة من  
هذه الإمبراطورية الإسلامية .. بل إنهم يدعون إلى تحرير سائر  
«الشعوب الشرقية» من الاستعمار الغربي .. ويؤكدون على أن  
«كل دولة اعتدت وتعتدي على أوطان الإسلام هي دولة ظالمة ،  
لا بد أن تكف عدوانها . ولا بد من أن يعد المسلمون أنفسهم  
ويعملوا متساندين على التخلص من نيرها .. لأن الإسلام  
لا يرضى من أبنائه بأقل من الحرية والاستقلال ، فضلا عن السيادة  
وأعلان الجهاد ، ولو كلفهم ذلك الدم والمال ..» ..

● والاستقلال والتحرر لا يقفان ، في الفكر السياسي للإخوان ،  
عند حدود الاستقلال السياسي .. وإنما هم يؤكدون على أهمية  
وضرورة الاستقلال الاقتصادي للبلاد الإسلامية ، لما له من  
الأهمية الكبرى في جعل الاستقلال السياسي حقيقة لا مجرد  
شكل يقف عند «العلم» و «النشيد» ! ..

وفى كتابات الشيخ حسن البنا تتناثر الأفكار الداعية إلى رفض سيطرة الشركات الأجنبية على اقتصاديات مصر . . الأمر الذى جعل الأجانب المحتلين أحسن حالا من بنيتها . . وضرورة تحقيق «نظام اقتصادى استقلالى للثروة والمال» ، نحقق فيه «استقلال نقدنا» عن فلك الاستعمار ، «وتصير الشركات ، وإحلال رؤس الأحوال الوطنية محل رؤس الأموال الأجنبية كلما أمكن ذلك ، وتخليص المرافق العامة - وهى أهم شىء للأمة - من يد غير أبنائها ، فلا يصح بحال أن تكون هذه المرافق بيد شركات أجنبية ، تبلغ رؤس أموالها وأرباحها الملايين من الجنيهات ، ولا يصيب الجمهور الوطنى ولا العامل الوطنى منه إلا البؤس والشقاء والحرمان» . . كذلك «تجب العناية بالمشروعات الوطنية الكبرى ، المهمة ، التى طال عليها الأمد . . ويجب التحول إلى الصناعة فورا . . فهذا التحول هو روح الإسلام! . . مع تشجيع الصناعات اليدوية المنزلية . . وإرشاد الشعب إلى التقليل من الكماليات ، والاكتفاء بالضروريات ، وأن يكون الكبار فى ذلك قدوة للصغار . .» وهو يدعو إلى أن تتم هذه التنمية الاقتصادية المستقلة فى تعاون وتكامل بين العرب والمسلمين ، ذلك «أن الرابطة بيننا وبين أمم العروبة والإسلام . . تمهد لنا سبيل الاكتفاء الذاتى والاستقلال الاقتصادى ، وتنقذنا من التحكم الغربى فى التصدير والاستيراد وما إليهما! . .»

لقد كانت دعوتهم إلى استقلال اقتصادى للأمة الإسلامية ، يخلق منها كتلة اقتصادية متكاملة . . ومن هنا كانت دعوة الشيخ حسن البنا

الموجهة إلى كل مسلم وكل مواطن : «يجب أن نخدم الشريعة الإسلامية ، بتشجيع المصنوعات والمنشآت الاقتصادية الإسلامية ، وأن نحصر على القرش ، فلا يقع في يد غير إسلامية مهما كانت الأحوال ، ولا تلبس ولا تأكل إلا من صنع وطنك الإسلامى ! . .»

● وهذا الاستقلال الاقتصادى ، الذى دعا إليه الإخوان . . قد نبهوا على أهمية التزام نظامه الاجتماعى بضوابط العدل الإسلامى فى الفكر الاجتماعى . . لقد دعوا إلى «محاربة الربا . . وجمع الزكاة . . وفرض ضرائب اجتماعية على النظام التصاعدى - بحسب المال لا بحسب الربح - يعفى منها الفقراء طبعاً ، وتجبى من الأغنياء الموسرين ، وتنفق فى رفع مستوى المعيشة بكل الوسائل المستطاعة . .»

كذلك دعوا إلى إصلاح الخلل المتمثل فى التفاوت الفاحش بين الملكيات الزراعية فى الريف ، ذلك أن «روح الإسلام الحنيف وقواعده الأساسية فى الاقتصاد القومى توجب علينا أن نعيد النظر فى نظام الملكيات فى مصر ، فنختصر الملكيات الكبيرة ، ونعوض أصحابها عن حقهم بما هو أجدى عليهم وعلى المجتمع ، ونشجع الملكيات الصغيرة ، حتى يشعر الفقراء المعدمون بأنه قد أصبح لهم فى هذا الوطن ما يعينهم أمره ، ويهمهم شأنه . . وأن نوزع أملاك الحكومة على هؤلاء الصغار» . . لقد دعوا إلى ذلك ، بلسان مرشدهم ، وذلك حتى يزول الواقع الاجتماعى المتمثل فى «ثراء فاحش ، وفقير مدقع ، والطبقة المتوسطة تكاد تكون معدومة! . .»

● بل لقد أدرك الإخوان أن الاستقلال السياسى . . والاستقلال

الاقتصادى ، لن يكون لهما وجود حقيقى إلا إذا كانا قسمتين فى حضارة إسلامية مستقلة . . فكانت دعوتهم إلى الاستقلال الحضارى الذى يبرز هوية الأمة ويحميها من التبعية للآخرين . .

فهم ينتقدون الحكام «الذين تربوا فى أحضان الأجانب ، ودانوا بفكرتهم . . حتى أن الفكرة الاستقلالية فى تصريف الشؤون والأعمال لا تخطر ببالهم ، فضلا عن أن تكون منهاج عملهم! . . وينتقدون «تقليد الغرب ، الذى يسرى فى مناحى حياة الأمة سريان لعاب الأفاعى ، فيسمم دماءها ، ويعكر صفو هوائها . . وأكبر ما يخشاه الإخوان المسلمون أن تندفع الشعوب الشرقية الإسلامية فى تيار التقليد فترقع نهضاتها بتلك النظم البالية التى انتقضت على نفسها ، وأثبتت التجربة فسادها وعدم صلاحيتها! . .»

لقد تحدث الشيخ البنا عن خطر التبعية الحضارية للغرب . . «فمدنية الغرب تفلس الآن وتنتحر . . ولذلك ، فإننا نريد أن نفكر تفكيراً استقلالياً ، يعتمد على أساس الإسلام الخفيف ، لا على أساس الفكرة التقليدية التى جعلتنا نتقيسد بنظريات الغرب واتجاهاته فى كل شئ . . نريد أن نتميز بمقوماتنا ومشخصات حياتنا كأمة عظيمة مجيدة ، تجر وراءها أقدم وأفضل ما عرف التاريخ من دلائل ومظاهر الفخار والمجد . . لقد كانت قيادة الدنيا ، فى وقت ما شرقية بحتة ، ثم صارت بعد ظهور اليونان والرومان غربية ، ثم نقلتها النبوات إلى الشرق مرة ثانية ، ثم غفا الشرق غفوته الكبرى ، ونهض الغرب نهضته الحديثة . . فورث الغرب القيادة



العالمية . وها هو ذا الغرب يظلم ويجور ويطغى ويحار ويتخبط ، فلم  
تبق إلا أن تمتد يد «شرقية» قوية ، يظللها لواء الله ، وتحقق على  
رأسها رؤية القرآن ، ويمدها جند الإيمان القوى المتين ، فإذا الدنيا  
مسلمة هائلة ، وإذا بالعوالم كلها هاتفة [الحمد لله الذى هدانا لهذا  
وما كنا نهتدى لولا أن هدانا الله] . . . ؟ . . .

● وهذا الاستقلال الحضارى ، الذى دعا إليه الإخوان ، إذا كان  
يرفض التقليد والمحاكاة والتبعية ، فهو يرفض كذلك الانغلاق  
والعزلة بالنسبة للحضارات الأخرى . . «الإسلام - كما يقول  
الشيخ حسن البنا - لا يأبى أن نفتيس النافع ، وأن نأخذ الحكمة  
أنى وجدناها . ولكنه يأبى كل الإباء أن نتشبه ، فى كل شىء ، بمن  
ليسوا من دين الله على شىء ، وأن نطرح عقائده وفرائضه وحدوده  
وأحكامه ، لنجرى وراء قوم فتنتهم الدنيا واستهوتهم الشياطين! . .  
وتجربة المسلمين الأوائل شاهد على أن التفاعل الحضارى مختلف عن  
التبعية الحضارية ومختلف عن العزلة والانغلاق» فلقد اتصلت هذه  
الأم الإسلامية بغيرها من الأمم ، ونقلت كثيراً من الحضارات ، ولكنها  
تغلبت بقوة إيمانها ومثانة نظامها عليها جميعاً ، فعربتها أو كادت ،  
واستطاعت أن تصبغها وأن تحملها على لغتها ودينها بما فيهما من روعة  
وحيوية وجمال ، ولم يمنعها أن تأخذ النافع من هذه الحضارات جميعاً ،  
من غير أن يؤثر ذلك فى وحدتها الاجتماعية أو السياسية .

\*\*\*

وإذا كانت جماعة الإخوان قد نشأت فى مصر . . فإنها قد



نظرت إلى كل أوطان المسلمين باعتبارها دار الإسلام والوطن الواحد للأمة الإسلامية الواحدة . . لكنها قد رتبت ، بالنسبة للمسلم ، سلما للأولويات . . فالوطن الأخص أولا . . ثم الدائرة القومية - العربية مثلا بالنسبة للعرب - ثانيا - والدائرة الإسلامية ثالثا . . ثم الدائرة الإنسانية التي تشمل جميع الناس . . ويعبارات الشيخ حسن البنا : « فإن الإخوان المسلمين يحبون وطنهم ، ويحرصون على وحدته القومية . . والعرب هم عصبه الإسلام وحراسه . . ومن هنا كانت وحدة العرب أمرا لا بد منه لإعادة مجد الإسلام وإقامة دولته وإعزاز سلطانه ، ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها . . فهم لا يرون بأسا في أن يعمل كل إنسان لوطنه ، وأن يقدمه في العمل على سواه . . ثم هم بعد ذلك يؤيدون الوحدة العربية ، باعتبارها الحلقة الثانية في النهوض ، ثم هم يعملون للجامعة الإسلامية ، باعتبارها السياج الكامل للوطن الإسلامي العام . . ثم هم يرون الخير للعالم كله . . ولا تعارض بين هذه الوحدات ، بهذا الاعتبار ، فكل منها يشد أزر الأخرى ويحقق الغاية منها . . »



وإذا كانت تلك هي معالم الإحياء الإسلامي ، كما حددتها أدبيات الإخوان المسلمين . . وتلك هي آفاق دعوتهم وحركتهم . . فإنهم قد دعوا إلى سلوك طريق التربية . . للفرد . . فالأسرة . . فالأمة ، سبيلا إلى الدولة والسلطة . . كما دعوا إلى طريق القوة . . وقال مرشدهم : « إن الإخوان سيستخدمون القوة العملية حيث

لايجدى غيرها ، وحيث يشقون أنهم قد استكملوا عدة الإيمان  
والوحدة . . « أما طريق الثورة فلقد قالوا إنهم لايفكرون فيه! . . وإن  
كانوا قد حذروا من بقاء الوضع المتردى فى مختلف ميادين الحياة ،  
لأن ذلك «سيؤدى حتما إلى ثورة<sup>(١)</sup>! . . » . .



---

(١) مراجع :

[مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا] طبعة دار الشهاب - القاهرة  
[الصحوة الإسلامية والتحدى الحضارى] للدكتور محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٨٥ م .



فى سنة ١٨٣٠ بدأ الاستعمار الفرنسى احتلاله للجزائر ، واستمرت المقاومة الجزائرية لجيش الاحتلال ، بقيادة الأمير عبد القادر الجزائرى [ ١٢٢٢ - ١٣٠٠ هـ - ١٨٠٧ - ١٨٨٣ م ] حتى سنة ١٨٤٨ م . . وبعدها بسط الفرنسيون سلطانهم على القطر الجزائرى .

ولم يكن استعمار فرنسا للجزائر كاستعمارها لغيرها من البلاد ، وإنما كان استيطاناً فرنسياً ، يريد اقتلاع الشعب العربى المسلم من أرضه ، وتحويل الجزائريين إلى مندمجين فى حضارة فرنسا - « اللاتينية - النصرانية الفرنسية » - أو إفنائهم بطلى صفحة دينهم ولغتهم وحضارتهم من الوجود . . ولذلك جعلت فرنسا من الجزائر ولاية من ولاياتها ومقاطعة من مقاطعاتها ، طامحة إلى أن تكون الامتداد « اللاتينى - النصرانى » لفرنسا عبر البحر المتوسط . .

ولقد تحولت مساجد الجزائر إلى كنائس . . ومدارسها العربية الإسلامية أغلقت ، ليصبح التعليم القليل فيها فرنسياً ، يؤدى إلى سجن الجزائري المتعلم فى قفص الفرنسية وآدابها ، وعزله تماماً عن لغة دينه وقومه وحضارته! . .

وعلى امتداد قرن من بدء الاحتلال الفرنسى للجزائر ، حقق الفرنسيون كثيراً من أهدافهم المعلنة : « إن الجزائر لن تصبح حقيقة

مملكة فرنسية إلا عندما تصبح لغتنا الفرنسية هناك لغة قومية تقوم مقام اللغة العربية .. ودمج الجزائريين فينا ، وجعلهم فرنسيين ؟ !

وعندما شرع الفرنسيون في الاحتفال بمرور قرن على بدء احتلالهم للجزائر ، أراد قساوستهم تطوير مطامحهم في الجزائر ، فخطب الكاردينال « لافيغري » ، في احتفالاتهم الصاخبة ، فقال : « إن عهد الهلال في الجزائر قد غبر ، وإن عهد الصليب قد بدأ ، وإنه سيستمر إلى الأبد .. وإن علينا أن نجعل أرض الجزائر مهدا للدولة مسيحية مضاة أرجاؤها بنور مدنية منبع وحيها الإنجيل .. ؟ ! »

وكان الشيخ عبد الحميد بن باديس [ ١٣٠٧ - ١٣٥٩ هـ ١٨٨٩ - ١٩٤٠ م ] واحدا من علماء الجزائر ، الذين تتلمذوا على مدرسة الجامعة الإسلامية ، وتأثروا بالفكر الإصلاحى لجمال الدين الأفغانى [ ١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م ] والإمام محمد عبده [ ١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م ] من خلال مجلة [ المنار ] وعلاقات الأمير شكيب أرسلان [ ١٢٨٦ - ١٣٦٦ هـ ١٨٦٩ - ١٩٤٦ م ] بطلائع النهضة الجزائرية .. فاحترف - منذ سنة ١٩١٢ م - تعليم العربية ، وتفسير القرآن ، وصناعة جيل من الرجال الذين يرون في « الإسلام - والعربية » قدر الجزائر وطوق نجاتها من المصير الذى أراده لها الفرنسيون .. وعلى هذا الدرب - درب صناعة جيل من علماء « الإسلام - والعروبة » - حقق ابن باديس مكاسب وأقام ركائز ما بين سنة ١٩١٢ م وسنة ١٩٣٠ م .. فلما طور الفرنسيون من طموحاتهم ، وهم يحتفلون بمرور قرن على احتلالهم للجزائر ، قرر الجزائريون تطوير آليات مقاومتهم ، كرد فعل

على هذا الطموح الفرنسي الجديد . . فكان تكوين «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» ، التي ظهرت رسميا في ١٧ ذي الحجة سنة ١٣٤٩ هـ ٥ مايو سنة ١٩٣١ م . .

ورغم أن الوثائق الرسمية لهذه الجمعية كانت تشير إلى تخصصها في المجال الإصلاحي والتربوي والتعليمي ، مع البعد عن العمل السياسي . . إلا أن حقيقة مشروعها الإصلاحي لم تكن بعيدة عن السياسة . . صحيح أنها لم تحترف العمل السياسي اليومي ، لكنها احترفت «التأسيس» العربي الإسلامي لذلك الجيل الذي صنعتته كي يحترف هو هذا العمل السياسي بالمعنى العام والشامل للسياسة . . ولقد عبر ابن باديس عن هذه العلاقة بين الرسالة الإصلاحية للجمعية وبين «السياسة» ، في الشعارات التي رفعها : «الجزائر ليست فرنسية . . وهي لا تستطيع ذلك حتى لو أرادت» ؟! . . «لا بد لنا من الجمع بين السياسة والعلم ، ولا ينهض العلم والدين حق النهوض إلا إذا نهضت السياسة بحق» ! . .

فعلى جبهة الإصلاح بالتربية والتعليم لتعود للجزائريين هويتهم العربية الإسلامية ، حولت الجمعية كثيرا من مساجد الجزائر إلى منارات للإصلاح العربي الإسلامي ، بدءا من محور الأمية الأبجدية إلى التفقه في الدين . . إلى تصحيح الاعتقادات الدينية وفق سلفية عقلانية مستنيرة ، توسطت بين جمود التقليد وخرافات الطرق الصوفية - التي كان الفرنسيون قد نجحوا في امتطاء كثير منها ركائب لغاياتهم الاستعمارية؟ ! . .

وفي ميدان التعليم النظامي أقامت جمعية العلماء مائة وسبعين

مدرسة . . وذلك غير الكتابيب التي انتشرت في كل مكان ، على نحو متطور يقترب بها من المدارس الأولية . .

بل ولقد عازمت على «تأسيس المصانع والملاجئ والمحلات العامة»! . .

واهتمت بتعليم الفتيات اهتمامها بتعليم الفتيان . .

وإذا كان ابن باديس قد أعلن أنه لا يؤلف الكتب ، لأنه مشغول بصناعة الرجال . . فإن النهضة التي أنجزها في ميدان الصحافة قد جعلت من منهاج الجمعية الإصلاحية تيارا فكريا تصل آثاره إلى كل الجزائريين . . ولقد كانت العلاقة بين صحافة الجمعية وبين سلطات الاحتلال الفرنسي جبهة من جبهات الصراع المحتدم دائما وأبدا ، تسجله وتشهد عليه قرارات الاحتلال بإغلاق صحف الجمعية ، وقرارات الجمعية بإصدار صحف بديلة لتلك التي يغلقها الاستعمار . . فصدرت وأغلقت صحف : «الشهاب» و «السنة» و «الشرعية» و «الصراط» و «البصائر» و «المنتقد» و «الإصلاح» و «صدى الصحراء» . . وغيرها! . .

وعندما اشتعلت ثورة الجزائر في الأول من نوفمبر سنة ١٩٥٤م فإنها كانت بمثابة الثمرة لجيل التأسيس الذي تمثل في جمعية العلماء . . لقد أرادت الجمعية التأسيس العربية الإسلامية للجيل الذي يرفع السلاح في وجه فرنسا . . وكان أن تمثل ذلك في جيل «جبهة التحرير الوطني»<sup>(١)</sup> .

(١) مراجع :

[أنار ابن باديس] جمعها وحققها : د . عمار طالبي . طبعة الجزائر سنة ١٩٦٨م .

[مسلمون توارثوا] الفصل الخاص بابن باديس - للدكتور محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨م .

تنظيم الجهاد : اسم على عدة حركات إسلامية سرية ، رافضة لواقع المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، وداعية لتغيير هذا الواقع بالجهاد القتالي ، وليس بالتغيير السلمى ..

ومن أشهر هذه الحركات المجموعات التى اشتهرت بهذا الاسم - الجهاد - فى مصر منذ أواخر سبعينيات القرن العشرين ، والتى تراوحت علاقاتها ما بين الائتلاف ، بواسطة مجلس للشورى ، يقود مجموعاتها وينسق بين حركاتها ، وما بين الاختلاف .. ولقد اشتهر أمر هذا التنظيم السرى منذ اغتيال نفر من أعضائه رئيس جمهورية مصر العربية أنور السادات فى السادس من أكتوبر سنة ١٩٨١ م [ ٩ ذى الحجة سنة ١٤٠١هـ ] ..

ويجمع بين فكر تنظيمات الجهاد وحركاته :

- ١ - الحكم بالكفر على «دول» و «حكام» المجتمعات الإسلامية المعاصرة .. وليس على «الأمة» الإسلامية و «عامة» المسلمين .
- ٢ - التأريخ لكفر «الدول» و «الحكام» بسقوط الخلافة [ ١٣٤٢هـ - ١٩٢٤م ] ..
- ٣ - تعليل هذا الكفر بسيادة القوانين الوضعية - غير الإسلامية



- فى هذه الدول ، وتحاكم الحكام إليها ، بدلا من الشريعة الإسلامية ، التى تمثل حاكمية الله ، سبحانه وتعالى ..

٤ - اعتبار الجهاد القتالى هو السبيل إلى إزالة دول الكفر وحكامه ، وإعادة الإسلام إلى الأمة وإقامة دولة الخلافة الإسلامية ..

٥ - تبينى الرأى القائل بأن آيات القرآن التى تحدثت - فى التعامل مع الخصوم - عن « الصفح » و « العفو » و « الإعراض » و « الصبر » ، قد نسخت بأية « السيف » ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحَرَامُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصِرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ ﴾ [التوبة : ٥]

٦ - رفض فكرة أن « الجهاد مراحل » منها ما لا يكون بالقتال كجهاد النفس .. والجهاد بالعلم .. الخ .. واستبدالها بأنه « مراتب لا مراحل » .. « فالعلم ليس هو السلاح الحاد والقاطع الذى سوف يقطع دابر الكافرين .. ولكن هذا السلاح هو الذى ذكره الله فى قوله ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِّقُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٦٤) [التوبة : ١٤]

٧ - رفض التغيير وإعادة الإسلام ودولته عن طريق العمل السياسى والتنظيم الحزبى المشروع ، لأن هذا هو طريق « الجمعيات الخيرية » وليس طريق « الجهاد الإسلامى » ..

٨ - رفض طريق «الهجرة» من الأوطان ، للعودة إليها فاتحين ..  
والدعوة إلى «إقامة الدولة الإسلامية في الوطن ، ثم الخروج منه  
فاتحين لغيره من الأوطان» .

فالأهداف الكبرى، لجماعات الجهاد، هي :

أ - إزالة دول الكفر المرتدة عن الإسلام ..

ب - وإقامة الدول الإسلامية ..

ج - وإعادة الإسلام إلى المسلمين ..

د - والانطلاق لإعادة الخلافة الإسلامية من جديد ..

ولقد مثلت هذه التنظيمات ، ولا تزال تمثل ، أبرز «فصائل  
الغضب والاحتجاج والرفض» في الحركات الإسلامية المعاصرة ..  
فهى رفض عنيف للمواقع .. ورفض للطريق السلمى فى التغيير ،  
الذى اختارته الحركات الإسلامية الكبرى سبيلا لاستكمال  
إسلامية الحياة في مجتمعات ودول ونظم المسلمين<sup>(١)</sup> .



---

(١) مراجع :

الفريضة الغائبة ١ - كتيب منسوب إلى المرحوم محمد عبد السلام فرح .  
الفريضة الغائبة - عرض وحوار وتقييم | للدكتور / محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٩١ م .

## التفديد والعجبة

هو الاسم الذي أطلقتته أجهزة الإعلام ، وشاع لدى الجمهور على جماعة إسلامية سرية - هي «جماعة المسلمين» - التي دعا إليها وتزعمها شكري أحمد مصطفى [١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م] في عقد السبعينيات من القرن العشرين .

وكان شكري مصطفى - وهو مهندس زراعي - أحد المعتقلين الإسلاميين في أحداث [١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م] بمصر . والتي انتهت بإعدام الشهيد سيد قطب [١٣٢٤ - ١٣٨٦هـ - ١٩٠٦ - ١٩٦٦م] .

وفي المعتقل - وكان تعذيب المعتقلين قاعدة مستمرة - تخلق فكر هذه الجماعة كحركة «رفض - جذري» لواقع المجتمعات الإسلامية وثقافتها ، وأيضاً لمناهج الدعوات والحركات الإسلامية جميعها ..

ومن كتابات شكري مصطفى - وخاصة كتاب الخلافة .. وكتاب التوسعات - تبلورت مقولات هذه الجماعة في :

١ - تكفير مرتكب المعصية ..

٢ - وتكفير من لم ينضم إلى هذه الجماعة - لأنها جماعة المسلمين .. وليست مجرد جماعة من المسلمين ..

- ٣ - والحكم على المجتمعات الإسلامية وثقافتها بالجاهلية ..
- ٤ - وسحب الكفر على التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية وعصورها منذ القرن الرابع الهجرى .
- ٥ - والدعوة للهجرة من محيط الكفر والجاهلية إلى بعض الأطراف ، تمهيدا للعودة فاتحين لهذه المجتمعات ..

وفى سنة ١٩٧٧ م ساومت الجماعة الحكومة المصرية فاختطفت أحد علماء الأزهر - الدكتور محمد حسين الذهبي - وطالبت بالإفراج عن ثلاثين من أعضائها المسجونين ، وإذاعة بيانات تحمل أفكارها ، و ٢٠٠ ألف جنيه مصرى .. ولما لم ترضخ الحكومة قتلوا الشيخ الذهبي فى شهر يوليو ، فقبضت الحكومة على قيادات الجماعة ، وحوكموا ، وأعدم زعيمها وأربعة من زملائه فى العاشر من ربيع الثانى سنة ١٣٩٨ هـ ٢٩ مارس سنة ١٩٧٨ م .

ولقد انحسر تنظيم هذه الجماعة بالسرعة التى انتشر بها ، وإن بقيت بعض مقولاتها فى تنظيمات سرية أخرى<sup>(١)</sup> .



(١) مراجع :

أذكر بانى مع جماعة المسلمين - التكفير والهجرة لعبد الرحمن أبو الخير - طبعة الكويت سنة ١٩٨٠ م .

مُصَلِّات

أصل «الوحي» - في اصطلاح اللغويين - : الإعلام في خفاء . . ووسائل هذا الإعلام ، الخفى والمستتر عن غير الموحى إليه المقصود بالإعلام مباشرة ، متعددة ، فمنها : الإشارة ، والكتابة ، والرسالة ، والإيماء ، والإلهام ، والكلام الخفى . . إلى آخر سبل توصيل الإعلام الخفى إلى الغير .

وكذلك يطلق لفظ «الوحي» على اسم المفعول منه ، أى الموحى ، مكتوباً كان هذا الموحى أو كتاباً .

ولقد سمي وحي الله ، سبحانه ، إلى أنبيائه ورسله : وحيًا ، لأن الله قد أسره إلى هؤلاء الأنبياء والرسل ، وخصهم به ، وأخفاه عنهم عداهم . . وهذا هو وجه تسمية جبريل ، عليه السلام : «ناموس الله» - كما ورد في الحديث النبوى - إذ أصل «الناموس» - كما يقول الشريف الرضى [ ٣٥٩ - ٤٠٦ هـ ٩٧١ - ١٠١٥ م ] - في كتابه [المجازات النبوية] : «المكان الذى يستجن - [يستتر] - فيه الصائد عن الوحش لئلا تراه فتنفّر منه . ومن ذلك سمي من يجعله الإنسان موضع سره ناموساً . . فكأن النبى ، ﷺ ، إنما شبه جبريل بذلك لأنه يستخفى بما يؤديه عن الله سبحانه إلى الأنبياء . .» (١)

وفى القرآن الكريم وفى الأدب العربى وردت الاستخدامات

لمصطلح «الوحي» في المعاني والأغراض التي أشرنا إليها . . فهو  
يعنى فى قول الله سبحانه : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا  
وحيًا أو من وراء حجاب ﴾ [الشورى : ٥١] يعنى : الإلهام والقذف  
فى القلب ، سواء أكان ذلك فى اليقظة أو فى المنام - [الرؤيا] - . .  
وفى قوله تعالى : ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى بك  
وحيه ﴾ [طه : ١١٤] يعنى : إلقاءه إلى الرسول ، ﷺ ، بواسطة الملك .  
وفى الآية القرآنية : ﴿ قل إنما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم  
الدعاء إذا ما ينذرون ﴾ [الأنبياء : ٥٥] يعنى مصطلح الوحي :  
الموحي به ، من إطلاق المصدر على المفعول .  
أما فى الآية : ﴿ وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجكم من  
أرضنا أو لتعودن فى ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ﴾  
[إبراهيم : ١٣] فهو وحي للرسول . . على حين يعنى فى آية : ﴿ وأوحى  
ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ﴾ [النحل : ٦٨] الإلهام  
للحيوان غير العاقل . . أما فى الآية : ﴿ فقضاهن سبع سموات فى يومين  
وأوحى فى كل سماء أمرها ﴾ [فصلت : ١٢] فإنه يعنى : التسخير أى أن  
الله ، سبحانه ، قد سخر كل سماء لما يراد منها . . وهو قد جاء بمعنى  
الإشارة والإيماء فى قول الله سبحانه : ﴿ فأوحى إليهم أن سبحوا  
بكرة وعشيا ﴾ [مريم : ١١] وكذلك حاله فى قول الشاعر :



يرمون بالخطب الطوال وتارة وحى الملاحظ خيفة الرقباء  
أى : الإشارة بالملاحظ .

وقد يأتى «الوحى» بمعنى الإيحاء إلى الملائكة ، كما فى آية :  
﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ﴾ [ الأنفال : ١٢ ] كما قد  
يأتى بمعنى : الوسوسة بالشر ، كما فى قول الله ، سبحانه : ﴿ وَإِنَّ  
الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ [ الأنعام : ١٢١ ]

تلك هى أبرز معانى مصطلح «الوحى» ، فى عرف اللغويين ، وفى  
المصادر الأولى للعربية .



أما فى اصطلاح الشريعة فإن «الوحى» يعنى : كلام الله المنزل  
على نبي من أنبيائه . . . وذلك إذا ما ثبت الإعلام الخفى - [الوحى] -  
- بلسان الملك ، فوقع فى سمع النبي ، بعد علمه بالمبلغ بأية  
قاطعة . . . والقرآن الكريم مثل على هذا النوع من «الوحى» . . . كما  
يعنى ، فى الشريعة أيضا : خاطر الملك ، يتضح بإشارة منه للنبي ،  
من غير بيان بالكلام . . . ويحكى عن هذا اللون من «الوحى»  
حديث الرسول ﷺ : «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّ نَفْسًا  
لِي نَمُوتَ . . .» - الحديث - . . . ويعنى أيضا ، فى اصطلاح  
الشريعة : الإلهام . . . وقد يكون الوحى فى البقطة ، كما يكون رؤيا  
فى المنام . وجميعه حجة عند علماء الشريعة .

وقريب من معاني «الوحي» لدى علماء الشريعة ، من الفقهاء ، معانيه لدى علمائها من المتكلمين ، فهو يعنى عندهم : كشف الحقيقة كشفا مباشرا ، مجاوزا للحس ، ومقصورا على المختارين لهذا اللون من الإعلام .

أما الفلاسفة فإنهم يحيلون إلى تجريد «عملية» «الوحي» من طابعها الحسى ، ويقولون إنه : عبارة عن اتصال النفس الإنسانية بالنفوس الفلكية ، اتصالا روحيا ، فترسم لديها صور الحوادث ، وتطلع ، بهذا الاتصال ، على عالم الغيب . . وهم يرون أن فى الأنبياء استعدادا خاصا وفطرة خاصة تؤهلهم لهذا الاتصال ، وهذا الاستعداد وهذه الفطرة تبلغ عند الأنبياء مالا تبلغه عند غيرهم ، حتى من «الأولياء» و «العارفين» .

وهذا التصور الفلسفى للوحي شائع لدى فلاسفة الإسلام ، بل ولدى أصحاب النزعة العقلية من المتكلمين المسلمين . . بل إننا نجد لدى الأستاذ الإمام محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] ومدرسة التجديد الدينى فى عصرنا الحديث . . فعندما عرض الأستاذ الإمام - فى [رسالة التوحيد] - لقضية الوحي حرص على أن يصرح فيها برأيه الخاص ، وعلى أن ينبه على اختلاف تصوره هذا عن التصورات الشائعة عند النصوصيين أو الفقهاء ، بل ومتكلمى الأشعرية . . فبعد أن عرض للمعانى اللغوية للمصطلح ، قال إن التعريف الشرعى للوحي هو : «إنه كلام الله تعالى ، المنزل على نبي من أنبيائه» . . ثم استطرد فحدد أن له رأيا متميزا فقال «أما نحن فنعرفه ، على شرطنا ، بأنه : عرفان



وواضح ، من سياق حديث الأستاذ الإمام ، وحججه التي ساقها  
 في هذا المقام ، أنه كان يجادل «الماديين» الذين ينكرون «الوحي»  
 كجزء من إنكارهم كل ما لا يدرك بالحواس ، ولذلك نراه يعضى فى  
 عرض إمكانية حدوث هذا «العرفان» للمستعدين لتلقيه فيقول :  
 «وأما إمكان حدوث هذا النوع من العرفان (الوحي) ، وانكشاف ما  
 غاب من مصالح البشر عن عامتهم لمن يختصه الله بذلك ،  
 وسهولة فهمه عند العقل ، فلا أراه مما يصعب إدراكه إلا على من  
 لا يريد أن يدرك ، ويحب أن يرغب نفسه على أن لا تفهم! . . . فمن  
 النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر : بأصل الفطرة ،  
 ما تستعد به ، من محض الفيض الإلهي ، لأن تتصل بالأفق  
 الأعلى ، وتنتهي من الإنسانية إلى الذروة العليا ، وتشهد من أمر  
 الله شهود العين ما لم يصل غيرها إلى تعقله أو تحسسه بعصا  
 الدليل والبرهان ، وتتلقى عن العليم الحكيم ما يعلو وضوحاً على ما  
 يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعاليم ، ثم تصدر عن ذلك العلم إلى  
 تعليم ما علمت ودعوة الناس إلى ما حُملت على إبلاغه إليهم ، وأن  
 يكون ذلك سنة الله في كل أمة وفي كل زمان ، على حسب  
 الحاجة . . . أما وجود بعض الأرواح العالية ، وظهورها لأهل تلك  
 المرتبة السامية فمما لا استحالة فيه بعد ما عرفنا من أنفسنا  
 وأرشدنا إليه العلم ، قديمه وحديثه ، اشتمال الوجود على ماهو  
 اللطيف من المادة ، وإن غيب عنا ، فأى مانع من أن يكون بعض هذا  
 الوجود اللطيف مشرقاً لشيء من العلم الإلهي ، وأن يكون لنفوس  
 الأنبياء إشراف عليه ، فإذا جاء به الخبر الصادق حملنا على  
 الإذعان بصحته . أما مثل الصوت ، وأشباح لتلك الأرواح في

حس من اختصه الله بتلك المنزلة فقد عَهد عن أعداء الأنبياء ما لا يبعد عنه في بعض المصابين بأمراض خاصة على زعمهم ، فقد سلموا أن بعض معقولاتهم يتمثل في خيالهم ويصل إلى درجة المحسوس ، فيصدق المريض في قوله أنه يرى ويسمع ، بل يجالد ويصارع ، ولا شيء من ذلك في الحقيقة بواقع ، فإن جاز التمثيل في الصور المعقولة ، ولا منشأ لها إلا في النفس ، وأن ذلك يكون عند عروض عارض على المخ ، فلم لا يجوز تمثل الحقائق المعقولة في النفوس العالية ؟ وأن يكون ذلك لها عندما تنزع عن عالم الحس وتتصل بحقائق القدس ؟ وتكون تلك الحال من لواحق صحة العقل في أهل تلك الدرجة ، لا اختصاص مزاجهم بما لا يوجد في مزاج غيرهم ؟ . وغاية ما يلزم عنه أن يكون لعلاقة أرواحهم بأبدانهم شأن غير معروف في تلك العلاقة من سواهم ، وهو ما يسهل قبوله ، بل يتحتم ، لأن شأنهم في الناس أيضا غير الشئون المألوفة ، وهذه المغايرة من أهم ما امتازوا به وقام منها الدليل على رسالتهم ، والدليل على سلامة شهودهم ، وصحة ما يحدثون عنه . (٢) .

فالوحي : عرفان ، يجده أصحاب النفوس المنفطورة على النقاء ، ويوقنون بأن الله هو مصدره ، أما وسائطه - إن كانت - من الصوت أو الصورة ، فهي من باب تمثل المعقولات حتى تبلغ درجة المحسوس . . وطرفا العلاقة في هذه العملية هما : «نفوس» الأنبياء ، والمعقولات المتمثلة ، التي هي وأسطة النفوس إلى العرفان ! .

ونحن نلاحظ أن الأستاذ الإمام يرى أن «نفوس» الأنبياء قد

امتلك النقاء الذي أهلها لهذا العرفان «بأصل الفطرة» . . . وهذا هو الذي نجده عند جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ - ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] عندما عرض لتعريف «النبي» فى التعليقات التى أملاها على شرح جلال الدين الدوانى [٨٣١ - ٩١٨ هـ - ١٤٢٧ - ١٥١٢ م] للعقائد العُصْدية ، فبعد أن يعرض التعريف الشائع للنبي ، من أنه «إنسان بعثه الله لتبليغ ما أوحى إليه ، إلى من أمر بتبليغهم» . . . يقول : «وقد يعرف النبي بأنه : إنسان فطر على الحق علما وعملا ، أى بحيث لا يعلم إلا حقا ، ولا يعمل إلا حقا ، على مقتضى الحكمة ، وذلك يكون بالفطرة ، أى لا يحتاج فيه إلى الفكر والنظر ، ولكن التعليم الإلهي ، فإن فطر أيضا على دعوة بنى نوعه إلى ما جبل عليه ، فهو رسول أيضا . . . فتفكر فيه ، فإنه دقيق؟! . . .»<sup>(١٢)</sup> . . . فهو «مفطور» و «مجبول» على الحق ، علما وعملا ، وهو - كرَسُول - مفطور ومجبول على التبليغ . . . ويؤكد وحدة فكر الأفغانى ومحمد عبده فى هذه القضية تعليق محمد عبده على كلام الأفغانى هذا ، عندما يقول إن معنى جملة : «بعثه الله» : «أى جعل فيه الباعث والداعى للتبليغ»<sup>(١٣)</sup> .

هذا هو تصور «الوحى» عند مفكرى الإسلام .



فإذا انتقلنا إلى «الوحى» ، كحدث بدأت به نبوة محمد ﷺ وبعثته ، وإلى «صورة» واسطة «الوحى» ، والمراحل التى مرت بها هذه «الصورة» ، وإلى نصيب ذلك التصور للوحى من الاتساق مع تصور فلاسفة الإسلام وذوى النزعة العقلية من متكلميهِ . . . إذا

انتقلنا إلى ذلك كان علينا أن ننظر في المصدر الوحيد لهذا التصور ،  
ألا وهو السنة النبوية ، التي تناثرت في كتبها أحاديث أحاد كثيرة  
تحدثت عن بدء الوحي للنبي ، ﷺ ، ومراحلها ، والصور التي تمثل  
بها للنبي عندما كان يحدث هذا الاتصال ..

فمن السنة النبوية نعلم أن محمدا ، ﷺ ، قد جاءه الوحي وهو  
في سن الأربعين ، وكان قد رفض وثنية الجاهلية ، وأخذ يتأمل  
باحثا عن الحق ، متخذا من بقايا توحيد إبراهيم وشريعته سبيلا  
للتحنت والتعبيد ، وخاصة في خلوته التي كان ينقطع إليها في  
شهر رمضان بغار حراء ... وأول صورة جاءه بها «الوحي» كانت  
«الرؤيا الصادقة» ، في شهر ربيع الأول ، وأخذت تتكرر لستة  
أشهر ... ثم كانت الحادثة الشهيرة ، يوم سمع الصوت بغار حراء ،  
في شهر رمضان ، يقول له : [اقرأ] ... ثم فقد الوحي ثلاث  
سنوات ، سمع بعدها الصوت يناديه [يا أيها المزمل] ، وهو في سن  
الثالثة والأربعين .. والسنة تضع يدنا على حقيقة أن صورة الوحي  
في هذه المرحلة كانت «الضوء والنور والصوت» .. أما مرحلة  
«تمثل» الملك جبريل للنبي في صورة رجل فقد جاءت بعد ذلك ..  
فعن ابن عباس أنه قال : «أقام النبي بمكة خمس عشرة سنة ، سبع  
سنين يرى الضوء والنور ويسمع الصوت ، وثمانى سنين يوحى  
إليه ، وأقام بالمدينة عشرا»<sup>(٥)</sup> .. ونحن نلاحظ أن عبارة ابن عباس  
لا تعتبر مرحلة السنوات السبع - طور الضوء والنور والصوت -  
وحيا ، بل تجعل «الوحي» ، بمعنى القرآن ، وتتابع نزوله منجما ، بما  
حدث بعد هذه السنوات السبع .



ويزكى هذا الفهم أن الرسول - كما هو مشهور - قد ذهبت به  
 زوجته خديجة ، عقب سماعه الصوت : [اقرأ] ، فى غار حراء ،  
 برمضان ، عندما بلغ الأربعين ، ذهبت به إلى ورقة بن نوفل بن  
 أسد بن عبد العزى - وكان شيخاً قد تنصر ، يقرأ الإنجيل بالعربية  
 - كما يقول حديث عائشة ، عليها السلام ، فلما سمع ورقة من  
 النبى وصف ما حدث ، أنبأه أن «هذا هو الناموس الذى نزل على  
 موسى»<sup>(٦)</sup> . . . وموسى كان يرى نارا ونورا . . . ويؤكد ذلك أن رواية  
 أخرى لذات الحديث الذى يحكى ذات الواقعة تقول إن النبى قد  
 قال لخديجة : «إنى أرى ضوءاً وأسمع صوتاً ، وإنى أخشى أن يكون  
 بى جن . قالت : لم يكن الله ليفعل ذلك بك يا بن عبد الله . ثم  
 أتت ورقة بن نوفل فذكرت ذلك له ، فقال : إن يك صادقا فإن هذا  
 ناموس مثل ناموس موسى ، فإن بعث وأنا حى فسأعززه وأنصره  
 وأؤمن به»<sup>(٧)</sup> . . . فالحديث يحدد أن التمثيل كان : «ضوءاً وصوتاً» ،  
 وورقة لم يعتبر ذلك بعثة فيؤمن بالمبعوث : بل عدها مقدمات ،  
 وقال : «إن بعث وأنا حى فسأعززه وأنصره وأؤمن به» . . . ولقد  
 مات ورقة بعد عام من تلك الحادثة ، أى نحو سنة ١٢ ق . هـ  
 سنة ٦١١ م دون أن يؤمن بشريعة محمد ، لأن البعثة والتبليغ لم  
 يكن قد حان حينه حتى ذلك التاريخ ! . . بل إن النبى ذاته لم  
 يكن يقول ، يومئذ ، إنه مبعوث ، بل كان يبحث عن تفسير ،  
 يطمئنه ، لهذه الظاهرة غير العادية وغير المفهومة له ! .

هذا عن مراحل «الوحى» ، وصورته فى المراحل الأولى . .

ومن الأحاديث ما يحدد أو يقرب لنا معنى «الصوت» الذى كان

يتمثل به الملك . فعن عائشة «أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ : كيف يأتيك الوحي؟ قال : يأتيني مثل صلصلة الجرس - وهو أشده علي - ثم يفصم عني وقد وعيت . وأحيانا يأتيني ملك ، في صورة الرجل ، فأعني ما يقول .»<sup>(٩)</sup> .

وفي الأحاديث النبوية ما يصف حالة النبي الجسدية ساعة اتصال نفسه بالوحي وتلقيه عن الله سبحانه ، وهذا الوصف يوحى بحدوث تغيرات واضحة تجعل النبي في حال مخالف للحالة البشرية المعتادة ، إن في النفس أو في الجسد ، فعائشة تستكمل روايتها للحديث السابق فتضيف : «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا . . . وفي أحاديث آخر ما يدل على أن التغيرات كانت تصيب وظائف الجسم فتغير من سماته وطبائعه . . فوجهه يحمر . . . وهو يغط . . . وجلده يبرد . . . ويأخذه شبه السبات . . . بل ويثقل وزن جسمه ثقلا يفوق الحدود! . . . فالصحابي يعلى بن مرة يطلب من عمر بن الخطاب أن يريه النبي حين يوحى إليه ، فلما جاءه الوحي - وكان «بالجعرانة» ومعه نفر من أصحابه - أشار عمر إلى يعلى «فجاء يعلى وعلى رسول الله ثوب قد أظلم به ، فأدخل رأسه ، فإذا رسول الله محمر الوجه ، وهو يغط ، ثم سرى عنه . . .»<sup>(١٠)</sup> . وابن عباس يقول : «وكان إذا نزل عليه الوحي عرفوا ذلك في تبريد جلده! . . .»<sup>(١١)</sup> . وعائشة تقول : «وكان إذا أوحى إليه يأخذه شبه سبات . . .»<sup>(١٢)</sup> . . . وزيد بن ثابت يقول : «إني قاعد إلى جنب النبي يوما إذ أوحى إليه . . وغشيته السكينة ، ووقع فخذه على

فأخذني حين غشيته السكينة . فلا والله ما وجدت شيئا قط أثقل من أخذ رسول الله ، ثم سرى عنه فقال : اكتب يا زيد ، فأخذت كتفا ، فقال اكتب [لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون] . . . (١٢) . . .

وأبو أروى الدوسي يقول : « رأيت الوحي ينزل على النبي ، وإنه على راحلته ، فترغو وتفتل يديها حتى أظن أن ذراعها ينقصم ، فربما بركت ، وربما قامت موتدة يديها حتى يسرى عنه . . . ! » .

وفي الأحاديث - كما مر - ما ينبئ عن رغبة بعض الصحابة في رؤية حال الرسول ساعة يوحى إليه ، لكن تلك الحال ، غير العادية ، وما يحدث لجسده وهيئته فيها من تغيرات ومعاناة ، كانت تدعو جمهور الصحابة إلى صرف أبصارهم عن الرسول عندما يحدث له هذا «العرفان» . . . ففي حديث أبي هريرة : « . . . وجاء الوحي ، وكان إذا جاء لم يخف علينا ، فليس أحد من الناس يرفع طرفه إلى رسول الله حتى يقضى (١٣) ! . . . » .

ونحن عندما نطالع ، في الأحاديث النبوية ، تلك الأوصاف التي تصف الرسول ساعة تلقيه الوحي واتصاله بالملك ، نتذكر عبارة الإمام محمد عبده التي يقول فيها : «وغاية ما يلزم عنه - أى عن هذا الاتصال - أن يكون لعلاقة أرواحهم بأبدانهم شأن غير معروف في تلك العلاقة من سواهم . . . » فهي حال غير معتادة ، تحدث في لحظات غير عادية ، لأناس أهلهم البقطة ليكونوا غير عاديين ! .

لكن . . . هل حقا أن بعض الصحابة قد رأى الملك جبريل ، وهو

فى صورة دحية الكلبي ، أثناء لقائه بالرسول ، عليه الصلاة والسلام ؟ .. إن فى البخارى ، عن أبى عثمان ، ما يدل على أن أم سلمة ، زوج النبى ، قد رآه ، وأنها قد حسبه دحية الكلبي ، حتى أنبأها النبى أنه جبريل . . وفى مسند أحمد بن حنبل ما يدل على أن عبدالله بن عباس قد رآه والرسول يناجيه . . . لكننا لو عرضنا ذلك على معنى «الوحي» ، الذى هو إعلام فى خفاء من عدا النبى ، وعلى معنى «الناموس» الذى سمي به جبريل لاستتاره عن غير النبى ، ملنا عن التسليم بأن أحدا غير الرسول قد رأى الوحي والناموس . . ويدفع عنا الحرج فى هذا الميل أن هذين الحديثين ، ككل أحاديث «الوحي» ، هى أحاديث أحاد ، إن كانت حجة فى «العمليات» فهى ليست بالحجة فى «الاعتقادات» !<sup>(١)</sup> .



#### (١) الهوامش:

- (١) الخبازات النبوية: ص ١٤٥ ، ١٤٦ طبعة القاهرة سنة ١٣٢٨ هـ .
- (٢) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ج ٣ ص ٤١٤ - ٤١٦ دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .
- (٣) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ج ١ ص ٢١٣ - ٢١٤ دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة ، طبعة بيروت سنة ١٩٧٩ م .
- (٤) المصدر السابق ج ١ ص ٤٥١ .
- (٥) رواه الإمام أحمد .
- (٦) رواه البخارى ومسلم والإمام أحمد .
- (٧) رواه الإمام أحمد .
- (٨) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى ومالك فى الموطأ والإمام أحمد .
- (٩) رواه البخارى .
- (١٠) رواه الإمام أحمد .
- (١١) رواه الإمام أحمد .
- (١٢) رواه الإمام أحمد .
- (١٣) الطبقات الكبرى - لابن سعد - ج ١ ق ١ ص ١٣١ . طبعة دار التحرير القاهرة .
- (١٤) رواه الإمام أحمد .

«الإصلاح»: ضد الإفساد.. وهو من الإصلاح، المقابل للفساد، وليسئمة.. وفي القرآن الكريم: ﴿خَلَقُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخِرُ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٦] ﴿وَلَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]

والإصلاح: هو التغيير إلى الأفضل.. فالحركات الإصلاحية هي الدعوات التي تحرك قطاعات من البشر، بدعوات صالحة، لإصلاح مافسد، في الميادين الاجتماعية المختلفة، انتقالات بالحياة إلى درجة أرقى في سلم التطور الإنساني..

وعلى حين يقلل الفكر الاجتماعي الغربي الحديث من قيمة وجذرية وشمولية «الإصلاح» وحركاته، عندما يميز بين الإصلاح وبين «الثورة» في مستوى التغيير، عمقا وشمولا، فيرى الثورة: تغييرا جذريا وشاملا، بينما يرى الإصلاح: تغييرا جزئيا وسطحيا.. فإن المضمون الإسلامي والعربي لمصطلح «الإصلاح» لا يفرق بينه وبين مصطلح «الثورة»، من حيث عمق التغيير وشموله، وإنما من حيث الأسلوب في التغيير، وزمن التغيير.. فكلاهما - إسلامي - يعني التغيير الشامل والعميق، لكن الثورة تسلك سبل العنف - غالبا - والفجائية والسرعة في التغيير، بينما تتم التغييرات الإصلاحية بالتدرج.. وكثيرا ما تعطى الثورة

الأولية لتغيير الواقع ، بينما تبدأ مناهج الإصلاح - عادة - بتغيير الإنسان ، وإعادة صياغة نفسه وفق الدعوة الإصلاحية ، وبعد ذلك ينهض هذا الإنسان بتغيير الواقع وإقامة النموذج الإصلاحي الجديد ..

ولذلك ، وصفت رسالات الرسل - عليهم الصلاة والسلام - بأنها دعوات إصلاح ، وهى التى تغيّت تحقيق التغيير الجذرى والشاملى ، إلى الأفضل ، على النحو الذى يحل الصلاح محل الفساد ، ويقيم الإصلاح مقام الإفساد فى أمم الدعوات والرسالات ومجتمعاتها .. فرسول الله شعيب - عليه السلام - ينادى قومه ﴿ إِنَّ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتِطَعْتُ ﴾ [هود : ٨٨] والدّه - سبحانه وتعالى - الذى ﴿ يَعْلَمُ الْمَفْسُدَ مِنَ الْمَصْلُحِ ﴾ [البقرة : ٢٢٠] يهيب بنا : ﴿ وَلَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ [الأعراف : ٥٦] .

\*\*\*

وإن الناظر فى تاريخ المجتمعات الإنسانية ليراء سلسلة من التدافع بين دعوات الإصلاح وحركاته وبين الفساد والإفساد فى تلك المجتمعات .. وعلى سبيل المثال :

● فالحركة الإصلاحية التى بدأها وقادها مارتن لوتر [١٤٨٣ - ١٥٤٦م] - بألمانيا - قد أحدثت تغييرات جذرية وعميقة وشاملة فى اللاهوت والتدين النصرانى ، أدت إلى ، وساعدت على تغييرات جذرية وشاملة فى المجتمعات النصرانية - التى انتشرت

فيها - بوجه عام . . فلقد أنكرت البروتستانتية وساطة رجال الدين بين الله وبين الإنسان . . وأقامت الحقيقة الدينية على الإنجيل وحده ، لا على «التقاليد» المتمثلة في مراسم المجالس المسكونية والأحكام البابوية . . وجعلت للإنسان حقاً في تفسير الإنجيل ، بعد أن كان ذلك وقفاً على طبقة «الكليروس» - الكهنة - . . وأنكرت عبادة «الأيقونات» والتخلّفات الأثرية للقديسين . . وقللت عدد «الأسرار المقدسة» إلى اثنين فقط ، هما «المعمودية» و «التقربان المقدس» . . فكادت البروتستانتية - كدعوة إصلاحية - أن تكون دينا موازياً للكاتوليكية ولالأرثوذكسية . .

أما في الواقع الاجتماعي ، فلقد ساعدت البروتستانتية على انتقال مجتمعاتها من الإقطاع إلى الرأسمالية والليبرالية - بتحريرها الفرد ، وتمييزها للنزعة الفردية - كما انتقلت بهذه المجتمعات من الرابطة الدينية إلى الرابطة القومية . . ففتحت الباب لعصر أوربي جديد . .

● أما في الشرق ، فإن الحركة الإصلاحية التي قادها جمال الدين الأفغانى [ ١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ - ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م ] - منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر - بدءاً من مصر ، وشمولاً لكل العالم الإسلامي - قد مثلت إحياء وتجديداً للفكر الإسلامى ، بالعودة إلى متابعة الجوهرية - القرآن الكريم والسنة الصحيحة - واستلهاهم مناهج السلف - وخاصة في عصور الازدهار والإبداع الحضارى - فجددت هذه الحركة في مناهج التعامل مع القرآن والسنة . . وعلاقة العقل بالنقل . . والدين بالدولة . . والحكام



بالحكوميين .. والإنسان بالأموال والثروات .. وحضارة الإسلام  
بالحضارات الأخرى .. الخ .. الخ ..

وكانت التحديات التي واجهت هذه الدعوة الإصلاحية كثيرة ،  
لكن أبرزها كان «تحدى التخلف الموروث» ، - ولقد واجهته  
بالإحياء والتجديد - الإحياء لشوايت الإسلام .. والتجديد في  
متغيرات الواقع - .. و «تحدى الغزوة الاستعمارية الغربية  
الحديثة» - ولقد واجهته هذه الدعوة الإصلاحية بحركات التحرر  
الوطنى - وبصياغة الإسلام بديلا حضاريا عصريا ، ليحل محل  
النموذج الحضارى الغربى الوافد إلى بلادنا فى ركاب الاستعمار ..  
ولقد عبر الإمام محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ -  
١٩٠٥ م] عن أهداف هذه الحركة فقال : إنها ثلاثة : «الأول : تحرير  
الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة ، قبل  
ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى ،  
واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله .. لتتم  
حكمة الله فى حفظ نظام العالم الإنسانى .. فهو صديق للعلم ،  
باعث على البحث فى أسرار الكون ، داع إلى احترام الحقائق  
الثابتة ، مطالب بالتعويل عليها فى أدب النفس وإصلاح العمل .

والثانى : هو إصلاح أساليب اللغة العربية فى التحرير ..

والثالث : هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على  
الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة» - [الأعمال  
الكاملة] ج ٢ ص ٣١٠ ، ٣١١ .

وهكذا مثلت هذه الحركة الإصلاحية منهاجا وسطا ، بين أهل الجمود والتقليد وبين المتغربين المنبهرين بالنموذج الحضارى الغربى . . وكانت دعوتها الإصلاحية شاملة لميادين الفكر الدينى . . واللغة العربية وعلومها وآدابها . . وعلاقات الحاكمين بالمحكومين . .

ولقد تحولت فكرية هذه الدعوة الإصلاحية إلى روح سارية فى الكثير من الدعوات والحركات ، والمشاريع الفكرية للعديد من العلماء والمفكرين على امتداد العقود التى تلت ، وعلى امتداد أقاليم عالم الإسلام<sup>(١)</sup> .



(١) مراجع :

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة طبعة بيروت - سنة ١٩٧٩ م .

(٢) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة طبعة القاهرة - سنة ١٩٩٣ م .

(٣) [أمانن لوثر] تأليف القس حنا جرجس الخضرى . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٣ م .

## الأمة الإسلامية

المسلمون ، تنوع شعوبهم وأجناسهم وألسنتهم وقومياتهم . . لكن هذا التنوع لا يعدو أن يكون غمازاً في إطار «أمة واحدة» ، وحدها الإسلام في العقيدة والشريعة والحضارة ومعايير الأخلاق والسلوك . . ووحدة الأمة - أي الجماعة - الإسلامية حقيقة قرآنية تعبر عن إرادة إلهية ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ (١) ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ (٢) .

وهذه الوحدة ، التي صنعها الإسلام ، وصبغها بصبغته ، قد أهلت الأمة الواحدة لأن تعيش في وطن واحد . . سماه علماء الإسلام ومؤرخوه «دار الإسلام» . . وهذا الوطن الإسلامي عاش حيناً من الدهر تحت سلطة «دولة» واحدة . . وحيناً آخر تعددت فيه «الدول» . . لكن كل تاريخ الإسلام والمسلمين ، إلى ما قبل التجزئة التي فرضتها الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة على المسلمين ، قد احتفظ - حتى مع تعدد «الدول» - بوحدة الأمة في العقيدة والشريعة والحضارة ومعايير الأخلاق والسلوك . . بل واحتفظ كذلك بوحدة «الدار- الوطن» . . فكان المسلم - بل والمواطن من أهل الكتاب - ينتقل بحرية تامة عبر الأقاليم

(٢) المؤمنون : ٥٤ .

(١) الأنبياء : ٩٢ .

والإمارات والولايات... ويقيم أثى شاء وحيث أراد ، فيعامل -  
دون إجراءات جديدة - معاملة المواطنين فى المكان الذى يستقر  
فيه ، له كل حقوقهم وعليه ما عليهم من واجبات... فجمعت «دار  
الاسلام» بين «الوحدة» فى حقوق المواطنة وواجباتها ، وبين «تنوع  
وتعدد» «الدول» و «الحكومات» ..

ولذلك ، استقر الرأى فى الفكر السياسى الإسلامى - منذ  
بداية تاريخه وحتى عصرنا الحديث - على أن الإسلام جنسية  
ووطن ودار واحدة لأمة واحدة ، لا تمزقها «الجنسيات» - بالمعنى  
الغربى - و «الامتيازات» الخاصة بالجنسيات المختلفة ..

وعندما ورد إلى الأستاذ الإمام محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ  
١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] - وهو مفتى الديار المصرية - سؤال : «فى المسلم  
إذا دخل بمملكة إسلامية ، هل يُعَدُّ من رعايتها؟ له مالهم وعليه ما  
عليهم ، على الوجه المطلق؟ وهل يكون تحت شرعها فيما له وعليه ،  
عموماً وخصوصاً؟ وما هى الجنسية عندنا؟ وهل حقوق  
الامتيازات ، المعبر عنها عند غير المسلمين «بالكبيتولاسيون» -  
Capitulations | موجودة بين ممالك الإسلام مع بعضهم  
بعضاً؟» .. جاء فى فتوى الأستاذ الإمام على هذا السؤال :

«... إن وطن المسلم من البلاد الإسلامية هو المحل الذى ينوى  
الإقامة فيه ، ويتخذ فيه طريقة كسبه لعيشه ، ويقر فيه مع أهله ،  
إن كان له أهل ، ولا ينظر إلى مولده ، ولا إلى البلد الذى نشأ فيه ،  
ولا يلتفت إلى عادات أهل بلده الأول ، ولا إلى ما يتعارفون عليه

من الأحكام والمعاملات ، وإنما بلده ووطنه الذى يجرى عليه عرفه وينفذ فيه حكمه هو البلد الذى انتقل إليه واستقر فيه ، فهو رعية الحاكم الذى يقيم تحت ولايته ، دون سواء من سائر الحكام ، وله من حقوق رعية ذلك الحاكم مالهم وعليه ما عليهم ، لا يميزه عنهم شئ ، لا خاص ولا عام .

أما الجنسية فليست معروفة عند المسلمين ، ولا لها أحكام تحرى عليهم ، لا فى خاصتهم ولا عامتهم ، وإنما الجنسية عند الأمم الأوربية تشبه ما كان يسمى عند العرب عصبية ، وهو ارتباط أهل قبيلة واحدة أو عدة قبائل بنسب أو حلف يكون من حق ذلك الارتباط أن ينصر كل منتسب إليه من يشاركه فيه ، وقد كان لأهل العصبية ذات القوة والشوكة حقوق يمتازون بها على من سواهم .

جاء الإسلام فألغى تلك العصبية ، ومحا آثارها ، وسوى بين الناس فى الحقوق ، فلم يبق للنسب ولا لما يتصل به أثر فى الحقوق ولا فى الأحكام . فاجنسية لا أثر لها عند المسلمين قاطبة ، فقد قال ﷺ : «إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية - أى عظمتها - وفخرها بالآباء ، وإنما هو مؤمن تقى وفاجر شقى ، الناس كلهم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب»<sup>(١)</sup> ، وروى كذلك عنه : «ليس منا من دعا إلى عصبية»<sup>(٢)</sup> .

(١) رواه أبو داود .

(٢) وفى البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه والإمام أحمد : ليس منا من دعا بدعوى الجاهلية .

وبالجملة ، فالاختلاف في الأصناف البشرية ، كالعربي والهندي والرومي والشامي والمصري والتونسي والمراكشي ، بما لا دخل له في اختلاف الأحكام والمعاملات بوجه من الوجوه . ومن كان مصريا وسكن في بلاد المغرب وأقام بها جرت عليه أحكام بلاد المغرب ، ولا ينظر إلى أصله المصري بوجه من الوجوه .

وأما حقوق الامتيازات ، المعبر عنها « بالكابيتو لاسيون » ، فلا يوجد شيء منها بين الحكومات الإسلامية قاطبة . . . هذا ما تنقضى به الشريعة الإسلامية ، على اختلاف مذاهبها ، لاجنسية في الإسلام ، ولا امتياز في الحقوق بين مسلم ومسلم ، والبلد الذي يقيم فيه المسلم من بلاد المسلمين هو بلده ، ولأحكامه عليه السلطان دون أحكام غيره . والله أعلم . . . » (٣) .

هكذا استقر الفكر السياسي الإسلامي على أن وحدة الأمة في الدين والحضارة قد أثمرت واستلزمت وحدة دار الإسلام ، حتى مع تعدد الإمارات والولايات والحكومات . . بل إننا نستطيع أن نقول إن الخلافة الإسلامية ، حتى عندما كانت واحدة ، قد تميزت في دار الإسلام ، تحت حكمها ، الولايات والأقاليم . . .

وعندما فرض الاستعمار الغربي - وخاصة بعد سقوط الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤م - التجزئة الكاملة على عالم الإسلام ، ذهب الفكر الإسلامي يبحث عن شكل جديد يحقق «وحدة» دار

---

(١) تاريخ هذه الفتوى ٩ رمضان سنة ١٣٢٢ هـ - ١٧ نوفمبر سنة ١٩٠٤ م - انظرها في الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ج ٦ ص ٢٥٣ - ٢٥٥ . دراسة وتحقيق : د . محمد غمارة ، طبعة بيروت سنة ١٩٧٤ م .

الإسلام ، ويحافظ على وحدة الأمة ، دون تجاهل لواقع التجزئة ، وتعدد الدول والحكومات ، أو قفز على «الواقع» الذى كرسه الاستعمار .. وكان من أبرز الاجتهادات الإسلامية ، فى هذا الميدان ، كتاب الفقيه الأستاذ الدكتور عبد الرزاق السنهورى باشا [١٣١٣ - ١٣٩١ هـ ١٨٩٥ - ١٩٧١ م] : «فقه الخلافة وتطورها»<sup>(١)</sup> . . . والذى قدم فيه صورة الخلافة الإسلامية المنشودة فى شكل «عصبة أم إسلامية» تتعدد فيها الحكومات ، مع إعادة الوحدة إلى دار الإسلام ..

هذا عن الموقف الإسلامى من العلاقة الإسلامية بين حكومات وأقطار عالم السلام .. وهو موقف له منطلق عقدى ، مؤسس على وحدة الأمة ، التى تستدعى - للمحافظة على مقوماتها - وحدة الدار .. وهو - فى ذات الوقت - يلبي احتياجات وضرورات التضامن التى تفرضها صراعات القوى والمصالح على الساحة العالمية ..



إن خريطة عالمنا المعاصر تتحرك نحو إقامة التكتلات والوحدات ، سواء بروابط إقليمية ، أو حضارية ، أو أيديولوجية .. فالوحدة الأوربية ، وإن استهدفت المصالح المادية ، إلا أن الأيديولوجية الليبرالية ، والتراث النصراني ، والبعد الحضارى الغربى هى منطلقات ومكونات فى صنع هذه الوحدة .. بل إن هذه العوامل

---

(١) وهذا الكتاب - فى الأصل - رسالة دكتوراء - بالفرنسية - من باريس سنة ١٩٦٦ م . انظر ترجمته العربية . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٩ م .



هى التى تجعلها تفتح أبوابها لشعوب أوروبا الشرقية ، التى تشترك معها فى هذه المنطلقات ، بعد أن انهيار التكتل الأيديولوجى الماركسى الذى كان يجمعها - منظمة الكوميكون - وحلف وارسو - . . وكذلك الحال مع المنظمات الإقليمية . . عربية . . وإفريقية . . وأسيوية . . وفى أمريكا اللاتينية . . الخ . . الخ . .

وعندما حدث حريق المسجد الأقصى فى ٢٨ أغسطس سنة ١٩٦٩ م اهتز الضمير الإسلامى . . فانعقد أول مؤتمر قمة للبلاد الإسلامية فى سبتمبر من نفس العام . . وتأسست فى العام التالى «منظمة المؤتمر الإسلامى» . . وهى التى تمثل - وخاصة إذا دبت فيها روح الحياة الحقة - عصبية الشعوب الإسلامية . . وإذا حدث وعادت أغلب حكوماتها عن خلط الإسلام بالعلمانية فى تشريعاتها ، والتزمت بالإسلام عقيدة وشريعة وحضارة وخلقاً ، فتحوّلت إلى «دول» إسلامية ، أمكن ، يومئذ ، أن تتطور من منظمة «مؤتمر إسلامى» إلى منظمة «دول» إسلامية ؟ . . وبهذا التطور ، تكون قد استجابت لضرورات الواقع المعاصر فى التكتل على أساس المصالح المادية ، وحققت المبدأ الإسلامى فى وحدة دار الإسلام ، المؤسسة على مبدأ وحدة أمة الإسلام فى العقيدة والشريعة والحضارة والأخلاق . .



وجدير بالذكر ، أن وحدة أمة الإسلام ، ووحدة دار الإسلام لاتعنى عزلة المسلمين عن المشاركة فى الحياة الدولية ، سواء من خلال المنظمات الإقليمية مع الدول غير الإسلامية ، أو من خلال

المنظمات الدولية . . بل ومن خلال الأحلاف مع الدول غير الإسلامية ، طالما أن هذه المشاركات والتحالفات تحقق للمسلمين مصلحة ، أو تدفع عنهم مضرة ، أو تحقق نفعاً عاماً للإنسانية ، المسلمين منها وغير المسلمين . . فتحقيق المصلحة الشرعية المعتمدة ، للمسلمين وللإنسانية كلها ، ودفع المضرة والمفسدة عن المسلمين وعن الإنسانية ، هما معايير المبالاة والمعاداة فى علاقات المسلمين بغير المسلمين . . وهذه المعايير هى التى أوجزت التعبير عنها آيات القرآن الكريم التى تقول : ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودةً والله قديرٌ والله غفورٌ رحيمٌ ﴾ (٧) لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ (٨) إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴿

فالذين لا يقاتلون المسلمين فى الدين . . ولا يخرجونهم من ديارهم - بالاقتيال والتهجير ، أو باغتصاب مقدراتهم وحريتهم فى اتخاذ قرارات إدارة شئونهم ! - ولا يظاهرون ويعينون على إخراجنا من ديارنا . . نحن فى حل من إقامة العلاقات والتحالفات - على اختلاف درجاتها - معهم طالما كانت محققة لمصلحة من المصالح الشرعية المعتمدة للإسلام والمسلمين .

(١) المتحنة ٧١ - ٩ .

## الحرية

الحرية : هى المقابل المناقض للعبودية .. والحر : ضد العبد والرقيق .. وتحرير الرقبة : عتقها من الرق والعبودية .. فالحرية هى رخصة الإباحة التى تمكن الإنسان من الفعل أو الترك ، المعبر عن إرادته ، التى هى شوق إلى الفعل أو الترك ، فى أى ميدان من ميادين الفعل ، وبأى لون من ألوان التعبير الحر ..

وفى المصطلح القرآنى مقابلة بين الحر والعبد ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى ﴾ [البقرة : ١٧٨]

ومن المأثورات الإسلامية كلمات الفاروق عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه : «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!» ..

وكما أن الحر هو الخالى من القيود المادية والقانونية التى تحد من حرية ، فهو أيضا المتحرر من سلطان الصفات والعادات الذميمة ، لأنها تستعبد صاحبها .. وفى القرآن الكريم : ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [آل عمران : ٣٥]

أى حراً مُعْتَقاً من أمر الدنيا والحرص على شهواتها .. وفى الحديث النبوى الشريف : «تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار»

- رواه البخارى وابن ماجه - ... ذلك لأن الحريص عبد لما هو حريص عليه ... وفى ذلك يقول الشاعر :

\* ورق ذوى الأطماع رِقٌ مُخَلَّدٌ ! \*

\*\*\*

ولما كان الإسلام ، فى جوهر رسالته ، هو إحياء للإنسان ، يحرر ملكاته وطاقاته من استعباد الطواغيت ، فيجعل هذه الملكات والطاقات خالصة لله سبحانه وتعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ [ الأنفال : ٢٤ ] كانت رسالته ، فى العقيدة والشريعة ، تحرير الإنسان ، وذلك حتى تتحرر فيه هذه الملكات ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ﴾ [ الأعراف : ١٥٧ ] فجميع أحكام شريعته تحرير ، حتى عندما تحرم الخبائث ، لأن اجتناب هذه الخبائث تحرير للإنسان من العبودية لها! ... ومن ثم فكل الإسلام إحياء بالحرية ، يضع عن المؤمنين به القيود والأغلال - المادية والقانونية والخلقية - وينمى ويزكى الملكات والطاقات الخيرة ، لتغالب وتتغلب على القيود والأغلال ، فتصبح قمة العبودية لله وحده هى ذروة الحرية والتحرير للإنسان ! ..

ولأن هذا هو جوهر ومقام الحرية فى رسالة الإسلام ، فلقد حظ

المفسرون للقرآن الكريم سر التشريع الذى جعل كفارة القتل الخطأ تحرير رقبة من رق العبودية ﴿ ومن قتل مؤمناً خطئاً فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ [ النساء : ٩٢ ] .. ذلك لأن الرق موت ، والحرية حياة ، فلما كان القاتل قد أخرج - بالقتل - نفساً من عداد الأحياء إلى عداد الأموات ، فإن كفارة هذا الذنب - المعادلة له - هى تحرير رقبة ، بإخراج صاحبها من عداد الأموات - بالرق - إلى عداد الأحياء - بالحرية والتحرير ! - ..

ولما كان « الإسلام دين الجماعة » ، الذى لا تكتمل إقامته إذا وقف عالم الإيمان به عند حدود الفرد المنعزل ، حتى ولو استخلص كل نفسه - بالرهينة - للدين .. بل لا بد لإقامة فرائضه وواجباته وشرائعه من أمة ، ووطن ، ومجتمع ، ودولة ، وعمران ، لأن تكاليفه وفرائضه الاجتماعية - الكفائية - موجهة إلى الجماعة ، ولا تقوم ولا تُقام إلا بالجماعة ، بل وحتى فرائضه الفردية أغلبها جماعى الإقامة والأداء .. وأداؤها فى جماعة أزكى وأكثر ثواباً .. لأن هذا هو مكان الجماعة والجماعية فى إقامة دين الإسلام وتحقيق شريعته ، لم يقف الإسلام عند تحرير ذات الفرد وطاقاته وملكوته .. فلم يعرف الرهبانية ، التى تقف عند تحرير الذات الفردية ، وإنما جعل رهبانيته الجهاد الذى يحرر الأمم والشعوب والأوطان ، فقال رسوله الكريم ﷺ : « إني لم أؤمر بالرهبانية .. » - رواه الدارمى - .. و « إن الرهبانية لم تكتب علينا » - رواه الإمام أحمد - .. و « عليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام » - رواه الإمام أحمد - .. فكانت فتوحات الإسلام حروب تحرير للأمم والشعوب

من عبودية الاستبداد الخارجى الذى فرضه على هذه الشعوب ،  
 يومئذ ، استعمار الفرس والروم ، ومن الاستعباد الروحى  
 والاجتماعى الذى فرضته على هذه الشعوب نظم الكهانة الدينية ،  
 والجور الطبقي ، والاستبداد السياسى - فى الكسروية الفارسية  
 والقيصرية البيزنطية - . . وعن جوهر هذه الرسالة التحريرية عبّر  
 الصحابى «ربيعى بن عامر التميمى» ، عندما سأله «رستم» قائد  
 الفرس : - «ما الذى جاء بكم ؟ !

.. فقال :

- «إن الله آتبعنا وجاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى  
 عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى  
 عدل الإسلام» ..

فهى رسالة تحرير .. وتحرير لمن شاء التحرر ، بالحرية والاختيار! ..  
 تحرير من عبادة العباد .. ومن ضيق الدنيا .. ومن جور كهانة الأديان ..  
 فالحرية والتحرير هى جوهر رسالة الإسلام .. ولأن إقامة  
 الإسلام لا تكتمل إلا فى أمة ، كان اختصاص رسول الله ﷺ  
 وشريعته بالجهاد لتحرير الأمم والشعوب ، وبالدولة حُراسة الدين  
 المحرر لهذه الأمم والشعوب ..

ولأن شعوب الشرق ، إبان ظهور الإسلام ، قد أدركت هذه  
 الحقيقة من حقائقه ، فلقد انخرطت فى موكب فتوحاته ورعيه  
 دولته ولما يدخل الإيمان بعقيدته بعد فى قلوب هذه الشعوب! ..

\*\*\*

وإذا كانت الشرائع السابقة على الإسلام قد تميزت بالحللية والمرحلية والاختصاص بقوم من الأقوام . . . فلقد كانت عالمية الشريعة الإسلامية تحريرا للمؤمنين بها من قيد المحلية وعصبية القومية ، وظفت المحلية والأقوام والشعوب والقبائل كلبينات فى الأمة المنفتحة آفاقها دائما وأبدا لكل من يخلص العبودية لله . . فكانت عالمية الإسلام تحريرا من ضيق أفق العصبية الجاهلية ، وكان استيعاب الإسلام لموارث النبوات والرسالات السابقة ، وإضافته التى اكتمل بها دين الله الواحد - أى التصديق لما بين يديه ، والهيمنة على ما بين يديه - كان ذلك تحريرا من التعصب للشرائع المحلية ، وانفتاحا لأبواب الحرية فى شريعة استوعبت الشرائع ، وأضافت إليها ، ومن ثم أغنت عنها الذين آمنوا بها . . وبعبارة «حاطب بن أبى بلتعة» (٣٥ ق. هـ - ٣٠ هـ ٥٨٦ - ٦٥٠ م) - حامل كتاب رسول الله ﷺ إلى «المقوقس» - عظيم القبط - : «إن لك ديناً لن تدعه إلا لما هو خير منه ، وهو الإسلام ، الكافى الله به فقد ماسواه» ! . .



وكما جاء الإسلام ليضع عن الإنسان إصر القيود التى صنعها الاستبداد ، وأغلال العقائد الباطلة والشرائع المحرفة . . فلقد جاء ليفتح أبواب حرية الفكر والنظر أمام العقل الإنسانى لينظر ويتدبر ويتفكر فى ملكوت السموات والأرض ، وفى تاريخ الأولين والآخرين . . فى الماضى والحاضر والمستقبل . . فى كيف بدأ الخلق ، ولماذا كان الخلق ، وإلى أين المسيرة والمصير ؟ . . فكان



حديث القرآن الكريم عن التعقل والتدبر والتفكير والتذكر والحكمة والفقه والاعتبار .. بل واستنفاره هذه الملكات الإنسانية لتعمل بكل ما وهبها الله من طاقات في النظر لاكتشاف ما أودع الله في عالم الشهادة من آيات وسنن وأسرار .. فبعد أن كان سبيل الإيمان - في طور الطفولة الإنسانية - هو إدهاش العقل بالمعجزات المادية ، إدهاشا يشل طاقاته وقدراته على التفكير! .. غدا النظر والتعقل السبيل للإيمان المؤسس على تبين ما في المخلوقات من حقائق وقوانين وآيات .. ﴿ سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] - .. ولذلك رأينا الحديث المتكرر ، في القرآن الكريم ، الذي يستحث الإنسان على تنمية ملكات وطاقات النظر والتفكير ، لتزداد مساحة الحرية الإنسانية - بالعلم والمعرفة - إزاء ما في الكون من قيود تتمثل في المجهول ..

فالحديث عن التعقل يرد في القرآن - بصريح المصطلح - في تسع وأربعين موضعاً .. وعن القلب - الذي هو أداة الفقه والعقل - في أكثر من مائة موضع .. وعن اللب - الذي هو جوهر العقل - في ستة عشر موضعاً .. وعن التَّهَيُّ - بمعنى العقل - في موضعين .. وعن الفكر والتفكير في ثمانية عشر موضعاً .. وعن الفقه - الذي هو تجاوز علم المشاهد إلى علم المَغَيَّب - في عشرين موضعاً .. وعن التدبُّر - الذي هو النظر في العواقب والمستقبلات - في أربعة مواضع .. وعن الاعتبار في سبعة مواضع .. وعن

الحكمة - التى هى الصواب والإصابة بواسطة العقل - فى تسعة عشر موضعاً . .

وانطلاقاً من هذا الرصيد ، غير المسبوق فى شريعة من الشرائع السابقة على شريعة الإسلام ، رصيد التحرير للملكات التعقل والتدبر والتفكير لدى الإنسان ، ليتحرر من خوف المجهول ، ويمتلك مفاتيح القوى التى سخرها الله له فى استعمار الأرض . . انطلاقاً من هذا الرصيد التحريرى قال جمهور من فلاسفة الإسلام : إن أول واجب على الإنسان المكلف هو «النظر» . . لأن النظر الحر - هو الحرز للملكات الإنسان - وهو السبيل إلى الإيمان الدينى ، الذى تبلغ به هذه الملكات قمة التحرر من استعباد الطواغيت ! . .



وكما تجاوز الإسلام تحرير طاقات الإنسان إلى تحرير الشعوب من الاستعباد . . فلقد تجاوز تحرير الذين كانوا يُعبدون «أحراراً» إلى الدعوة لتحرير «الأرقاء» . .

لقد ظهر الإسلام ونظام الرق - إن فى شبه الجزيرة العربية أو فيما وراءها - نظام عام ، وبأبع القسوة ، ويمثل ركيزة من ركائز النظامين الاقتصادى والاجتماعى لعالم ذلك التاريخ . . وإذا نظرنا إلى المحيط الذى ظهر فيه الإسلام وجدنا الروافد والمتابع المتعددة دائمة الإمداد لنهر الرقيق الزاخر بالجديد من الأرقاء . . فالحروب العدوانية . . والغارات الدائمة . . والفقر المدقع . . والعجز عن سدّاد الدين . . والحراية وقطع الطريق . . وأسواق النخاسة التى تعج بالصغار المجلوبين - فتيانا وفتيات - كانت من المعالم الأساسية

لكل المجتمعات ، حتى لا نغالى إذا قلنا إن الرقيق كان «العملة الدولية» لاقتصاد ذلك التاريخ ! ..

فلما جاء الإسلام ، وقامت دولته بالمدينة ، حرم وألغى كل المنابع والروافد التى تمد نهر الرقيق بالجديد والمزيد . . . ووسع مصبات ذلك النهر ، عندما حبيب إلى الناس عتق الأرقاء وتحريرهم ، بل وجعله مصرفا من مصارف الأموال الإسلامية العامة ، وصدقات المسلمين . . . وعندما جعل العديد من كفارات العديد من الذنوب هى تحرير الأرقاء . . . وعندما سن شرائع المساواة بين الرقيق ومالكه ، فى المطعم والمشرب والملبس ، ودعا إلى حسن معاملته ، والتخفيف عنه فى الأعمال ، حتى لقد أصبح الاسترقاق - فى ظل هذه التشريعات - عبئا اقتصاديا يزهد فيه الراغبون فى الثراء ، بعد أن كان موردا من موارد الاستغلال ! ..

فلم يكن موقف الإسلام من «الخرية» ، وعداؤه «اللعبودية» - إذا نظرنا إلى موقفه من نظام الرق - مجرد موقف «فكرى . . نظرى . . أخلاقى» ، وإنما تجسد على أرض الواقع تجربة إصلاحية شاملة غيرت المجتمع الذى ظهر فيه تغييرا جذريا . . . بل إنه لم يقف بالرقيق عند حد العتق والتحرير ، وإنما فتح أمامهم كل أبواب الارتقاء فى السلم الاجتماعى ، وفق المعايير التى اعتمدها للارتقاء الاجتماعى : التقوى ، والبلاء فى إقامة الدين والدولة والمجتمع الجديد . . . حتى رأينا «بلالا الحبشى» - الذى أعتقه أبو بكر الصديق - يقول عنه عمر بن الخطاب - وهو من هو شرفا وحسبا ونسبا - : «سيدنا - أى أبو بكر! - أعتق سيدنا - أى بلالا» - !! » ..

ولقد وقف التشريع الإسلامى بالاسترقاق عند أسرى الحرب  
المشروعة وحدها ، وذلك ليبادلهم مع أسرى المسلمين . . بل وشرع  
لهذه الحالات ، المحدودة العدد ، «المن» و «الفداء» ﴿ فياذا لقيتم  
الذين كفروا فاضرب الرقاب حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما  
من بعد وإذا فداء حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ [محمد : ٤]

ذلك هو الحجاز الإسلام فى واقع التحرير للرقيق . . وهو إنجاز  
لا تحسب عليه «الردة» التى حدثت عندما استشرى الاسترقاق بعد  
اتساع الدولة ، ودخول شعوب كان الرق فيها نظاما اقتصاديا  
 واجتماعيا معقدا ومركبا . . والدولة الإسلامية ليست على حالها  
فى ظل منهاج النبوة والراشدين ! . .



ولأن هذا هو مقام الحرية فى الإسلام ، فلقد كان مبحثها هو أول  
المباحث التى بدأت بها الفلسفة الإسلامية فى تاريخنا الحضارى ،  
بعد ظهور الإسلام . . ولقد دلت ملايسات هذه النشأة على ارتباط  
«الحرية» بـ «المسئولية» ارتباطا عضويا ، لأن القضية التى أثار  
الجدل فولدت البحث فى هذه القضية ، هى التغيرات التى  
أحدثتها الدولة الأموية فى نظام الحكم الإسلامى ، والصراعات  
التي حدثت بين المسلمين حول هذه المتغيرات . . وهل القائمون  
بها مسئولون عنها؟ . . يحاسبون عليها؟ . . فهم أحرار  
مختارون؟؟ . . أم أنهم غير مسئولين؟ . . كليا؟ . . أو جزئيا؟ . . ولا  
حساب عليهم؟ . . لأنهم مسيروا مجبرون؟؟ . . فنشأ مبحث

الحرية - الذى عُبر عنه أحيانا بـ «الكلام فى القَدَر» - مرتبطا  
بالمسئولية . . مسئولية الإنسان . .



ولقد تميزت نظرة الإسلام إلى «الحرية» عن نظرات كثير من  
الفلسفات والأنساق الفكرية الأخرى . .

● فالحرية ، فى النظرة الإسلامية ، ضرورة من الضرورات  
الإنسانية ، وقريضة إلهية وتكليف شرعى واجب . . وليست مجرد  
«حق» من الحقوق الإنسانية ، يجوز لصاحبها أن يتنازل عنها إن هو  
أراد! . . فالرضا بالعبودية هو امتهان لمن كرمه خالقه ، واستخلفه  
فى حمل أمانة استعمار الأرض ، ورفع مقامه حتى على الملائكة  
المقربين ! . . وفيه ظلم للنفس ، سيحاسب عليه ذلك الذى يرضى  
لنفسه الرق والاستعباد ! . .

● والحرية ، فى الإسلام ، هى ضرورة إنسانية ، لمطلق الإنسان ،  
وليس للإنسان المسلم وحده . . وعمر بن الخطاب عندما استنكر  
استعباد الناس - «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم  
أحرارا؟» - كان «الناس» الذين يتحدث عنهم غير مسلمين . .

وإذا كان الدين والتدين هو أغلى وأول ما يميز الإنسان ، فإن تقرير  
الإسلام لحرية الضمير فى الاعتقاد الدينى لشاهد على تقديس حرية  
الإنسان فى كل الميادين . . فهو حر حتى فى أن يكفر ، إذا كان الكفر  
هو خياره واختياره ، طالما أنه لا ينشر كفره بين الناس ، فيعتدى على  
حريتهم فى الاعتقاد الدينى الذى جعلوه مقوما من مقومات الاجتماع

الإنسانى : ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾  
 [ البقرة : ٢٥٦ ] ﴿ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي  
 وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنزل مكموها وأنتم لها كارهون  
 (٢٨) ﴾ [ هود : ٢٨ ] ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم  
 جميعا أفأنت تكفره الناس حتى يكونوا مؤمنين (٩٩) ﴾ [ يونس : ٩٩ ]

لقد أراد الله للناس الهدى والإيمان . . لكنه جعل لهم ، مع هذه  
 الإرادة الإلهية ، الحرية والتخير والتمكين . . فكان انتصار الإسلام  
 للحرية الإنسانية فى كل الميادين . .

● كذلك تميز الإسلام بمذهبه فى «نطاق» الحرية الإنسانية  
 و «أفاقها» و «حدودها» ، تبعاً لتمييز فلسفته فى مكانة الإنسان فى  
 هذا الوجود . .

فالإنسان خليفة عن الله سبحانه وتعالى فى عمارة الوجود . .  
 ومن ثم فإن حرية هى حرية الخليفة ، وليست حرية سيد هذا  
 الوجود . . إنه حر ، فى حدود إمكاناته المخلوقة له - والتي لم  
 يخلقها هو ! - وهو حر ، فى إطار الملبسات والعوامل الموضوعية  
 الخارجية ، التى ليست من صنعه ، والتي قد يستعصى بعضها  
 على تعديله وتحويره وتغييره ! . . هو حر ، فى إطار أشواقه ورغباته  
 وميوله ، التى قد لا تكون دائماً وأبداً ثمرات حرة وخالصة لحرية  
 وإرادته الخالصة . وإنما قد تكون ، أحياناً ، ثمرات لمحيط لم يصنعه  
 هو ، ولوروث ما كان له إلا أن يتلقاه ! . .

ثم ، إنه «الخليفة والوكيل والنائب : الحر» ، الذى يجب أن تظل  
حريته فى إطار عقد وعهد الاستخلاف الإلهى له . . والذى تمثل  
الشريعة الإلهية مواده ويتوده وأطر حاكميته . . فهى عقد وعهد  
الاستخلاف والتوكيل . .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد سخر للإنسان ظواهر الطبيعة  
وقواها . . ليتحرر من العبودية لها . . فإنه قد أقام - أو أراد - إخاء  
بين قوى الإنسان وقوى الطبيعة ، لمتزوج حريته بهذا التسخير  
المتبادل . . فهو أخ للطبيعة ، بين قواه وقواها تسخير متبادل ، هو  
أشبه ما يكون بالارتفاق ، كل مرفق مسخر للمرفق الآخر ، الأمر  
الذى يجعل الحرية الإنسانية حرية المخلوق . . المسئول . . لا حرية  
الذى لا يُسأل عما يفعل . . الفعال لما يريد !





الرَّقِيقُ - لغة - : هو الشيء الرقيق ، نقيض الغليظ والشخين .

- واصطلاحاً - : هو المملوك والعبودية ، أى نقيض العتق والحرية .

والرقيق - بمعنى العبد - يطلق على المفرد والجمع ، وعلى الذكر والأنثى . أما العبد ، فهو : الرقيق الذكر ، ويقابله : الأمة للأنثى . ومن اللفاظ الدالة على الرقيق الذكر لفظي : الفتى ، والغلام . . . وعلى الأنثى لفظي : الفتاة ، والجارية . أما القِن فهو أخص من العبد ، إذ هو الذي مُلك هو وأبواه .

ومالك الرقيق هو : السيد ، أو المولى .

والرق نظام قديم قدم المظالم والاستعباد والطبقية والاستغلال في تاريخ الإنسان ، وإليه أشار القرآن الكريم في قصة يوسف عليه السلام : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢٣) وشرَّوه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين (٢٤) وقال الذي اشتراه من مصر لامراته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولذا ﴿ [يوسف : ٢١ - ٢٢] . . وكان الاسترقاق من عقوبات السرقة عند العبرانيين القدماء ، وعندما سئل إخوة يوسف

عن جزاء السارق لصواع الملك ﴿فَأَلَوْا جَزَاؤَهُ مِنْ وَجْدٍ فِي رَحْلِهِ  
فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ [يوسف : ٧٥]

وفى الحضارات القديمة كان الرق عماد نظام الإنتاج والاستغلال ، وفى بعض تلك الحضارات - كالفرعونية المصرية والكسروية الفارسية - كان النظام الطبقي المغلق يحول دون تحرير الأرقاء ، مهما توفرت لأى منهم الرغبة أو الإمكانيات . . وفى بعض تلك الحضارات - كالحضارة الرومانية - كان السادة هم الأقلية الرومانية ، وكانت الأغلبية - فى الإمبراطورية - برابرة أرقاء ، أو فى حكم الأرقاء . . وللأرقاء فى تلك الحضارات ثورات ، من أشهرها ثورة «سبارتاكوس» (٧٣ - ٧١ ق م) وعندما ظهر الإسلام كانت المظالم الاجتماعية والتمييز العرقي والطبقي منابع ومنابع روافد عديدة تغذى «نهر الرق» فى كل يوم بالمزيد من الأرقاء . . وذلك من مثل :

- ١ - الحرب ، بصرف النظر عن حفظها من الشرعية والمشروعية ، فالأسرى يتحولون إلى أرقاء ، والنساء يتحولن إلى سبايا وإماء . .
- ٢ - وأخطف ، يتحول به المخطوفون إلى رقيق . .
- ٣ - وارتكاب الجرائم الخطيرة كالقتل والسرقة - والزنا - كان يحكم على مرتكبيها بالاسترقاق . .
- ٤ - والعجز عن سداد الديون ، كان يحول الفقراء المدينين إلى أرقاء لدى الأغنياء الدائنين . .

٥ - وسلطان الوالد على أولاده ، كان يبيع له أن يبيع هؤلاء الأولاد ، فينتقلون من الحرية - إلى العبودية ..

٦ - وسلطان الإنسان على نفسه ، كان يبيع له بيع حرته ، فيتحول إلى رقيق ..

٧ - وكذلك النسل المولود من كل هؤلاء الأرقاء يصبح رقيقا ، حتى ولو كان أباه حرا ..

ومع كثرة واتساع هذه الروافد التي عند نهر الرقيق - في كل وقت - بالمزيد والمزيد من الأرقاء ، كانت أبواب العتق والحرية إما موصدة تماما ، أو ضيقة عسيرة على الولوج منها ..

وأمام هذا الواقع ، اتخذ الإسلام ، إبان ظهوره ، طريق الإصلاح الذي يتغيا تحرير الأرقاء ، وإلغاء نظام العبودية ، وطى صفحته من الوجود . لكن في «واقعية - ثورية» - إذا جاز التعبير - .. فهو لم يتجاهل الواقع ولم يقفز عليه .. وأيضا لم يعترف به على النحو الذي يبقيه ويكرسه ..

لقد بدأ الإسلام فأغلق وألغى وحرّم أغلب الروافد التي كانت عند نهر الرقيق بالمزيد من الأرقاء .. فلم يبق منها إلا أسرى الحرب المشروعة والشرعية ، والنسل إذا كان أبواه من الأرقاء .. وحتى أسرى الحرب المشروعة - فتح الإسلام أمامهم باب العتق والحرية - المن أو الفداء - ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمِرَهُمْ فَرَسَدُوا فَلْيَا مِمَّا مَنَّا بَعْدَ وَإِنَّا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ [محمد : ٤] فعندما تضع الحرب أوزارها ، يتم تحرير

الأسرى ، إما بالمن عليهم بالحرية وإما بمبادلتهم بالأسرى المسلمين لدى الأعداء ..

ومع إغلاق الروافد - روافد الاسترقاق ومصادره - التفت الإسلام إلى «كتلة» واقع الأرقاء ، فسعى إلى تصفيتها بالتحجير . وذلك عندما عدد ووسع مصاب نهر الرقيق . . ولقد سلك الإسلام إلى ذلك المقصد سبيل منظومة القيم الإسلامية . . وسبيل العدالة الاجتماعية الإسلامية . . فحبيب إلى المسلمين عتق الأرقاء تطوعا ، إذ في عتق كل عضو من أعضاء الرقيق عتق لعضو من أعضاء سيده من النار ، فتحجير الرقيق سبيل لتحجير الإنسان من عذاب النار يوم القيامة . . كما جعل الإسلام عتق الأرقاء كفارة للكثير من الذنوب والخطايا . . وجعل للدولة والنظام العام مدخلا في تحرير الأرقاء عندما جعل هذا التحرير مصرفا من المصارف الثمانية لفريضة الزكاة - فهو جزء من أحد أركان الإسلام - ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٦٠] . . كما جعل الحرية هي الأصل الذي يولد عليه الناس ، والرق هو الاستثناء الطارئ الذي يحتاج إلى إثبات ، فمجهولوا الحكم هم أحرار ، وعلى مدعى رقبهم إقامة البينات ، وأولاد الأمة من الأب الحر هم أحرار - و «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟! » . .

كذلك ، ذهب الإسلام فساوى بين العبد والحر في كل الحقوق

الدينية ، وفي أغلب الحقوق المدنية ، وكان التمييز فقط ، في أغلب حالاته ، بسبب التخفيف عن الأرقاء مراعاة للاستضعاف والقيود التي يفرضها الاسترقاق على الإرادة والتصرف . . فالمساواة تامة في التكليف الدينية ، وفي الحساب والجزاء . . وشهادة الرقيق معتبرة في بعض المذاهب الإسلامية - عند الحنابلة - وله حق الملكية في ماله الخاص ، وإعانتته على شراء حريته - بنظام المكاتبه والتدبير - مرغوب فيها دينيا : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ [النور : ٣٣] . . والدماء متكافئة في القصاص . .

وبعد أن كان الرق من أكبر مصادر الاستغلال والشراء لملاك العبيد ، حوِّله الإسلام - بمنظومة القيم التي كادت أن تسوى بين العبد وسيده - إلى ما يشبه العبد المالى على ملاك الرقيق . . فمطلوب من مالك الرقيق أن يطعمه مما يأكل ، ويلبسه مما يلبس ، ولا يكلفه من العمل ما لا يطيق . . بل ومطلوب منه - أيضا - إلغاء كلمة «العبد» و «الامة» ، واستبدالها بكلمة «الفتى» و «الفتاة» .

بل لقد مضى الإسلام في هذا السبيل إلى ما هو أبعد من تحرير الرقيق ، فلم يتركهم في متاهة عالم الحرية الجديد دون عصبية وشوكة وانتماء ، وإنما سعى إلى إدماجهم في القبائل والعشائر والعصبيات التي كانوا فيها أرقاء ، فأكسبهم عزتها وشرفها ومكانتها ومنعتها ومالها من إمكانات ، وبذلك أنجز إنجازا عظيما . . وراء وفوق التحرير - عندما أقام نسيجاً اجتماعيا جديداً التحم فيه

الأرقاء السابقون بالأحرار ، فأصبح لهم نسب قبائلهم عن طريق «الولاء» ، الذى قال عنه رسول الله ، ﷺ : «الولاء لُحْمَةٌ كُلُّ لُحْمَةٍ النَّسَب» - رواه الدارمى - حتى لقد غدا أرقاء الأمس «سادة» فى أقوامهم ، بعد أن كانوا «عبيدا» فيهم . . وقال عمر بن الخطاب - وهو من هو فى الحسب والنسب - عن بلال الحبشى ، الذى اشتراه أبو بكر الصديق وأعتقه : «سيدنا أعتق سيدنا» . . . كما تمنى عمر أن يكون سالم مولى أبى حذيفة حيا فيختاره لمنصب الخلافة . . فالمولى ، الذى نشأ رقيقا ، قد حرره الإسلام ، فكان إماما فى الصلاة ، وأهلا لخلافة المسلمين . ولقد ساعد على هذا الاندماج فى النسيج العربى - فضلا عن الإسلامى - ذلك المعيار الذى حدده الإسلام للعروبة ، وهو معيار اللغة وحدها ، فباستبعاد معايير «العرق» . . والدم» غدت الرابطة اللغوية والثقافية انتماء واحدا للجميع ، بصرف النظر عن ماضى الاسترقاق . . وعن هذا المعيار للعروبة تحدث رسول الله ، ﷺ - فى معرض النقد والرفض للذين أرادوا إخراج الموالى ، ذوى الأصول الأعرقية غير العربية ، من إطار العروبة ، فقال : «أيها الناس ، إن الرب واحد ، والأب واحد . . وليست العربية بأحدكم من أب أو أم . وإنما هى اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربى .»

هكذا كان الإسلام لإحياء وتحرير الإنسان ، مطلق الإنسان ، يضع عن الناس إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، ويحرر الأرقاء ، لأن الرق - فى نظره - «موت» ، والحرية «حياة وإحياء» . .

ولقد أبصر هذه الحكمة الإسلامية الإمام التسفى (٧١٠ هـ - ١٣١٠)  
وهو يعلل جعل الإسلام كفارة القتل خطأ تحرير رقبة : ﴿ ومن  
قتل مؤمناً خطئاً فلتحرير رقبة مؤمنة ﴾ [النساء : ٩٢] . فقال : إن  
القاتل « لما أخرج نفساً مؤمنة من جملة الأحياء ، لزمه أن يدخل  
نفساً مثلها في جملة الأحرار ، لأن إطلاقها من قيد الرق  
كإحيائها ، من قبل أن الرقيق ملحق بالأموات ، إذ الرق أثر من آثار  
الكفر ، والكفر موت حكماً . . . فالإسلام قد ورث نظام الرق  
عن المجتمعات الكافرة ، فهو من آثار الكفر ، ولأنه موت لروح  
وملكات الأرقاء ، سعى الإسلام إلى إلغائه ، وتحرير - أى إحياء -  
موات هؤلاء الأرقاء ، كجزء من الإحياء الإسلامى العام : ﴿ يا أيها  
الذين آمنوا استحيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾  
[الأنفال : ٢٤]



ومع أن مقاصد الإسلام فى تصفية نهر الرقيق - بإغلاق روافده  
وتجفيف منابعه ، وتوسيع مصباته - لم تبلغ كامل أفاقها ، إذ انتكس  
« الواقع التاريخى » للحضارة الإسلامية ، بعد عصر الفتوحات :  
وسيطرة العسكر المماليك على الدولة الإسلامية . . إلا أن حال  
الأرقاء فى الحضارة الإسلامية قد ظلت أخف قيوداً وأكثر عدلاً -  
بما لا يقارن- من نظائرها خارج الحضارة الإسلامية ، بما فى ذلك



الحضارة الغربية ، التي تزعمت - فى العصر الحديث - الدعوة إلى  
تحرير الأرقاء ..

فلقد اقترن عصر النهضة الأوروبية بزحفها الاستعماري على  
العالمين القديم والجديد .. وبعد أن استعبد المستعمرون - الإسبان  
والبرتغاليون والإنجليز والفرنسيون - سكان أمريكا الأصليين ،  
وأهلكوهم فى سخرة البحث عن الذهب وإنشاء المزارع ، مارسوا  
أكبر أعمال القرصنة والخطف فى التاريخ ، تلك التى راح  
ضحيتها أكثر من أربعين مليوناً من زنوج إفريقيا ، سلسوا  
بالحديد ، وشحنوا فى سفن الحيوانات ، لتقوم على دمائهم  
وعظامهم المزارع والمصانع والمناجم التى صنعت رفاهية الرجل  
الأبيض فى أمريكا وأوروبا .. ولا يزال أحفادهم يعانون من التفرقة  
العنصرية فى الغرب حتى الآن ..

وعندما سعت أوروبا - فى القرن التاسع عشر - إلى إلغاء  
نظام الرق ، وتحريم تجارته ، لم تكن دوافعها - فى أغلبها -  
روحية ولا قيمية ولا إنسانية ، وإنما كانت - فى الأساس -  
دوافع مادية ، لأن نظامها الرأسمالي قد رأى فى تحرير الرقيق  
سبيلاً لجعلهم عمالاً أكثر مهارة ، وأكثر قدرة على النهوض  
باحتمياجات العمل الفنى فى الصناعات التى أقامها النظام  
الرأسمالي .. فلقد غدا الرق - بمعايير الجدوى الاقتصادية - عبئاً  
على فائض رأس المال - الذى هو معبود الحضارة الرأسمالية

المادية - وأصبحت حرية الطبقة العاملة أعون على تنمية مبادراتها ومهاراتها فى عملية الإنتاج . .

ولقد كان ذات القرن الذى دعت فيه أوروبا لتحرير الرقيق هو القرن الذى استعمرت فيه العالم ، فاسترقت بهذا الاستعمار الأمم والشعوب ، استرقاقا جديدا ، لاتزال الإنسانية تعاني منه حتى الآن<sup>(١)</sup> .



---

(١) مراجع :

- (١) [معجم العلوم الاجتماعية] مجمع اللغة العربية - طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥ م
- (٢) [دائرة المعارف الإسلامية] طبعة القاهرة سنة ١٤١٨ هـ سنة ١٩٩٨ م
- (٣) [تفسير التسفي] طبعة القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ .
- (٤) [الإسلام والثورة] للدكتور محمد عمارة . . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨ م

## الفتنة الكبرى

هي الفتنة التي حدثت أواخر عهد الخليفة الراشد - الثالث - عثمان بن عفان (٤٧ ق. هـ - ٣٥ هـ ٥٧٧ - ٦٥٦ م) ..

ومعنى «الفتنة» - في الاصطلاح العربى - : الاختلاف ، والصراع حول الآراء والأفكار ، وقيام الأحزاب والتيارات الفكرية المتصارعة ، والشورى ، أى الوثوب ، ووقوع البلاء والامتحان والاختبار ، وتمييز الجيد من الردى ، عن طريق الصهر فى حرارة الأحداث والصراعات ..

وكل هذه المعانى - للفتنة - قد شهدتها السنوات الأخيرة من عهد عثمان ! ..

بل إن هناك من الأحاديث النبوية أحاديث يمكن النظر إليها - من يسلم بصحتها - على أنها نبوءات بهذه الفتنة .. من مثل حديث : «كيف فى فتنة تشور فى أقطار الأرض كأنها صياصي - [قرون] - بقرا» - رواه الإمام أحمد - .. وحديث : «إنه تكون فتنة ، وخير الناس فيها الخفى التقي» ..

ويزكى كونها نبوءات نبوية بفتنة عصر عثمان خاصة : أن هذه الفتنة كانت - بتعبير الطبرى - «أول وهن - [ضعف] - على الإسلام ، وأول فتنة كانت فى العامة ! ..» ..

\*\*\*

لقد حكم عثمان بن عفان اثنتى عشرة سنة إلا اثنى عشر يوماً - من ٣ محرم سنة ٢٤ هـ - ٩ نوفمبر سنة ٦٤٤ م - إلى ١٨ ذى الحجة سنة ٣٥ هـ - ١٧ يونية سنة ٦٥٦ م - . . ولم تشهد السنوات الست الأولى من حكمه ما يدعو للخلاف والاختلاف على نهجه فى قيادة الدولة الإسلامية . . لكن السنوات الست الأخيرة من عهده هى التى شهدت تغيرات كانت مثارا لاختلاف الناس حول اتساق منهجه أو اختلافه مع منهج كل من أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب فى سياسة الرعية والعدل بين الناس . . لم يختلف أحد على صلاح الخليفة عثمان وتقواه . . وهو قد تولى الخلافة بعد أن تجاوز السبعين من عمره! . . ولم يختلف أحد كذلك على تميز منهجه فى الحكم عن منهج سلفه عمر بن الخطاب . . كانت لعمر شدة فى العدل حتى على نفسه وأهله ، تتزايد كلما تزايدت مكانة الذين يتعامل معهم وكلما دنت قرابتهم منه ؟! . . أما عثمان فلقد كان له نهج آخر واجتهاد مغاير . . ويكفى للدلالة على ذلك أن نتأمل كلمات عثمان التى يقول فيها : إن عمر كان يمنع أهله وأقرباءه - [ أى يحرمهم من المال ] - ابتغاء وجه الله ، وإنى أعطى أهلى وأقربائى ابتغاء وجه الله ؟! . . فنحن أمام «نهج عثمانى» جديد فى التعامل مع الأهل والأقرباء . . ولقد كان أهل عثمان وأقرباؤه من بنى أمية - وفيهم عصبية قريش - ومنهم عديد من ملائ قريش وأشرافها - الذين تتطلع نفوسهم إلى نصيبها من الدنيا ، فى المجتمع الإسلامى ، كما كان لها ذلك قبل ظهور الإسلام . . ولقد كان ذلك أول التغيرات التى حدثت فى عهد عثمان . . والتى أثارَت الفتنة بين الناس . .

● فعمر بن الخطاب ، قد امتدت الدولة ، بالفتوحات ، على عهده ، حتى شملت مواطن الغنى والثراء وضمت أودية الأنهار الكبرى ، فحازت كنوز الأكاسرة والقيصرية ومواطن الخصب فى الثروات الزراعية . . لكنه كان واعياً للأثر السلبي للثراء على نفوس الناس . . ومدركا لخطر اجتماع شرف النسب وفضل الصحبة لرسول الله ، ﷺ ، مع الثراء الكبير . . فحجر على أشراف قريش أن يغادروا المدينة «إلا بإذن ، ولأجل !» . . وذلك مخافة انتشارهم فى مواطن الغنى والثراء ، حتى لا يفقدوا خشونة المجاهدين بالانغماس فى ترف الحياة وطيباتها . . وحتى لا تتكون من حولهم العصبيات! . .

فلما ولى عثمان . . تغير موقفه من ملائ قريش وأشرافها . . وبعبارة الطبرى : « . . فلما ولى عثمان لم يأخذهم بالذى كان عمر يأخذهم به ، فخرجوا إلى البلاد ، فلما نزلوها ، ورأوا الدنيا! ورأهم الناس . . تقربوا إليهم ، وقالوا : يملكون ، فيكون لنا فى ملكهم حظوة ؟! . . »

ثم يعلق الطبرى على هذا التغير الذى شهده مجتمع عهد عثمان فيقول : «فكان ذلك أول وهن على الإسلام ، وأول فتنة كانت فى العامة!! . . ولذلك كان عثمان أحب إلى قريش من عمر ؟! . . »

● وفى عهد عمر لم تكن لقريش الغلبة على ولايات الدولة وحكام أقاليمها . . فمن بين ولاية إحدى عشرة ولاية - هى مجموع ولايات ذلك العهد - لم يكن من قريش سوى ثلاثة ولايات ، واحد منهم فقط من بنى أمية . .

فلما ولي عثمان حدثت تغيرات فى هذا الميدان أيضا . .  
 فمعاوية بن أبى سفيان ، والى دمشق - وهو أموى - ضمت إليه  
 ولاية حمص وولاية الأردن - فغدت الولايات الثلاث فى  
 أمية! . . وأصبحت الكوفة فى ولاية أموى - هو الوليد بن عقبة  
 - والبصرة فى ولاية أموى - هو عبدالله بن عامر - . . ومصر فى  
 ولاية أموى - هو عبدالله بن أبى السرح - . . وكان من هؤلاء من  
 هو أخو الخليفة لأمه ، ومن هو أخوه فى الرضاع! . . أى أن أكبر  
 وأخصب أقاليم الدولة - كل العراق . . وكل الشام . . وجميع  
 مصر - أصبح ولايتها أمويين؟! . .

وتشمخ قريش - والأمويون خاصة - حتى يقول والى الكوفة  
 سعيد بن العاص عن سواد العراق وأرضها الزراعية : «إن السواد  
 بستان لقريش وبنى أمية!» . . ويشير ذلك حفاظ أقوام . . وعندما  
 يلى الكوفة من بعده الوليد بن عقبة . . يقول شاعرها :

فررت من الوليد إلى سعيد	كأهل الحجر إذ فزعوا فباروا
يلينا من قريش كل عام	أمير يحدث أو مستشار
لنا نار تحرقنا فتخشى	وليس لهم ، ولا يخشون نار! . .

وأكثر من هذه التغيرات التى طرأت على جهاز الدولة وولايتها . .  
 فإن عثمان - الذى لم يكن فى حزم عمر ولا فى شدته - قد جعل  
 مروان بن الحكم كاتباً له ، فأصبحت بيده مقاليد إدارة الكثير من  
 شئون دولة الخلافة . . وزاد الطين بلة أن مروان بن الحكم هذا قد

أبرم أمورا أغضبت كثيرا من الناس دون استشارة الخليفة عثمان ،  
فحسب هذا التدبير على عثمان ! . .

● وكانت «الصوافى» - وهى الأملاك العامة لبيت مال المسلمين -  
التي استصفتها الدولة لنفسها ، بعد أن كانت مملوكة للملوك وأمراء  
وقادة البلاد التي فتحت - كانت هذه الصوافى مصدر ثراء لبيت المال  
الذى ينفق منها على مصارف الدولة وعطاء الرعية . .

فلما كان عهد عثمان ، اجتهد فى إقطاع كثير من «الصوافى» ،  
وأجزاء من سواد العراق ، ورأى المعارضون لمنهاجه أن خاصته  
وقرابته قد فازوا بنصيب الأسد من هذه الإقطاعات ! . .

● وكان عمر بن الخطاب قد عزم قبيل استشهاده - إن هو عاش  
إلى العام القادم على أن يسوى بين الناس فى العطاء ، بعد أن أدرك  
أن التمييز بينهم فى العطاء قد أحدث تفاوتاً اجتماعياً لم يكن  
مقصوداً . . وقال : «لو عشت من قابل لسويت بين الناس فى  
العطاء . . ولألحق آخر الناس بأولهم ، ولأجعلهم رجلاً واحداً»

فلما ولى عثمان لم ينفذ عزم عمر ، الأمر الذى زاد من تفاوت  
الناس فى الثراء ! . .

تلك بعض من التغيرات ، فى منهاج الحكم ، وفى تطبيقات هذا  
المنهاج ، التي حدثت على عهد عثمان بن عفان . . والتي كانت  
من بين أسباب الفتنة التي شهدتها سنوات حكمه الأخيرة . .

\*\*\*



والمؤرخون يختلفون . . هل هذه هي أسباب الفتنة؟ . . أم أن مؤامرة يهودية هي التي قادت الفتنة ، مستغلة هذه الأسباب؟؟ . . على أن الأمر المؤكد . . هو أن السنوات الأخيرة من عهد عثمان قد شهدت قلاقل كثيرة ، ارتفع فيها صوت المعارضة المناهجة في الحكم . . حتى لقد اشترك فيها الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري [٣٢ هـ ٦٥٢ م] وغيره من الصحابة . . وفيهم عدد من «المهاجرين الأولين» . .

وكان عثمان يستشير أمراءه وولاته في أمر هذه المعارضة . . فكانوا يشيرون عليه بالشدة التي لم تكن من طبعه ولا متفقة مع صلاحه وتقواه . .

فلما تصاعدت المعارضة . . تنادى زعماءها من مختلف البلاد . . فزحف الثوار باتجاه المدينة ، عاصمة الخلافة سنة ٣٥ هـ . .  
● خرج من الكوفة مائتا رجل ، بسلاحهم ، يقودهم مالك بن الحارث النخعي . .

● ومن البصرة مائة رجل ، بسلاحهم ، يقودهم حكيم بن جبلة العبدى . .

● ومن مصر ستمائة رجل ، بسلاحهم ، يقودهم عبد الرحمن ابن عديس البلوى . .

فالتقوا على مقربة من المدينة . . وأرسلوا رسلهم إلى الخليفة يخبرونه بين أمور ثلاثة :

١ - اعتزال الخلافة . . ليؤمروا خليفة جديدا . .

٢ - أو القصاص منه بكل رجل أصيب خطأ أو عمداً في القلاقل التي ثارت ضد ما أحدث من أحداث . .

٣ - أو أن يبعثوا إلى أنصارهم ليقدموا إليهم ، فيزحفون لاحتلال المدينة ، وتنفيذ ما يريدون . .

ولقد رفض عثمان مطالب الثوار . . ونهى أنصاره عن مقاتلتهم . . فلقد كان مؤمناً بأنه قد اجتهد فيما ينقمونه عليه ، ولم يقصد إلى جرم يستحق عليه القصاص . . ومنعته تقواه من أن يحمل أمام الله وزر التقاء المسلمين بسيوفهم للقتال والافتتال ، حتى ولو كان ذلك في سبيل الدفاع عنه ، كخليفة للمسلمين ، وواحد من أصفياء الرسول ، ﷺ . .

فكان أن زحف الثوار على المدينة ، فاقتحموها ، واحتلوها . . وحاصروا عثمان في منزله أربعين يوماً ، منعوا عنه فيها الزاد والماء!! . . ثم تسوروا عليه الدار فقتلوه ، شهيداً ، وهو يتلو كتاب الله! . .

وبذلك انفتح على المسلمين باب الفتنة منذ ذلك التاريخ <sup>(١)</sup>!



(١) مراجع:

[الإسلام والثورة] للدكتور محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨ م .

[الإسلام وفلسفة الحكم] للدكتور محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٨٩ م .

الغدير : هو القطعة - الجزء - من الماء التي يغادرها السيل .. وهو : مستنقع الماء - ماء المطر - صغيرا كان أو كبيرا .. غير أنه لا يبقى إلى الفيض وشدة الحر ، وإنما يجف . وجمع الغدير : غُدُر - بضم الغين والذال ..

وَحُمٌ - بضم الحاء - في الأصل بئر حفرها مرة بن كعب .. وغدير حُمٌ : مكانه على الطريق بين مكة والمدينة ، على بعد ثلاثة أميال من ميقات الإحرام «الجحفة» .. وعنده مسجد لرسول الله ، ﷺ ..

والسبب في شهرة هذا المكان - في الدراسات الكلامية الإسلامية - حتى لقد غدا عنوانا لكتاب بلغت مجلداته ستة عشر مجلدا؟! - هو ارتباطه - في فكر الشيعة عن نظرية الإمامة - بواقعة يؤولونها كي تكون دليلا شاهدا على مذهبهم في أن الإمامة هي بالنص من السماء والتعيين الإلهي ، وليست بالشورى والاختيار والبيعة .. وأنها قد نُصَّ عليها وتعيَّنت ، بعد الرسول ، ﷺ ، للإمام علي بن أبي طالب .. وأن الرسول قد أبلغ الناس ذلك ، وهو عائد من حجة الوداع سنة ١٠ هـ عندما خطبهم بما يفيد ذلك عند «غدير خم» ! ..

فمنذ بدأ التأليف في نظرية الإمامة أصبح حديث غدير خم

عنونا على واقعة من أشهر وقائع الخلاف بين الشيعة والسنة في هذا الموضوع ..

ورواة حديث الغدير يقولون إن رسول الله ، ﷺ ، أثناء عودته من مكة إلى المدينة ، بعد حجة الوداع ، توقف عند غدير خم ، فأمر بشجرات فكّسح له عنها ، وجمع الناس ، وقام فيهم خطيبا ، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فرفعها إلى السماء ، وقال : «من كنت مولاه فعلى مولاه» ..

وإذا كانت تلك هي الرواية الشائعة في عدد من مصادر كتب الحديث .. فإن الروايات التي انفردت بها الشيعة تصيف إلى هذا النص عبارات أخرى ، فنجد على هذا النحو : «ألست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا : بلى . قال : من كنت مولاه فعلى مولاه . اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» ..

ولقد جعلت الشيعة هذا الحديث عمدة أدلتها ، من السنة ، على «النص على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بالإمامة» ..

وقالوا إن هذا الحديث لرسول الله ، ﷺ ، هو التنفيذ لقول الله ، سبحانه وتعالى ، له في القرآن : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة : ٦٧]

فالذي أنزل هو النص على إمامة علي .. وبلاغه - في غدير خم - هو إبلاغ الرسالة ! :

كما يربطون بين حديث الغدير هذا وبين آية قرآنية أخرى ، هي ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ (٧) **وَالِى رِبِّكَ فَارْغَبْ** [الشرح : ٧] ويفسرونها بقولهم : « . . أى إذا فرغت فانصب علمك وأعلن وصيك ، فأعلمهم فضله علانية ! . . »

وحجة الشيعة على أن حديث الغدير إنما يعنى « الإمامة » ، هو تفسيرهم للفظ « مولى » على النحو الذى يجعله مفيداً لمعنى الإمامة والسلطة وتدبير شئون المسلمين وأمورهم . . فيقولون : إن لفظة « أولى » - فى مقدمة الحديث - « تفيد معنى الإمامة . . لأن الأولى هو من يملك تدبير ماوصف بأنه أولى به ويتصرفه . . والأولى بتدبير الخلق وأمورهم ونهيههم هو الإمام ، المفترضة طاعته عليهم . . »

تلك هى حجة الشيعة فى دلالة حديث الغدير على النص والتعيين فى إمامة على بن أبى طالب . . أما رد أهل السنة - بدءاً من المعتزلة الذين نهضوا بالرد على نظرية الإمامة الشيعية قبل الفرق الأخرى - فإنه لم يجادل كثيراً فى صحة الحديث - فهو قد ورد فى بعض مسانيد السنة الحديثية - وإنما دار الجدل حول تفسير الشيعة لمعنى الحديث . . وفى هذا المقام قدموا على تفسير الشيعة هذا عدداً من الملاحظات الانتقادية . . منها :

١ - إن لفظ « الولي » - بإجماع اللغويين . . هو من الألفاظ المشتركة المعنى . . فالموالاتة مشاركة ومفاعلة ، فإذا كان الإمام أولى بتدبير الرعية ، فهل الرعية أولى بتدبير الإمام . . وإذا كان تدبيره

لها يفرض طاعتها له ، فهل طاعته لها فرض عليه؟؟ . . خصوصا  
ومذهب الشيعة يجعل الإمام معصوما لا سلطان للأمة عليه . . بل  
إن له في رأيهم سلطة تكوينية حتى على ذرات الكون !! . .

٢ - إن لفظ « مولى » قد ورد في القرآن الكريم كثيرا بمعنى  
« الموالاة في الدين والنصرة فيه » - وهذا هو المعنى الذي تتم فيه المفاعلة  
والمشاركة - . . ﴿ ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [محمد : ١٠] .  
﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التحریم : ١] .  
﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة : ٧١] .  
فالمراد الموالاة ، بمعنى النصرة في الدين . .

٣ - إن حديث الغدير لو كان معناه تعيين على بن أبى طالب  
إماما ، لكان إماما في حياة الرسول ، ﷺ ، والشيعنة لا يجيزون  
إمامين في عصر واحد . . ولم يقولوا بعزل الرسول عن الإمامة عند  
يوم الغدير ! . . وليس لهم أن يقولوا : إن الحديث أثبت له  
« الاستحقاق » في الحال ، ولكن « التصرف » مؤجل إلى ما بعد وفاة  
الرسول - ولقد قال بعضهم بذلك - لأنهم يروون أن عمر بن  
الخطاب قد قال لعلى بن أبى طالب - بعد سماع حديث الغدير -  
« أصبحت مولاى ومولى كل مؤمن ومؤمنة ! » . .

فانقول بأن معنى « المولى » هو « الإمام » يوقع قائله في مأزق  
لا فكاك منه ! . .

٤ - إن روايات الشيعة للحديث اختلفت في نصه ، بالزيادة

والنقصان ، حتى لتقطع مقارنتها بمواكبتها لحجج المجادلين للشيعة  
فى تفسير هذا الحديث .. الأمر الذى يزكى شبهة الوضع فيه ! ..

٥ - أنهم يقولون إن جابر بن النضر بن الحارث بن كلدة  
العبدري .. بعد سماعه للحديث .. ولى ، معترضا ، وقال : اللهم  
إن كان مايقول محمد حقا فأمطر علينا حجارة من السماء أو اثنتا  
بعذاب أليم .. فرماه الله بحجر سقط على هامته وخرج من دبره  
فقتله ، وأنزل الله تعالى : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ  
لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) ﴾ [المعارج : ١ - ٣]

يقول الشيعة ذلك .. مع أن هذه الآيات مكية ، فى سورة مكية ،  
نزلت قبل الهجرة ، ولم تنزل بعد حادث وحديث غدير خم أوآخر  
سنة ١٠ هـ ؟ ! ..

ولقد سبق ووقعوا فى مأزق مشابه عندما ربطوا بين حديث  
الغدير وبين آية مكية هي ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ  
فَارْغَبْ ﴾ !! ..

٦ - ثم إن الإمام على بن أبى طالب يستخدم مصطلح «الولاية»  
بمعنى «النصرة» ، المقابلة «للعداوة» ، وليس بمعنى «الإمامة»  
و «الخلافة» و «السلطان» .. وذلك فى نصوص خطبه وحواراته  
التي جمعها الشيعة فى كتاب [نهج البلاغة] .. الأمر الذى يقطع  
بأن الموالاتة هي النصره فى الدين ، وليست الخلافة والإمامة لأمة  
الإسلام ..



وإذا كان القرآن الكريم يتحدث عن أن الله ولي الذين آمنوا . .  
 ويطلب من المؤمنين أن يكونوا [أولياء الله] لا [أولياء الشيطان] . .  
 فإن النصرة هي معنى هذا المصطلح . . ومن ثم فلا حجة للشيعة  
 في حديث الغدير ، الذي جعلوه قاعدة لنظريتهم في أن الإمامة إنما  
 هي بالنص والتعيين ، لا بالشورى والبيعة والاختيار<sup>(١)</sup> !



#### (١) مراجع :

- الغدير في الكتاب والسنة والأدب لعبد الحسين أحمد الأميني النجفي - طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م .
- [الإسلام وفلسفة الحكم] للدكتور / محمد عسارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٨٩ م .

التحكيم :- مَفَاعَلَةٌ - من الحُكْم .. والمُحَكَّم : هو الشيخ  
المجرب ، المنسوب ، إلى الحِكْمَةِ ، التي هي : العدل .

والتحكيم : إحدى وسائل الفصل فى المنازعات . وهو يرتكز على  
رضا أطراف النزاع وقبولهم الخضوع والالتزام بما يصدر فى موضوع  
التحكيم من حُكْم ..

والى التحكيم نسبت أولى الفرق فى تاريخ الإسلام .. وهى  
الخوارج - التى سميت ، أول أمرها ، بـ «المُحَكَّمَة» .. لرفضهم  
تحكيم البشر فيما حكم فيه القرآن .. وإعلانهم شعار : «لا حُكْم  
إلا لله!» ..

والى هذا التحكيم - الذى رفضوا نتائجه - يشير شاعرهم فيقول :

فكأنى وما أزين منها      قَعْدَى يُزَيِّن التحكيما !

- والقَعْدَى : هو القاعد عن الخروج - الثورة - ! ..

وعندما يذكر مصطلح «التحكيم» ، فى الفكر السياسى  
الإسلامى ، ينصرف المعنى إلى الأحداث التى انتهت .. والتى  
أعقبت ذلك التحكيم الذى كان بين المسلمين - أهل العراق ..  
بقيادة أمير المؤمنين على بن أبى طالب ٢٣١ ق . هـ - ٤٠ هـ -

٦٠٠ - ٦٦١ م] - وأهل الشام .. بقيادة واليها معاوية بن أبي سفيان [٢٠ ق . هـ - ٦٠ هـ ٦٠٣ - ٦٨٠ م] . والذي دارت أحداثه سنة ٣٧ هـ سنة ٦٥٧ م . .

فبعد مقتل عثمان بن عفان [٤٧ ق . هـ - ٣٥ هـ ٥٧٧ - ٦٥٦ م] أراد معاوية أن يتخذ لنفسه سبيلا إلى إمارة المؤمنين ، من باب أنه ولى دم الخليفة المقتول ظلما . . ولما كان قتلة عثمان قد انخرطوا فى جيش أمير المؤمنين على بن أبى طالب . . فللقدر رفض معاوية البيعة لعلى . . ودارت بينهما معارك تصاعدت عندما التقى جيشاهما فى صفين - ما بين أعالي العراق وبلاد الشام - حيث بدأت بينهما معركة من أطول وأشرس المعارك التى شهدتها تاريخ الإسلام والمسلمين ؟ ! . .

بدأت معركة صفين فى ٥ شوال سنة ٣٦ هـ - ٢٧ مارس سنة ٦٥٧ م - . . ودام القتال فيها على امتداد مائة يوم وعشرة أيام ؟ ! . . التحم الجيشان أثناءها فى تسعين موقعة ؟ ! . . قتل فيها من أهل الشام خمسة وأربعون ألفا . . ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفا ؟ ! . . أى سبعون ألفا من الصحابة والتابعين ؟ ؟ ! . .

فلما استشعر الناس ، من الفريقين ، خطر الفناء . . واستشعر معاوية وأهل الشام مخاطر الهزيمة . . رفع أصحاب معاوية - بقيادة عمرو بن العاص - المصاحف على أسنة رماحهم ، داعين إلى حقن الدماء ، وتحكيم القرآن ، لا السيوف ، فيما بين الفريقين من خلاف . . .

وكان الإمام على سعى الظن بما وراء دعوة أهل الشام إلى

التحكيم . . فلقد كان موقفنا بأنه على الحق . . وأن معاوية وحزبه هم الفئة الباغية ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اختلفتا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾ [الحجرات : ٩]

ومعاوية قد رفض الصلح والكف عن البغي . . أي رفض أن يدخل في البيعة لعلی ، كما دخل الناس . .

لكن مخاطر الفناء ، الذي هدد الفريقين ، قد جعل أشرف جيش علی ، وفي مقدمتهم « القراء » - الذين كانوا يومئذ بمثابة الفقهاء - يميلون إلى قبول تحكيم القرآن ، لا السيوف ، في الخلاف . . فاضطر الإمام علی إلى القبول ببدء التحكيم . .

وكتب الفريقان بذلك كتابا ، في يوم الأربعاء ١٧ صفر سنة ٣٧ هـ - ٤ أغسطس سنة ٦٥٧ م - . . واتفقا ، في هذا الكتاب ، علی أن يكون الممثل لأهل العراق هو أبو موسى الأشعري [٢١ ق . هـ ٤٤ هـ ٦٠٢ - ٦٦٥ م] - وكان قد اعتزل الفتنة - ولم يكن علی راضيا عن جعله الممثل لفريقه في التحكيم . . لنقص في دهائه ! - وكان يريد بدلا منه عبدالله بن عباس [٣ ق . هـ - ٦٨ هـ ٦١٩ - ٦٨٧ م] . . لكن أشرف قومه اضطرره إلى القبول بأبي موسى مندوبا عنهم في التحكيم ! . .

أما مندوب أهل الشام فكان عمرو بن العاص [٥٠ ق . هـ - ٤٣ هـ ٥٧٤ - ٦٦٤ م] - وهو أحد المشهورين بالسياسة والدهاء ! . .

واتفق الفريقان ، في كتاب التحكيم ، المنظم لقواعده ، على إعطاء الحكّمين مهلة ثمانية أشهر ، أى إلى نهاية رمضان ، ويمكن تمديدّها إلى نهاية موسم الحج - شهر ذى الحجة - فإن لم ينتهيا إلى حكم في هذه المدة عاد الفريقان إلى القتال ! ..

واجتمع الحكّمان في دومة الجندل - حصن بين دمشق والمدينة - .. وانتهت مداولاتهما إلى اتفاقهما - كما يقول أغلب المؤرخين - على أن يخلع كل منهما صاحبه ، ليعود أمر الخلافة شورى بين المسلمين .. فلما كانت لحظة إعلان الحكم قدم عمرو ابن العاص أبا موسى - بحجة سنه وفضله - فأعلن خلع على .. وتلاه عمرو فأعلن تصديقه على خلع على ، ولكنه أردف إعلان تثبيت معاوية في إمارة المؤمنين ؟ ! ..

ولقد اضطرب أمر الناس ..

● فندم على التحكيم من سبق ودعا إليه ، وخاصة « القراء » .. الذين تابوا من ذنبهم ، ورفضوا نتيجته .. وأعلنوا أن تحكيم الرجال فيما حكم فيه القرآن كبيرة يؤدى الإصرار عليها إلى الكفر ، وصاحوا : « لا حكم إلا لله ! » .. ولما لم يستجب على لمذهبهم ، حكموا بكفره ؟ ! .. واجتمعوا على رجل منهم هو عبدالله بن وهب الراسبي [ ٣٨ هـ ٦٥٨ م ] فاختروه أميراً للمؤمنين ! ..

فكان الانشقاق في حزب على .. وقيام فرقة « المحكّمة » - الخوارج - أول الثمرات المرة للتحكيم ، على جبهة أهل العراق .. وزاد هذه الثمرة مرارة ، بدء القتال بين أنصار على وبين الخوارج ، بعد أن كان القتال قائما بينهم وبين أهل الشام ! ..

● ولم يقف الخطأ في قرار التحكيم عند حد التسوية - في اقتراح العزل - بين الخليفة الذي بايعه أغلب الناس ، وبين الوالي المتمرد على الخليفة الشرعي ، والذي عزله الخليفة - لم يقف الخطأ عند هذا الحد . . بل لقد أعلن عزل الخليفة الشرعي . . وأعلن تثبيت الوالي المعزول أميراً للمؤمنين !! . .

وبصرف النظر عن الحق والباطل في مبدأ التحكيم . . ومداولاته . . وما أعلنه الحكمان . . فإن الأمر الذي تحقق هو انشقاق أنصار علي ، واشتعال الحرب الداخلية في صفوفهم . . على حين عاد معاوية وجيشه إلى الشام أكثر وحدة ، بل لقد حقق به كثيرون من غيرت موازين القوى ولاءاتهم ! . . ودخل أهل الشام فسلموا على معاوية بإمرة المؤمنين ؟ ! . .

● كذلك أثمرت أحداث هذا التحكيم «شبهة الشرعية» لخلافة معاوية على الأمة . . وهي الشبهة التي غدت واقعا أقره الناس ، أو استسلموا له ، عندما استشهد الإمام علي في ١٥ رمضان سنة ٤٠ هـ - ٢٢ يناير سنة ٦٦١ م - . . ثم اكتسبت «كامل الشرعية» بعد ستة أشهر ، عندما تنازل الحسن بن علي [ ٣ - ٥٠ هـ - ٦٢٤ - ٦٧٠ م ] عن إمارة المؤمنين لمعاوية بن أبي سفيان <sup>(١)</sup> ! . .

(١) مراجع :

[تاريخ الطبري] ج ٤ ، ص ٥ - بتحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم - طبعة دار المعارف - القاهرة  
[وقعة صفين] لنصر بن مزاحم المنفري - بتحقيق : الأستاذ عبد السلام هارون -  
طبعة القاهرة سنة ١٣٨٢ هـ .  
- [الإسلام وفلسفة الحكم] للدكتور محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٨٩ م .

مصطلح «الدَّهْر» - في أصل وضعه ، وعند اللغويين يعنى : الآن الدائم ، والأمد الممدود ، والزمان الطويل . . . ولأن من معانيه : الزمان الطويل قال بعضهم : إن بينه وبين مصطلح «الزمان» اشتراكا ، فهما واحد فى معنى دون معنى ، فالمدة المديدة يقال لها : «دهر» و «زمان» ، على حين أن الآن الدائم هو «دهر» فقط ، أما المدة غير الطويلة فهى «زمان» فقط . . . والذين قالوا بهذا الاشتراك منهم من يرى فى الألف سنة «دهرا» ، بينما «الزمان» يطلق على الشهرين إلى ستة أشهر .

ومن اللغويين من قال إن «الدَّهْر» هو «الزمان» ، واستشهد بقول الشاعر :

إن دهرًا يلفَّ حَبْلِي بِجُمْلٍ      لزمانٍ يهْمُ بالإحسان

وعند هؤلاء أن حديث الرسول ، ﷺ : «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا ، أربعة منها حرم ، ثلاثة منها متواليات : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الفرد . . . شاهد على أن الزمان والدَّهْر سواء .

و «الدَّهْر» ، أيضا ، يعنى : النازلة والكارثة الشديدة . . . ولقد تحدث النبى ، ﷺ ، عن عام الحزن الذى ألم به ، عندما ماتت



زوجه خديجة وعمه أبو طالب ، فقال : «لولا أن قريشا تقول : دَهْرُهُ  
الجزع لفعلت . . .» ومن ذلك قولهم : دَهَرَ فلانا أمرًا ، إذا أصابه  
المكروه الشديد .

ويستخدم «الدهر» بمعنى : الهم ، أى الغاية ، وبمعنى : العادة . .  
كما فى قول الشاعر :

لعمرى وما دهرى بتأبين هالك      ولا جزعا بما أصاب فأوجعا  
وبهذه المعانى استخدم المصطلح فى القرآن الكريم ، وفى الحديث  
النبوى . . وفى القرآن حديث عن «الدهرية» الذين قالوا ﴿ ما هي  
إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ [الحجاثية :  
٢٠] وفيه ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا  
مذكورا ﴾ (١) [الإنسان : ١٠] . وفى الحديث النبوى يتحدث  
الرسول ﷺ عن الزوجات اللاتى يكفرن العشير والإحسان ،  
فيقول : «لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ، ثم رأيت منك شيئا  
قالت : ما رأيت منك خيرا قط!» (٢) . . . وفى حديث آخر يتحدث  
عن سبق حواء بنات جنسها إلى الخطيئة فيقول : «لولا حواء لم  
تخن أنتى زوجها الدهر!» (٣) . . . ثم يأتى فى الحديث الذى يرويه  
عبدالله بن عمرو بن العاص «الدهر» بمعنى «الأبد» . . يقول  
الراوى : «كنت أصوم الدهر . . فقال لى الرسول : ألم أخبر أنك  
تصوم الدهر؟! . . صم صوم داود نبي الله . . . كان يصوم يوما  
ويفطر يوما . . . لا صام من صام الأبد» (٤) . . .

.. وفى حديث أبى ذر الغفارى أن النبى قال : «من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام الدهر كله»<sup>(٤)</sup> .



وعند المتكلمين المسلمين نجد التمييز بين «الدهر» وبين «الزمان» ، فعلى حين يقع «الزمان» على المدة القليلة والكثيرة ، نجد «الدهر» دالا على «مدة العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه ، ومدة الحياة» ..

وواضح من هذا التعريف ، الذى أورده أبو البقاء [١٠٩٥ هـ - ١٦٨٤م] فى [الكليات] ، أن «الدهر» لا يشمل ما بعد انقضاء هذا العالم ، وما بعد مدة الحياة .. لكن تعريف الجرجانى [٧٤٠ - ٨١٦ هـ - ١٣٤٠ - ١٤١٣م] له ينبئ بشموله ذلك ، فهو : «الآن الدائم» ، أى ليس «الممدود» فقط ، وإنما «الدائم» ، وكما أن «الدائم» هو اسم من أسماء الذات الإلهية ، فإن الجرجانى يمضى فى التعريف موضحا فيقول : «الآن الدائم» ، الذى هو امتداد الحضرة الإلهية ! ، وهو : باطن الزمان ، وبه يتحدد الأزلى والأبدى ! .

فهو ، إذن ، «دائم» و «خالد» ، وهو ليس «الزمان» ولا «الوقت» : المتحدد ، المعلوم ، المحدود بين فعلين وحركتين ، وإنما هو «باطن الزمان» ، وماضيه البعيد هو الأزلى ، ومستقبله البعيد هو : الأبد !  
وإذا شئنا شاهدا من اللغة على هذا المعنى الذى حدده الجرجانى وجدناه عند الشاعر جرير .. فعندما قال له الفرزدق :  
فإنى أنا الموت الذى نازل      بنفسك فانظر كيف أنت تحاوله

أجابه جرير :

أنا الدهر ، يفنى الموت والدهر خالد فجننى بمثل الدهر شيئا تطاوله!  
فجعل «الدهر» شاملا للعالم والآخره ! ..

ولعل هذا المعنى ، الذى يجعل من «الدهر» امتداد الحضرة  
الإلهية هو الذى جعل الرسول ﷺ ، ينهى عن سب «الدهر» ،  
لأن الدهر هو «الله» ! .. ففى حديث أبى هريرة يقول الرسول فيما  
يرويه عن ربه : «يؤذنى ابن آدم ، يسب الدهر ، وأنا الدهر ، بيدى  
الأمر ، أقلب الليل والنهار»<sup>(٥)</sup> . . وعن أبى هريرة : أيضا ، يقول  
الرسول : «لا تقولوا خيبة الدهر ، فإن الله هو الدهر !»<sup>(٦)</sup> .

والبعض يعلل النهى عن سب الدهر ، بأن الناس كانوا يضيفون  
النوازل إلى الدهر ، ولذلك سبوه ، فأراد الرسول ﷺ ، أن يعلمهم  
أن الفاعل لهذه النوازل هو الله ، فمن سب الدهر ، على أنه الفاعل  
لها ، فكأنما قد سب الله ! . . لكن . . يبقى هذا التفسير مقبولا ،  
فقط ، على مذهب الجبرية . . ومن ثم تبقى هذه الأحاديث ذات  
معنى أعمق فى ضوء تعريف الجرجاني للدهر بأنه : «الآن الدائم  
الذى هو امتداد الحضرة الإلهية» . .

ويؤكد هذا المعنى ويدعمه أن الاتفاق قائم على أن «الحق» هو  
الله ، وهو من أسمائه . . ثم إننا واجدون حديثا نبويا يسمى  
«الدهر» «بالحق» . . ففى حديث بدء الوحي بغار حراء ، يتحدث  
الرسول إلى زوجته خديجة عن مخاوفه من أن يكون به جنون ،  
وعن إشفاقه على نفسه أن يصيبها بلاء ، فتطمئنه قائلة : «أبشر ،  
فوالله لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصدق الحديث ، وتصل الرحم ،

وتحمل الكلّ ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ...<sup>(٣)</sup> أى :  
«وتعين على نوائب الدهر» .. «فالدهر» «الدائم» هو «الحق» هو  
«امتداد الحضرة الإلهية» ، كما يقول الجرجاني فى [التعريفات] ! . .



أما عندما يكون «الدهر» هو «الزمان» الطويل والأمد الممدود ، فإنه -  
وهو الذى لا وجود له فى الخارج - يكون عبارة عن «مقارنة حادّث  
لحادّث» ، وحتى هذه المقارنة هى أصل اعتبارى عدى ، فتحدّده  
موقوف على الحوادث والحركات . . وتحديد المتكلمين المسلمين للزمان -  
[الدهر] - بمقارنة الحوادث والحركات ، متفق مع قول الحكماء القدماء  
بأنه مقدار حركة الفلك . . وإذا كان «الزمان» موهوماً ، لا وجود له فى  
الخارج ، فإنه يتحدّد بمقارنة الحركة ، التى هى موجود معلوم متجدّد ،  
وهذا المعنى هو الذى يقول فيه الجرجانى إن الزمان - عند المتكلمين -  
هو «عبارة عن متجدّد معلوم يقدر به متجدّد موهوم ، كما يقال : أتيتك  
عند طلوع الشمس ، فإن طلوع الشمس معلوم ، ومجيئه موهوم ، فإذا  
قرن ذلك الموهوم بذلك المعلوم زال الإبهام . . . فطلوع الشمس -  
كحدّث وحركة - معلوم ، له وجود خارجى . . أما زمان الجيء فهو موهوم ،  
لا وجود له فى الخارج ، لكن الاقتران هو السبيل للتحديد وزوال  
الإبهام . . وهذا هو المعنى الذى ذهب إليه الإمام المعتزلى أبو الهذيل  
العلاف [ ١٣٥ - ٢٣٥ هـ ٧٥٣ - ٨٥٠ م ] والذى يرويه عنه الأشعرى  
[ ٢٦٠ - ٣٢٤ هـ ٨٧٤ - ٩٣٦ م ] فى [مقالات الإسلاميين] ، فلقد  
عرف الوقت بأنه «هو الفرق بين الأعمال ، وهو مدى ما بين عمل إلى  
عمل ، وهو يحدث مع كل وقت فعل<sup>(٨)</sup>» . . وهو نفس المعنى الذى

اختاره التفتازانى [٧١٢ - ٧٩٣ هـ ١٣١٢ - ١٣٩٠ م] عندما قال عن الزمان إنه «عبارة عن متجدد يقدر به متجدد آخر»<sup>(٩)</sup>.



والنسبة إلى «الدهر» : دهري ، للفرد المذكر ، «دهرية» للمرأة ، أو للجماعة والتيار الفكرى . . فيقال : رجل دهري ، إذا كان مسنا طاعنا فى العمر . . وفى حديث عمرو بن سلمة : « . . . تقول عجوز لنا دهرية . . . »<sup>(١٠)</sup> . . . والرجل الدهرى هو : الملحد ، الذى لا يؤمن بالآخرة ، لقوله ببقاء الدهر وجحده وجود الصانع المدبر العالم القادر ، وقوله بأن العالم لم يزل موجودا كذلك بنفسه ، لا بصانع مدبر ، وكذلك الحيوان قد جاء من نطفة ، والنطفة من حيوان . كذلك كان وكذلك يكون أبدا ، وليس هناك شىء خارج الطبيعة ، فهى مستكفية بنفسها ، مستغنية عن خالق يوجدها ، والحياة الخلقية ما هى إلا الامتداد للحياة البيولوجية ! . وباختصار ، [قالوا : ماهى إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر] ! .

(١١) الهوامش :

- (١) رواه البخارى ومسلم والنسائى والإمام مالك فى الموطأ .
- (٢) رواه البخارى ومسلم .
- (٣) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه والداريمى والإمام أحمد .
- (٤) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه والإمام أحمد .
- (٥) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والإمام أحمد .
- (٦) رواه البخارى ومسلم والإمام مالك فى الموطأ والإمام أحمد .
- (٧) رواه البخارى ومسلم والإمام أحمد .
- (٨) [مقالات الإسلاميين] ج ٢ ص ١٣٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩ م .
- (٩) [شرح العقائد التسفية] ص ٢٤٦ طبعة القاهرة سنة ١٣٣٢ هـ .
- (١٠) رواه الإمام أحمد .

علم الكلام : هو العلم الذي يُقْتَدَرُ معه على إثبات الحقائق الدينية ، بإيراد الحجج عليها ، ودفع الشبه عنها .

ومن أسمائه الأخرى : علم التوحيد والصفات .. وعلم أصول الدين .. وعلم النظر والاستدلال .. والفقه الأكبر - وهي تسمية الإمام أبي حنيفة النعمان [ ٨٠ - ١٥٠ هـ ٦٩٩ - ٧٦٧ م ] له ..

وعلم الكلام ، في تصنيف العلوم الإسلامية ، هو أشرف العلوم ، لشرف موضوعه على موضوعات العلوم الأخرى .. فموضوعه : ذات الله ، سبحانه وتعالى ، وصفاته - التي يجب إثباتها له .. والتي يجب نفيها عنه - .. والنبوات والرسالات ، المعجزات المثبتة لها ، والصفات اللائقة بأهلها .. ما يجب أن يكونوا عليه ، وما يجوز أن ينسب إليهم ، وما يمتنع أن يلحق بهم .. وأفعال الله ، سبحانه وتعالى .. وأفعال العباد .. وأحوال المعاد ، من البعث والحساب والجزاء ..

وفي هذا العلم تتمثل فلسفة الإسلام .. لأنه هو الذي يتم به إثبات الحقائق الدينية بالحجج العقلية ، فهو قائم على الدليل العقلي ، في أصوله وقضاياه الكبرى .. وبه يرتقى الإنسان من حضن التقليد إلى ذروة اليقين العقلي في أصول الدين .. إنه فلسفة المسلم ، التي تحدد نظرتة للكون ، والحياة ، ومعنى الحياة ؟ ! ..

وهو بمثابة «منطق» العقيدة الإسلامية ، لأن فيه سبيل الاستدلال على أصولها ، كما أن في «المنطق» مسائل الحجة في علوم أهل النظر . .

أما سبب تسميته بعلم أصول الدين ، فلأن موضوعاته هي الأساس الذي تبنى عليه سائر علوم الإسلام . . فإذا ثبت بالحجة العقلية وجود إله واحد صانع قادر عالم ، مرسل للرسل ، منزل للكتب ، كان هناك مجال لبناء ووجود علوم للتفسير ، والحديث وأصوله ، والفقه وأصوله ، الخ . . الخ . . فجميع العلوم الإسلامية متوقفة على هذا العلم . . علم أصول الدين . .

ولقد سمي علم التوحيد ، لما للتوحيد من مركزية في عقائد الإسلام . . وسمى بالفقه الأكبر ، لمقابلته لفقه الفروع ، الذي هو علم الشرعيات - أو الشرائع - أي علم الأحكام الفرعية - أي العملية - . . بينما الفقه الأكبر هو علم الأحكام الأصلية ، أي الاعتقادية . .

أما تسميته بعلم النظر والاستدلال ، فلأن أدوات إثباته للحقائق الدينية هي النظر والاستدلال بالعقل أو بالعقل والشرع معا . .

وهناك خلاف في سبب تسميته بـ «علم الكلام» . . هل بسبب الجدل الذي دار حول «كلام الله» ، سبحانه وتعالى - وهو من مباحثه - أقدم هو ؟ أم مخلوق ؟؟ . . أم لأن مبنى هذا العلم قائم على الدليل العقلي ، وأثره يظهر من كل «متكلم في كلامه» ؟؟ . . أم لشبهه بالمنطق - في الفكر اليوناني - كأداة لتنبيه مسائل



الحجة - ثم عدل عن مصطلح «المنطق» إلى مصطلح «الكلام»  
 للتمييز بينهما؟؟ .. أم لأنه يورث المشتغل به القدرة على «الكلام»  
 في الشرعيات؟؟ .. أم لأن أبوابه قد عنونت بـ : «الكلام في  
 كذا... الكلام في كذا...؟؟» ...

لقد اختلف العلماء هذا الاختلاف في سبب اشتهار هذا العلم  
 بـ «علم الكلام» ! .. ونحن إذا نظرنا في النشأة المتدرجة لمباحث  
 هذا العلم ، نجد أن أولى مسائله ، التي أحدث العلماء «الكلام»  
 فيها ، كانت مسألة «صفة القدر» ، ومباحث العدل الإلهي ، وأفعال  
 الله وأفعال العباد ، والحرية .. والجبر .. والتخيير .. والتسيير ..  
 فبعد التحولات التي طرأت على الحياة السياسية والدستورية  
 الإسلامية ، بسبب الانقلاب الأموي ، نشأت أفكار الجبر والحرية  
 وأفكار الإرجاء ، التي ترجع كل ذلك إلى إرادة الله وفعله ..  
 فكانت النشأة الأولى لفكر ومذهب الحرية والاختيار .. وظهر  
 وشاع «الكلام» في «صفة القدر» ! ..

وإن أقدم النصوص التي بقيت لنا من النصف الثاني للقرن  
 الهجري الأول ، حول هذه القضية ، وهو نص الرسائل المتبادلة  
 بين الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٢٦ - ٨٦ هـ ٦٤٦ -  
 ٧٠٥ م) وبين إمام ذلك العصر ، ورأس علماء علم الكلام  
 الإسلامي ، الحسن البصري (٢١ - ١١٠ هـ ٦٤٢ - ٧٢٨ م)  
 ترجع أن بداية «الكلام» إنما كان في «صفة القدر» - قبل  
 «الكلام» في خلق القرآن ، وحدثه وقدمه بأكثر من قرن! ..  
 وعبارة الحسن البصري - في رسالته الجوابية - على عبد الملك

ابن مروان ، يقول فيها : « .. وإنما أحدثنا الكلام فيه - [صفة  
 القدر] - من حيث أحدث الناس النكرة له! .. » .. وكان عبد  
 الملك بن مروان قد كتب إليه مستنكراً لإحداث «الكلام» في هذا  
 الأمر ، قائلاً : « .. ولا نعلم أحداً تكلم به ممن أدركنا من  
 الصحابة! .. »

فهل سمي هذا العلم بهذا الاسم - علم الكلام - «لحدوث  
 الكلام» - يومئذ - في أولى مسأله .. «صفة القدر»؟! .. ولأن  
 «المتكلمين» كانوا هم العلماء الذين أحدثوا «الكلام» في هذه  
 المباحث ، التي غدت أبواباً ومباحث لهذا العلم ؟! ..  
 إنه احتمال يضاف إلى ما سبق إيراده من الاحتمالات ! ..



ولما كان علم الكلام هو علم أصول الدين ، ولما كانت مباحثه هي  
 أمهات العقائد وأركان الاعتقاد ، فلقد جعل الشيعة - على  
 اختلاف فصائلهم - مبحث الإمامة من مباحث علم الكلام ..  
 لأنها - الإمامة - عندهم من أصول الدين وأمهات عقائده .. فلما  
 صنف أهل السنة - منذ النشأة الأولى لتسيار «أهل العدل  
 والتوحيد» - في الرد على مذهب الشيعة في الإمامة - جاروهم في  
 شكل «التصنيف» ، فوضعوا مبحث الإمامة في نهاية كتب علم  
 الكلام - الفقه الأكبر - ولا أبواب مباحث فقه الفروع ؟! .. مع  
 تنبيههم على أن الإمامة والسياسة والدولة والخلافة ليست من  
 العقائد والأصول ، وإنما هي من الفروع .. فمكانها الطبيعي في

«التصنيف» هو فقه الفروع ، وأنهم إنما وضعوها فى نهايات كتب الأصول ، مجرد مجازاة الشيعة ، الذين سبقوا إلى التصنيف فيها . . . وبعبارة الإمام الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ - ١١١١ م) : « . . . فإن نظرية الإمامة ليست من المهمات ، وليست من فن المعقولات فيها ، بل من الفقهيات . . . والنظريات قسمان : قسم يتعلق بأصول القواعد . . . وقسم يتعلق بالفروع . . . وأصول الإيمان ثلاثة : الإيمان بالله ، وبرسله ، وباليوم الآخر ، وما عداها فروع . . . والخطأ فى أصل الإمامة وتعينها وشروطها وما يتعلق بها - [ أى فى جماع الدولة والسياسة ] - لا يوجب شىء منه التكفير . . . ولكن ، إذ جرى الرسم باختتام المعتقدات بها - [ الإمامة ] - أردنا أن نسلك المنهج المعتاد ، فإن القلوب عن التحالف للمألوف شديدة النفار ! »

فلما جاء الماوردى (٣٦٤ - ٤٥٠ هـ ٩٧٤ - ١٠٥٨ م) أحدث جديدا فى فن «التصنيف» فأفرد للولايات السلطانية التأليف الخاصة بها . . . ووجدنا ابن رشد (٥٢٠ - ٥٩٥ هـ ١١٢٦ - ١١٩٨ م) يسلك ذات السبيل ، فلا يضع الإمامة فى كتابه [مناهج الأدلة فى عقائد الملة] . . . بل ولا فى كتابه عن فقه الفروع [بداية المجتهد ونهاية المقتصد] اكتفاء بما أفرد للسياسة خلال شروحه على فلسفة اليونان . تلك هى ملايسات علاقة المباحث السياسية بمباحث علم الكلام<sup>(١)</sup> . . .

(١) مراجع :

[رسائل العدل والتوحيد] تحقيق دكتور محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٨٧ م .

[مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم] لطايش كبرى زادى طبعة القاهرة . دار الكتب الحديثة .

مصطلح «العلمانية» ، هو الترجمة التي شاعت ، بمصر والمشرق العربي ، للكلمة الإنجليزية Secul Arism بمعنى الدنيوى ، والواقعى ، والعالمى . . ذلك لأن العلمانية هى نزعة فلسفية وفكرية وسياسة واجتماعية ترى العالم مكتفيا بذاته ، تدبره الأسباب الذاتية المودعة فيه . . فالعالم والواقع والدنيا هى مرجعية التدبير للاجتماع الإنسانى والدولة والحياة ، ومن ثم فإن الاجتماع والحياة والدولة ليست فى حاجة إلى مدير من خارج هذا العالم ومن وراء هذه الطبيعة . . والإنسان مكتف بذاته ، يدبر شئونه ويبدع قيمه ونظمه بواسطة العقل والتجربة ، وليس فى حاجة إلى شريعة سماوية تحكم هذا التدبير . .

فالعلمانية - لذلك - تُضبط بفتح العين ، لأنها نسبة إلى العالم ، أى الدنيا والواقع الدنيوى ، فهى مصدر غير قياسى ، إذ القياس فيها هو «العلمانية» - نسبة إلى العالم - وهناك فى المغرب العربى من يترجمها «بالدنيوية» .

ولقد نشأت العلمانية - بأوروبا - فى سياق النهضة الحديثة ، وكانت من أبرز معالم فلسفة التنوير الوضعى الغربى ، التى جابه بها فلاسفة عصر الأنوار - فى القرنين السابع عشر والثامن عشر - سلطة الكنيسة الكاثوليكية ، بعد أن تجاوزت هذه الكنيسة الحدود

التي رسمتها لها النصرانية ، وهي خلاص الروح ، وملكه السماء ، وترك مالفيسر لقيصر ، والاقتصار على ماله . . لقد تجاوزت الكنيسة حدود رسالتها واختصاصاتها ، فبعد عصور من سيادة نظرية «السيفين» Theory of the Two Swords أى السيف الروحي - أو السلطة الدينية للكنيسة - والسيف الزماني - أى السلطة المدنية للدولة - جمعت الكنيسة السلطتين معا ، فضمت ما لقيصر إلى ما للكنيسة واللاهوت ، في ظل نظرية «السيف الواحد» Theory of one Sword .

وتحت حكم «البابوات - الأباطرة» ، أضفت الكنيسة قداسة الدين وثباته على المتغيرات الدنيوية والاجتماعية أفكارا وعلوما ونظما - فرفضت وحسرت وحسرت كل مالا وجود له في الأناجيل ، وبذلك دخلت أوروبا عصورها المظلمة ، الأمر الذي استنفر رد الفعل العلماني ، الذي حرر الدنيا من كل علاقة لها بالدين . . ففي مواجهة الكهنوت الكنسي الذي قدس الدنيا وثبتها ، وجعل اللاهوت النصراني - وهو خيال من الفلسفات المنظمة للدولة والاجتماع - المرجع الوحيد للسياسة والعلم والدولة والاجتماع - في مواجهة هذا الفعل ، جاء رد الفعل العلماني لينزع كل قداسة عن كل شئون الدنيا ، وليحرر العالم من سلطان الدين ، وليعزل السماء عن الأرض ، جاعلا العالم مكتفيا بذاته ، والإنسان مكتفيا بذاته ، والاجتماع والدولة والنظم والفلسفات محكومة بالعقل والتجربة ، دونما تدخل من الدين .

ولقد ساعدت الملابس التي نشأت فيها العلمانية ، وكذلك

الموارث الدينية والفلسفية الغربية على هزيمة الكنيسة وتراجع اللاهوت النصراني أمام النزعة العلمانية . .

فلقد كان التخلف الأوربي شاهدا على فشل الحكم الكنسي الكهنوتي . . وكان موقف النصرانية ، الذي يدع مالفيسر لقيصر ، ويقف بالكنيسة ولاهوتها عند خلاص الروح ومملكة السماء ، سلاحا بيد العلمانية ضد اغتصاب الكنيسة للمسلطة الزمنية . . وكانت الفلسفة اليونانية - وخاصة عند أرسطو [٣٨٤ - ٣٢٢ ق م] - والتي رأت الذات الإلهية مجرد خالق ومحرك أول للكون ، ترك تدبيره ورعايته للأسباب المادية المودعة فيه - أى أن العالم مكتف بتدبير ذاته ، لا يحتاج إلى مدبر مفارق له - . . كانت هذه الملابس الواقعية والموارث الدينية والفلسفية - فى أوروبا - عوناً لانتصار العلمانية على الكنيسة وسلطانها . .

ولقد تميز ، فى إطار فلاسفة العلمانية الأوربية ، تياران :

تيار مادى ملحد ، طمح إلى تحرير الحياة - كل الحياة - من الإيمان الدينى . . وكانت الماركسية أبرز إفرازات هذا التيار . . أما التيار الثانى ، فهو مؤمن بوجود خالق للكون والإنسان ، لكنه يقف بنطاق عمل هذا الخالق عند مجرد الخلق ، فيحرر الدولة والسياسة والاجتماع من سلطان الدين ، مع بقاء الإيمان الدينى علاقة خاصة وفردية بين الإنسان وبين الله . . ومن فلاسفة هذا التيار هوبز Hobbes [١٥٨٨ - ١٦٧٩ م] ولوك Loke [١٦٣٢ - ١٧١٦ م]

وليبينز Leibniz [١٦٤٦ - ١٧١٦م] وروسو Rousseau [١٧١٢ - ١٧٧٨م] وليسينج Lessing [١٧٢٩ - ١٨٧١م] . .

\*\*\*

ولقد ظلت العلمانية خصوصية غربية حتى القرن التاسع عشر ،  
عندما جاءت إلى بلادنا الإسلامية فى ركاب النفوذ الأجنبى  
والاستعمار الغربى الحديث . . وإذا كانت مصر - بحكم الموقع . .  
والسبق فى التطور . . والاستقلال النسبى عن السلطان العثمانى  
منذ ولاية محمد على باشا [١١٨٤ - ١٢٦٥ هـ ١٧٧٠ - ١٨٤٩م]  
عليها سنة ١٨٠٥م - قد مثلت طليعة الأقاليم الشرقية فى التأثير  
بالفكر الأوروبى - ومنه العلمانية - فلقد كان وفود العلمانية إليها  
نموذجاً لتسللها من أوروبا إلى بلاد الشرق الإسلامى فى ركاب  
النفوذ الأجنبى والاستعمار الحديث . .

فبعد تحطيم النظام الحمائى - للصناعة والتجارة - الذى أقامه  
محمد على باشا فى مصر زاد نفوذ التجار الأجانب ، ونشأت على  
عهد الخديوى سعيد ، فى سنة ١٢٧٢ هـ - ١٨٥٥ م - أول  
محكمة تجارية مختلطة - بين المصريين والأجانب - «مجلس تجار»  
- تسلل إليها القانون الوضعى الفرنسى .

ومع تزايد أعداد الجاليات الأجنبية ونفوذها - وخاصة بعد عقد  
اتفاقية حفر قناة السويس - نشأت «المحاكم القنصلية» لتقضى فى  
المنازعات الناشئة بين المصريين وبين الأجانب ، وقضااتها أجانب ،  
ولغتها أجنبية ، وقانونها وضعى علمانى . .

ولما زادت فوضى «القضاء القنصلى» - الذى توزعته سبع عشرة



محكمة قنصلية - نُظمت هذه الفوضى سنة ١٨٧٥ م بإنشاء «المحاكم المختلطة» - وقضااتها أجنبية ، ولغتها فرنسية ، وشريعتها هي قانون نابليون . .

وبعد أن كان هذا الاختراق - في المحاكم القنصلية . . ثم المختلطة - مقصورا على المنازعات التي يكون أحد طرفيها أجنبيا حدث تعميم ليلوى هذا الاختراق العلماني في كل «القضاء الأهلي» - أى فيما عدا المحاكم الشرعية ، التي انحصر اختصاصها في شؤون الأسرة والأحوال الشخصية - وكان ذلك عقب استعمار الإنجليز لمصر ، فيما سمي «بالإصلاح القضائي» سنة ١٨٨٣ م .

ولقد استعان الغرب الاستعماري بنفر من أبناء الأقلية المارونية ، الذين تربوا في مدارس الإرساليات التنصيرية بلبنان ، في الدعوة إلى نموذج الحضاري العلماني . . فكان فرح أنطون (١٢٩١ - ١٣٤٠ هـ ١٨٧٤ - ١٩٢٢ م) أول دعاة العلمانية في بلادنا . . ثم تخلق للعلمانية تيار فكري بلغ ذروته في كتاب الشيخ علي عبد الرازق (١٣٠٥ - ١٣٨٦ هـ ١٨٨٧ - ١٩٦٦ م) عن [الإسلام وأصول الحكم] - الذي صدر سنة ١٩٢٥ م - مصورا الإسلام - كالنصرانية - دينا لا دولة ، ورسالة لا حكما ، يدع مالمقيصر لمقيصر وما لله لله . .

وفي مواجهة هذا التسلل العلماني إلى بلادنا ، كانت مقاومة تيار الإحياء والتجديد الديني لعلمة القانون والنهضة . . فلقد رأى هذا التيار الإحيائي التجديدي في العلمانية عدوانا على شمولية المنهاج الإسلامي - لأنه دين ودولة ، وجامع بين مالمقيصر وماله . .

ولأن نطاق عمل الذات الإلهية - فى التصور الإسلامى - لا يقف عند مجرد الخلق ، وإنما هو - سبحانه وتعالى - خالق ومدبر للعالم والاجتماع بواسطة الشرائع والرسالات ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ [الأعراف : ٥٤] ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة : ٢١٧] لا شريك له ﴿ [الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣] .

فكان رفاعة رافع الطهطاوى [١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ - ١٨٠١ - ١٨٧٣م] أول من انتقد تسلي القانون التجارى لنابليون إلى المجالس التجارية فى الموانئ التجارية ، ودعا إلى تقنين فقه المعاملات الإسلامى «الوافى بتنظيم المنافع العمومية ، لأن بحر الشريعة الغراء لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها .»

ونهض القانونى البارز محمد قدرى باشا [١٢٣٧ - ١٣٠٦ هـ - ١٨٢١ - ١٨٨٨ م] - وهو من تلامذة الطهطاوى - بتقنين فقه معاملات المذهب الحنفى ، ليقدّم البديل الإسلامى فى القانون ، كجزء من الرفض والمقاومة للقانون الوضعى العلمانى . .

ولقد عبر الإمام محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ - ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] - بلسان مدرسة الإحياء والتجديد الإسلامى - عن ضرورة إسلامية النهضة ، لأن الإسلام - على عكس النصرانية - منهاج شامل «فهو كمال للشخص ، وألفة فى البيت ، ونظام للملك . . ولأن سبيل الدين لمزيد الإصلاح فى المسلمين سبيل لامتدوحة عنها . .»

ومنذ ذلك التاريخ ، ظل التدافع سجالات - فى واقعنا الفكرى والقانونى والسياسى - بين دعاة العلمنة لمشروعنا النهضوى وبين دعاة إسلامية هذا المشروع ..

وعندما أعادت مصر صياغة قانونها المدنى ، الذى وضعه الدكتور عبد الرزاق السنهورى باشا [ ١٣١٣ - ١٣٩١ هـ ١٨٩٥ - ١٩٧١ م ] والذى طبق عقب إلغاء الامتيازات الأجنبية سنة ١٩٤٨ م ، زادت فى هذا القانون مرجعية الشريعة الإسلامية عنها فى سابقه الذى وضع سنة ١٨٨٣ م ..

ولما وضعت مصر دستورها الجديد سنة ١٩٧١ م نصت مادته الثانية على أن مبادئ الشريعة الإسلامية مصدر رئيسى للقوانين ، وفى التعديل ، الذى تم الاستفتاء عليه ، لهذه المادة سنة ١٩٨٠ م غدت الشريعة هى المصدر الرئيسى للقوانين ، فانفتح بذلك الباب الدستورى أمام المشرع المصرى لأسلمة القانون ، ولإجلال العلمانية عن المواقع التى احتلتها فى بلادنا تحت نفوذ وحراب الاستعمار<sup>(١)</sup> .

(١) مراجع:

- ١ - [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى] دراسة وتحقيق: د . محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م
- ٢ - [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] دراسة وتحقيق: د . محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣ م
- ٣ - [تقويم النيل] أمين سامى باشا . طبعة القاهرة سنة ١٩٣٦ م
- ٤ - [عصر إسماعيل] لعبد الرحمن الراغبى . طبعة القاهرة سنة ١٩٤٨ م .
- ٥ - [العلمانية بين العرب والإسلام] للدكتور محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٩٦ م

من الظواهر التي شاعت في حياتنا الفكرية - في العقود الأخيرة - ظاهرة الضيق بالرأى المخالف - وحكم غير المختصين في أعمال فكرية لا علاقة لتخصصهم العلمى بها ، وقياسها بغير المعايير التي يجب أن تقاس بها؟ !.. والذهاب في «ضيق الصدر الفكرى» إلى حد الحكم بالكفر على هؤلاء المخالفين؟ ! ..

ويخطئ من يظن أن هذا السلوك الردىء وقف على «الإسلاميين» الذين يكفرون نفرا من «العلمانيين» . . . ذلك أن سلاح التكفير هذا قد أصبح مشهرا ضد العديد من فصائل الإسلاميين ، توجهه ضدهم «دول» و «مؤسسات» ، وليس مجرد كتاب أو مفكرين؟ !.. الأمر الذى يدعو إلى الاحتكام إلى الإسلام ، طلبا للكلمة سواء ، فى هذا الأمر الخطير . .

وإذا كان إسلامنا قد علمنا أن معرفة الحق هى السبيل إلى معرفة أهله ، وأن الإسلام هو الحاكم على الرجال ، دون أن يكون فى تصرفات «الرجال» - إذا تنكبت طريق الحق - ما يعيب الإسلام . . ومن ثم فإن على مختلف الفرقاء : الذين يدافعون عن الإسلام دفاع «الدبة التى قتلت صاحبها» من فرط حبها - غير الواعى - إياه؟ !.. وأيضا أولئك الذين يتلقفون صنيع هذه «الدبة» لتشويه الدعوة المقدسة والنبيلة من أجل استكمال أسلمة الواقع والقانون فى مجتمعات المسلمين . . . إن مختلف الفرقاء فى هذه

القضية مدعوون إلى الاحتكام إلى «الحق» ، كما تمثل في أصول الإسلام - قرآنا وسنة - ، وفي فكر أعلامه ، وفي تطبيقات هذه الأصول ومناهج هؤلاء الأعلام . . ومنهم علماء وأعلام الأزهر الشريف ، على امتداد تاريخه العريق . .

● فالله ، سبحانه وتعالى ، يعلمنا - بقرآنه الكريم - تفردة وحده ، واختصاصه دون سواه بالحكم على العقائد والضمائر والأفئدة والقلوب ، لأنه وحده صاحب العلم المحيط بما فيها ، لم يعط شيئا من ذلك لأحد سواه . . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمِنَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (١) .

ولقد وقف أئمة تفسير القرآن الكريم وأعلامه أمام هذا التوجيه القرآني والفريضة الإلهية ، وقفة ذات دلالة ، فقالوا لنا : إن في هذا التوجيه الإلهي « من الفقه باب عظيم ، وهو أن الأحكام تناط بالمظان والظواهر ، لا على القطع وإطلاع السرائر . . فالله لم يجعل لعباده غير الحكم بالظاهر... » (٢) .

فعلى الذين يقلدون الكهانة الكنسية ، باسم الإسلام ، وأيا كانت مواقعهم ، أن يتقوا الله في الإسلام - الذي لم يحفظوا كتابه ، ولم يفقهوا علومه ، ولم يكتبوا في فكره كتابا واحداً ؟ ! . . وعلى أعداء الشريعة ، وأنصار «التغريب» ، والمبشرين بالتبعية

للحضارة الغربية ، أن يعلموا أن هذه «الصغائر» ليست من الإسلام في شيء . . ومن ثم فلا حجة فيها على الإسلام؟! . .

● ورسول الإسلام ، ﷺ ، هو الذى نتعلم منه النهج والقُدوة فى هذا المقام . . لقد جاءه نفر من صحابته يحدثونه عن «الوساوس» التى جعلتهم «يشكون» فى جوهر الدين ومحور التدين . . فى ذات الله؟! . . فلم يجزع رسول الله ، ﷺ . . ولم ينهرهم . . ولم يتصيد مواقف الضعف ليوجه الاتهامات . . بل وصف حالهم وقلقهم الفكرى ، «وشكهم المنهجى» الباحث عن سبل اليقين بأنه «صريح الإيمان» ومحض الإيمان» ولبه وجوهره؟! . .

ففى الحديث ، الذى يرويه أبو هريرة ، يقول : جاء نفر من الصحابة إلى رسول الله ، ﷺ ، فقالوا : «يا رسول الله ، إن أحدنا يحدث نفسه بالشئ ما يحب أن يتكلم به وأن له ما على الأرض من شيء . . وإنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به» !  
فأجابهم الهادى البشير : «وقد وجدتموه؟!» . . قالوا : نعم . . فقال : «ذاك صريح الإيمان» . . ذاك محض الإيمان<sup>(٣)</sup>؟! . .

● وإنها لشهيرة وحاسمة قصة ذلك الحديث الذى رواه بطلها أسامة بن زيد ، رضى الله عنهما ، قال : «بعثنا رسول الله ، ﷺ ، فى سرية ، فصَبَحْنَا الحُرْقَات - [مكان] - من جهينة . فأدركت رجلا ، فقال : لا إله إلا الله . فطعنته . فوقع فى نفسى من ذلك . فذكرته للنبي ، ﷺ ، فقال : «أقال: لا إله إلا الله، وقتلته؟!» . . قال قلت : يا رسول الله ، إنما قالها خوفا من السلاح . قال : «أفلا شققت عن قلبه لتعلم أقالها أم لا؟!» . . فما زال يكررها على حتى تمنيت أنى أسلمت يومئذ<sup>(١)</sup> .

وأمام هذا النهج النبوي ، والموقف الإسلامي الجامع يقف الإمام النووي [ ٦٣١ - ٦٧٦ هـ ١٢٣٣ - ١٢٧٧ م ] وهو يشرح « صحيح مسلم » ، فيقول : « إنما كلفت بالعمل بالظاهر وما ينطق به اللسان ، وأما القلب فليس لك طريق إلى معرفة ما فيه ! »

فعلى الذين لم يفقهوا نهج الإسلام في صيانة العقائد عن عبث الأحكام وطائش القرارات ، أن يتقوا الله في هذا النهج الذي غيّر به الإسلام وامتاز على غيره من الديانات ..

وعلى الذين يكيّدون للإسلام ونهجه بتصعيد العايبات من الأحكام والطائش من القرارات ، أن يميزوا بين هذا النهج الراقى للإسلام الخفيف وبين عبث العايبين .. فمعرفة الحق هي السبيل إلى معرفة أهله - وليس العكس - .. وليس في حكم « الرجال » ما ينهض حجة على الإسلام ؟ ! ..

● وهما هو حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ٤٥٠٦ - ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ - ١١١١ م ] يعلم الدنيا أن هذا النهج الإسلامي لم يكن مجرد « فكر نظري » ، وإنما كان التزام حضارة وضعه أعلامها في « الممارسة والتطبيق » ، فيقول : إنه « ينبغي الاحتراز من التكفير ما وجد الإنسان إلى ذلك سبيلا ، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة ، المصريحين بقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، خطأ . والخطأ في ترك أنف كافر أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم <sup>(٥)</sup> ! » .

● وفي عصرنا الحديث ، نجد السيادة لهذا النهج الإسلامي العظيم .. فعندما يخلط واحد من دعاة « التغريب » - هو فرح



أنطون [١٨٧٤ - ١٩٢٢م] - بين موقف الإسلام ونهجه هذا وبين الكهانة الكنسية الغربية التي زعمت لنفسها حق الحكم على العقائد والضمائر، ينبئ إمام الاجتهاد الإسلامى الحديث، والابن البار للأزهر الشريف الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] ليقول: «إن الله لم يجعل للخليفة ولا للقاضي ولا للمفتى ولا لشيخ الإسلام أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام.. ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعى حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه، أو ينازعه فى طريق نظره... فليس فى الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعدة الحسنة، والدعوة إلى الخير والتنقيح عن الشر، وهى سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلامهم، كما خولها لأعلامهم يتناول بها من أدناهم... وليس لاسلم، مهما علا كعبه فى الإسلام، على آخر، مهما انحطت منزلته فيه، إلا حق النصيحة والإرشاد... ولقد اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم أنه إذا صدر قول من قائل يحتل الكفر من مائة وجه، ويحتمل الإيمان من وجه واحد، حمل على الإيمان، ولا يجوز حمله على الكفر<sup>(١)</sup>...؟! فكان فى هذا الفكر الوجه المشرق للإسلام فى هذا الموضوع... تعلم منه أهل الإخلاص من «الإسلاميين» ومن «العلمانيين» على حد سواء!...

● بل ومالنا لا نذكر كل الفرقاء، من أنصار أسلمة الواقع والقانون، ومن دعاة «التغريب» والتبعية للغرب فى الفكر والسلوك... مالنا لا نذكر كل هؤلاء الفرقاء بنهج الأزهر، تاريخيا، فى مثل هذه الأمور...

لقد جاء حين من الدهر ادعى فيه واحد من علماء الأزهر - هو  
المرحوم الشيخ على عبد الرازق [١٣٠٥ - ١٣٨٦ هـ ١٨٨٧ -  
١٩٦٦م] - دعوى لم يقل يمثلها عالم مسلم عبر تاريخ الإسلام  
الطويل . . ادعى أن الإسلام دين لا دولة ، وأن نبيه رسول رسالة  
روحية وليس حاكماً ولا قائد دولة ، وأن هذا الإسلام مثله كمثله  
المسيحية يدعو لأن ندع مالم يقصر لقيصر وما لله لله ؟ ! . .

وعندما تصدى الأزهر ، يومئذ ، لهذه الدعوى ، وجدنا وثنائه  
الفكرية ، التي نقضت هذا الزعم ، قد برنت من أى اتهام للرجل في  
عقيدته . . استوت في ذلك «حيثيات» حكم «هيئة كبار العلماء» ، وما  
كتبه الإمام الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين في كتابه [نقض كتاب  
الإسلام وأصول الحكم] وما كتبه المفتى محمد بخيت المطيعي في كتابه  
[حقيقة الإسلام وأصول الحكم] . . .

بل وكان ذلك هو التزام الأزهر وعلمائه عندما خرج الدكتور طه  
حسين سنة ١٩٢٦م بكتابه [فى الشعر الجاهلى] . . وفيه ما فيه من إلقاء  
ظلال الشك الديكارتى على بعض من قصص القرآن الكريم ؟ ! . .

فبدءاً من القرآن الكريم . . . إلى السنة النبوية الشريفة . . . إلى  
النهج الذى انتهجه أئمة الإسلام وأعلامه . . . والذى جسده  
مواقف الأزهر الشريف ، عبر تاريخه العريق ، . . . كانت مقارعة  
الحجة بالحجة . . . والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة . . .  
والتحرج كل التحرج من الكهانة والسلطة الدينية فى الحكم على  
الضمائر والعقائد والأفئدة والقلوب . . .

وعندما أصيبت بعض الفصائل الشبابية فى حركة الصحوة

الإسلامية المعاصرة بداء الحكم على عقائد المسلمين بالكفر وعلى مجتمعاتهم بالارتداد إلى الجاهلية... كان الأزهر في مقدمة من تصدى لهذا الانحراف عن نهج الإسلام بالنقد والتفنيد والتوجيه...

تلك هي تقاليد الإسلام الدين . . والإسلام الحضارة ، مع هذه القضية ، التي يجب أن يرفع فيها الجميع هذه التقاليد التي أرساها الإسلام منذ أن نزل الوحي بكتابها المبين على قلب الصادق الأمين ، عليه الصلاة والسلام . .



إن طوق النجاة لهذه الأمة إنما يكمن في «الإبداع» و «الاجتهاد» و «التجديد» الذي تصوغ به مشروعها الحضاري المتميز عن المشروع الغربي ، كشرط ضروري لنجاح جهادها المقدس لوضع هذا المشروع في الممارسة والتطبيق . .

وإن هذا البلاء ، المتمثل في «ضيق الأفق» و «ضيق الصدر الفكري» ، إلى حد تكفير المخالفين . . إن هذا البلاء هو أعداء «الإبداع» و «الاجتهاد» و «التجديد» ! . .

فليتق الله المخلصون - الغافلون - من مختلف الفرقاء ؟ ! . .

الهوامش:

- (١) النساء : ٩٤ .
- (٢) القرطبي الجامع لأحكام القرآن ج ٥ ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ . طبعة دار الكتب المصرية .
- (٣) حديثان رواهما مسلم والإمام أحمد .
- (٤) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه والإمام أحمد .
- (٥) الاقتصاد في الاعتقاد ص ١٤٣ . طبعة القاهرة - مكتبة صبيح . بدون تاريخ .
- (٦) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ج ٣ ص ٢٨٣ - ٢٨٩ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

فى عصرنا الحديث .. وعندما تجاوزت أمتنا طور الحقبة المملوكية العثمانية .. وأخذت بأسباب اليقظة والتقدم .. اشرأبت الأعناق وطمحت العقول وأملت الأفئدة فى طى صفحة التخلف والتراجع والجمود فى كتاب المرأة العربية والمسلمة .. تلك الصفحة التى سادت عصورنا المملوكية العثمانية ، والتى صارت فيها المرأة - لدى القطاع المؤثر فى مدننا ودوائر الحكم ببلادنا- مجرد «شئ» تتزين به البيوت والقصور .. وأداة متعة للفراش .. وجزءاً لطيفاً من سقط المتاع! ..

ومع بداية الصفحة الجديدة من كتاب تطورنا الحضارى ، وجدنا أنفسنا ، ولا زلنا نجدها ، أمام مذهبين متميزين تميزاً واضحاً فى فلسفة «تحرير المرأة العربية والمسلمة» ..

١ - مذهب تيار التجديد الدينى والبعث الحضارى وإحياء الأصالة العربية الإسلامية .. ذلك الذى دعا رواده وأنصاره إلى طى صفحة «الوافد التركى المملوكى» ، وإلى جعل المرأة المعاصرة والجديدة : الامتداد المتطور لسالفتها فى حقبة ازدهارنا الحضارى الأولى ..

٢ - ومذهب أنصار «الغزو الفكرى التغريبى» ، الداعى إلى طى صفحات حضارتنا العربية الإسلامية جميعها ، لنبداً فى قضية

«تحرير المرأة» من حيث انتهى الفكر الذى أبدعته الحضارة الغربية لتحرير نساها ، وتطبيقات هذا الفكر ، وذلك بدعوى أن مذهب الغرب هذا ، ونموذجه فى هذا «التحرير» ، هو من «المشترك الإنسانى العام» وليس من «الخصوصية الحضارية» التى تمتاز فيها الحضارات . . .

وتلك ، لعمري! قضية تحتاج إلى نظر أكيد من العقل الرشيد! . .  
كثيرون لا يعرفون أن تاريخ الحضارة الغربية فى «التفكير» و «الدعوة» لحقوق المرأة ، هو تاريخها الحديث . . فقبل القرن الثامن عشر والتاسع عشر لم يكن لذلك الأمر ذكر فى عالم الحضارة الغربية بإطلاق . .

ولا يظن أحد أن حال المرأة الغربية فى العصور الوسطى لحضارتها كان كحال المرأة العربية الإسلامية فى عصور تراجعنا الملوكية العثمانية . . فالفوارق بينهما جذرية وشاسعة لا تقبل المقارنة أو التشبيه . . فما أنجزه الإسلام من تحرير للمرأة العربية والمسلمة منذ ظهور الإسلام استمر أغلبه قائما فى الريف والبداءة والأحياء الشعبية . . وحتى الشريعة التى قبعت فى حريم قصور السراة والحكام والأمراء والأجناد فإنها لم تحرم من كل الحقوق التى منحتها إياها شريعة الإسلام . . فالذمة المالية المستقلة ، وحق الملكية ، والتصرف فيها ، ظلت قائمة دون انتقاص . . وكذلك أحكام الشريعة فى الولاية على الأبناء ، وغيرها من الحقوق المتعلقة بالميراث ، وبالإعفاء من تبعات الإنفاق المالى فى البيوت . . الخ . .

أما في الحضارة الغربية ، فإن المرأة لم تكن شيئا مذكورا على الإطلاق . . كانت شبه منبوذة ، ينظر إليها على أنها ناقصة الجسم والعقل والوجدان ، لاحق لها ولا نصيب في العلم ، أو الحرية ، أو الملكية أو التعامل المالى ، أو الولاية على أبنائها وحضانتهم ، حتى إذا مات والدهم في حياتها! . . يل لقد نظروا إليها ، بناء على لاهوت الكنيسة ، باعتبارها جسدا بلا «روح» ، وزعموا أن ما بداخلها هو «شيطان»؟! . .

تلك كانت حال المرأة الغربية ، حتى العصر الحديث ، عندما بدأت «فكرة» و «دعوة» حقوق المرأة هناك في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . .

وإذا كان هذا هو تاريخ «تفكير» الغرب و «دعوته» لتحرير المرأة . . فإن هذا «الفكر» وهذه «الدعوة» لم ينتصرا ، فيتجسدا في دساتير الغرب وقوانينه إلا في القرن العشرين! . .

وبسبب من اقتران أفكار تحرير المرأة الغربية بالفكرية الرأسمالية للثورة الصناعية ، فلقد اتخذت تلك الدعوة ذات الطابع والروح اللذين طبعنا نهضة الغرب وإحياءه في العصر الحديث . . الطابع المادى لحضارة الغرب ، والنظرة الرأسمالية للمرأة ، باعتبارها سلعة في سوق العمل الرأسمالى ، وسلعة في سوق الإغراء . . كما تميز مفهوم حريتها وتحورها بما تميزت به «الحرية» في الحضارة العلمانية الغربية ، من الانفلات الذى لا تلزمه شريعة إلهية ، ولا يلتزم به «قيم» الدين! . . فتميزت بذلك مفاهيم تحرير المرأة هناك بما تميزت به الحضارة الغربية عن حضارتنا العربية الإسلامية من خصوصيات . .



فإذا كانت فلسفة «التحرير الإسلامى للمرأة» قد انطلقت من تحديد مكانتها بالنسبة للرجل ، باعتبارهما «شقان متكاملان ومتساويان» . . فلقد انطلقت فلسفة الغرب فى تحريرها من مقولة «النُدْيَةُ» القائمة على «التماثل» بينهما . . فطمحت المرأة الغربية إلى أن تكون مساوية للرجل ، منكرة ومستنكرة تمييز الطبيعة بينهما ، فكان حلولها محل الرجل ، واقتحامها كل ميادين عمله إنشاق ، و «استرجال» المرأة «انتصارات» توهمت أنها قد حققتها فى ميدان التحرير ! . .

وإذا كان «التحرير الإسلامى» للمرأة ، لم يجد فى «قوامة» الرجل على زوجها ما ينافى هذا التحرير ، لأن هذه «القوامة» هى درجة فى سلم القيادة استحقها الرجل لشميز طبيعته فى ميادين بعينها ، دون أن تعنى هذه القوامة الانقصاص من مبدأ المساواة . . وبعبارة الإمام محمد عبده ، عند تفسيره للآية الكريمة : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ <sup>(١)</sup> : «فإن المراد بالقيام هنا هو الرياسة التى يتصرف فيها المرءوس بإرادته واختياره ، وليس معناها أن يكون المرءوس مقهورا مسلوب الإرادة لا يعمل عملا إلا ما يوجهه إليه رئيسه ، فإن كون الشخص قيما على آخر هو عبارة عن إرشاده والمراقبة عليه فى تنفيذ ما يرشده إليه ، أى ملاحظته فى أعماله وتربيته . .» <sup>(٢)</sup> . . فالقرآن الكريم قد قرن هذه «القوامة» بكامل المساواة الإنسانية بين النساء والرجال ، وذلك فى قوله سبحانه



﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٣) . . وعن هذه المثلية فى الحقوق والواجبات يقول الإمام محمد عبده فى تفسيره لصدر هذه الآية : « أولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » : « هذه كلمة جليلة جدا ، جمعت ، على إيجازها ، ما لا يؤدى بالتفصيل إلا فى سفر كبير ، فهى قاعدة كلية ناطقة بأن المرأة مساوية للرجل فى جميع الحقوق ، إلا أمرا واحدا عبر عنه بقوله : [وللرجال عليهن درجة] . . حتى قال ابن عباس : إني لأتزين لامرأتى كما تتزين لى لهذه الآية : وليس المراد بالمثل المثل بأعيان الأشياء وأشخاصها ، وإنما المراد أن الحقوق بينهما متبادلة ، وأنهما أكفاء ، فمما من عمل عمله المرأة إلا وللرجل عمل يقابله لها ، وإن لم يكن مثله فى شخصه ، فهو مثله فى جنسه ، فهما متماثلان فى الحقوق والأعمال ، كما أنهما متماثلان فى الذات والإحساس والشعور والعقل . . » (٤) .

كذلك فإن قوامه الرجل على المرأة ، المؤسسة على تميز طبيعته فى ميادين بعينها ، يقابلها ، ولا شك وبمنطق فطرة الله ، قوامه للمرأة فى الميادين التى تميزها فيها طبيعتها . . فإذا كانت القيادة له فيما له به خبرة وجلد من الميادين ، فإنها الراعية والقائدة فى ميادين العاطفة والأنوثة والحنو ، وابداع واحة السكن الذى يلطف غلظة الحياة وقسوتها !

وإذا كان « الراعى » هو « القائد ، والقيم » ، فإن الاسلام لم يحرم المرأة من القيادة والقوامه ، ولكنه حدد لها ميادينها ، المتفقة مع طبيعتها المتميزة ، كما صنع ذلك مع قوامه الرجال سواء بسواء . . ففى حديث الرسول ، ﷺ ، نقرأ عن « الرعاية والقيادة والقوامه » ، قوله عليه السلام : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ، فالأمير

الذى على الناس راع عليهم ، وهو مسئول عنهم . والرجل راع على أهل بيته ، وهو مسئول عنهم . والمرأة راعية على بيت بعلها وولده ، وهى مسئولة عنهم . وعبد الرجل راع على بيت سيده وهو مسئول عنه . ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»<sup>(٥١)</sup> . . . فالقيادة والقوامة ليست وقفاً على الرجال ، وإنما هى مرتبطة بتميز الطبيعة وتميز ميادينها . . . لأن فلسفة «التحرير الإسلامى» للمرأة قد راعت تمايز التكوين الطبيعى فى إطار المساواة الإنسانية تحقيقاً لتكامل الذكر والأنثى ، ابتغاء لسعادتهما جميعاً ! . .

أما فلسفة «التحرير الغربى» للمرأة ، فإنها اعتمدت «النُدية» فجعلت معركة الأنثى ضد الذكر . . . وظنت أن تحررها كامن فى «استرجالها» ، فقادت بها إلى حال القط الذى قلد أسداً ، حتى حرم من مميزات القط دون أن يكتسب مميزات الأسود ، متناسية أن فلسفة التكامل تقتضى التنوع بين المتكاملين . .

وإذا كانت «الوسطية الإسلامية» - وهى الخصيصة العظمى لحضارتنا العربية الإسلامية - قد وضعت حرية الإنسان ، رجلاً كان أو امرأة ، فرداً كان أو أمة ، فى مكانها وسط إطار الشريعة الإلهية . . . فجعلت «الحرية» ملتزمة ومحكومة بشوايت الشريعة ومقاصدها وحدودها . . . فإن الطابع العلمانى - الفاصل بين الدين والدولة ، والمستبعد للدين من فلسفات العلوم ومناهج الفكر - قد أطلق العنان لحرية الإنسان الغربى ، فانطبع بهذا الإطلاق فلسفة «التحرير الغربى» للمرأة الغربية . . . فهى حرة فى ابتذال الجسد وعرض مفاته على الجميع . . . وحررة فى إشاعة الجنس وتعميم اللذة ، طالما تم ذلك بالرضا لا بالاعتصاب ! . .

لقد نشأت هذه الفلسفة «لتحرير الغربى» للمرأة الغربية ، كجزئية من جزئيات النهضة الرأسمالية الغربية ، ذات الطابع الليبرالى والروح العلمانية ، فحملت خصوصيات الحضارة الغربية ، فى الطابع المادى ، وعبادة اللذة ، وانفلات الحرية من مقاصد الشريعة الإلهية وحدودها . . كما حملت ذلك «الوهم» الذى أغرى المرأة «بالاسترجال» ، فشقيت منها الروح والجسد جميعا ، الأمر الذى لم يحقق لها جوهر الحرية وحقيقة التحرير ! . .

فهى ، إذن ، «خصوصية حضارية غربية» ، تلك الصورة التى يبشر بها أسرى الغزو الفكرى التغريبى لحرية المرأة . . وليست ، أبدا ، من قبيل ما هو «مشترك إنسانى عام» .



هكذا . . . وبعد هذه الرحلة عبر ميادين الفكر الذى بشرت وتبشيره «النخبة» المتغربة ، ومقارنته بنظيره فى حضارتنا العربية الإسلامية . . وضحت لكل ذى سمع وبصر وفؤاد الحدود الفاصلة بين ما هو :

● مشترك إنسانى عام ، لا يتمايز ولا يختلف باختلاف الحضارات والقوميات والمذاهب والمعتقدات . . ويدخل فى ذلك كل علوم المادة والطبيعة والتجريب ، وحقائقها وقوانينها . . وكثير من التجارب الإنسانية المجردة من الفلسفات . . والعديد من ثمرات الخبرات الإنسانية فى المؤسسات والوسائل والسبل ، التى سلكتها الأمم فى عمارة الكون وتنمية الثروات . .

● وخصوصيات حضارية ، تتمايز بتمايز الحضارات ذات الفلسفات والمثل التماييزة . . ويدخل فى ذلك كثير من العلوم

الإنسانية ، التي تتمايز بتمايز موضوع بحثها : النفس الإنسانية المتميزة بالفلسفة والمعتقد والموراث المكونة ومعطيات الاقليم وثمرات المحيط الذي تعيش فيه . . وإذا كان «المشترك الإنساني العام» هو أشبه ما يكون «بالهواء» الذي لا يعرف ولا يعترف بالحدود الفاصلة بين القوميات والحضارات . . فإن «الخصوصيات الحضارية» ، هي أشبه ما تكون «بالجيش» ، الذي لا يصح أن يعبر الحدود الحضارية إلا عندما تثبت الحاجة إليه ، ويتم الاستدعاء له ، وبالحجم الذي هو مطلوب ليقيد؟ ! . . فهنا ، لا بد من العرض على المعايير الحضارية والموازن الحاكمة للهوية القومية ، ليتبين ماهو دعم للذات وتنمية لاستقلاليتها وتميزها ، من ذلك الذي يمثل المسخ والنسخ والتشويه لهذه الذات . .

تلك هي «شهادة الفكر» على ماهو من المشترك الإنساني العام . . . وما هو من الخصوصيات الحضارية في عطاء الحضارات الإنسانية وإبداعها .



الهوامش:

- (١) النساء : ٣٤ .
- (٢) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده [ ج ٥ ص ٢٠٨ -
- (٣) البقرة : ٢٢٨ .
- (٤) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده [ ج ٤ ص ٦٣٠ .
- (٥) رواة البخاري ومسلم والإمام أحمد .

## التفاعل الحضارى

فى الحديث عن علاقة الأمة العربية الإسلامية بالآخر الحضارى .. وعلاقة الحضارة الإسلامية بالحضارات الأخرى - وبالحضارة الغربية على وجه الخصوص - وهى العلاقة التى تطرح علينا وعلى الغرب هذا الموضوع - أجد من الضرورى التمييز بين «الأوهام» و «الحقائق» التى اختلطت فى هذا الموضوع ..

● فوهم كبير أن يتصور أحد إمكانية العزلة الحضارية - فى ظل ثورة وسائل الاتصال الحديثة - لأية حضارة من الحضارات ، حتى لو أرادت ذلك ، واجتمع أهلها على اختيار العزلة! .. بل إن مثل هذه العزلة بين الحضارات لم تحدث حتى فى التاريخ القديم ، وخاصة للحضارات القائمة فى المواقع الحاكسة بطرق الاتصال بين قارات العالم .. وفى مقدمتها حضارات الشرق ، عبر التاريخ ..

● ومن حقائق «طب الحضارات» - إذا جاز التعبير - أن الانغلاق والعزلة الحضارية ، لا بد وأن يؤدى إلى الذبول والاضمحلال الحضارى .. تماما كما يحدث للجسم الذى يتغذى على «ذاته» ، دون مدد من «المحيط»! ..

● ومن حقائق «طب الحضارات» ، أيضا ، أن تقليد حضارة لأخرى ، وخاصة فى «التهوية» وثوابت السمات والقسمات المميزة لخصوصيتها ، على النحو الذى يؤدى إلى التبعية ، إنما يقود ، هو

الآخر ، إلى الذوبان والاضمحلال الحضارى . . لأن «حياة» الحضارة . . أية حضارية - إنما تكمن فى «الإبداع» . . و «الإبداع» مستحيل مع «التقليد» ، فلا يبدع إلا صاحب المشروع المتميز والنموذج الخاص . أما المقلد فإنه يعطى ملكات الإبداع «إجازة» ، مكتفيا بالنماذج «المعلبة» والخيارات «الجاهزة» ! . .

● وإذا كان «الانغلاق» مستحيلا . . وإذا كانت «العزلة» تقود إلى الذبول والاضمحلال . . ولما كان «التقليد» يقود إلى التبعية ، التى تعنى ، هى الأخرى ، الذوبان والذبول ، أى اضمحلال الذاتية والخصوصية . . فلا بد - فى العلاقة مع الآخر الحضارى - من البحث عن الموقف الثالث . . الوسط . . العدل . . الحق فى هذا الموضوع . . وهو الذى أسميه بـ «التفاعل الحضارى» ، من موقع الراشد المستقل ، الذى ينفتح على كل حضارات الدنيا ، دون أن يفقد ذاتيته وهويته واستقلاله الحضارى . .

وهذا الموقف . . موقف «التفاعل الحضارى» - الذى هو وسط بين «الانغلاق» - والعزلة» وبين «التقليد» - والتبعية» - يستلزم ويستوجب اكتشاف مساحة «الخصوصية الحضارية» ، المكونة لهويتنا الحضارية . . والتى لا بد من إحيائها ، والاستمسك بها ، وحمايتها - كما تحمى الأمم أعراضها . . بل وصناعاتها الوطنية . . واكتشاف مساحة «المشترك الإنسانى العام» فى الإبداع الإنسانى ، لا لنقبله فقط من الآخرين ، بل ولنسعى إلى امتلاكه بكل ما أوتينا من قوة ، ولننتلذذ فيه على كل الآخرين الذين يبدعون فيه ! . .

وإذا كان لى أن أضرب أمثلة على السمات والقسمات التى أراها نماذج لهويتنا وذاتيتنا الإسلامية وخصوصيتنا الحضارية ، فإنى أنبه على أن المدخل إلى هذا الميدان هو الوسطية الإسلامية الجامعة . . أى التى لا تقف ساكنة بين القطبين والطرفين ، وإنما تجمع بينهما ما يمكن جمعه وتأليفه من عناصر الحق والصواب . .

فإذا كانت «النرقانا» الهندية - ومعها الفكر «الباطنى - الغنوصى» - ترى الإنسان «هامشا - حقيرا - فانيا فى المطلق» . . على حين تراه الحضارة الغربية سيد هذا الكون . . فإن وسطيتنا الإسلامية تراه أخليفة عن سيد هذا الكون وخالفه ، سبحانه وتعالى . . فلا تجرده من الحرية والسلطات . . وأيضا لا تطلق العنان لهذه الحرية والسلطات . . وإنما تقرها وتنميها ، مع حكمها وضبطها بنود عقد وعهد الاستخلاف - الشريعة الإلهية - . . فهو - الإنسان - بعبارة الإمام محمد عبده - «عبد لله وحده ، وسيد لكل شىء بعده» ! . .

وإذا أقام النموذج الباطنى طريق الخلاص - التقدم - على العرفان والرياضة الروحية فقط . . وأقام النموذج المادى - الغربى - التقدم على عوامل المادة وإشباع الحاجات الدنيوية وحدها . . فإن خيارنا الحضارى هو الذى يرى السعادة فى التوازن - العدل - الوسطية - فيؤسس المعارف على كتابى الوحي المقروء والكون المنظور . . ويقرأ النقل بالعقل ويحكم غرور العقل بالنقل . . ولا يرى سعادة فى الدنيا إلا إذا حققت سعادة الآخرة - التى هى خير وأبقى - . . ولا يقف بالحقوق عند حدود الانسان ، وإنما يمد نطاقها



إلى حقوق الله ، التى تمثلها حقوق الأمة والاجتماع البشرى . . فلا يجرد الإنسان - مثلاً - من حقوق التملك فى الثروات والأموال . . كما لا يطلق العنان لتملكه فى هذا الميدان ، وإنما يعتمد نظرية وسطية الاستخلاف ، فإزاء مالكا للمنفعة ، محكومة تصرفاته بشريعة المالك الحقيقى والواهب الأصلى للثروات والأموال ، سبحانه وتعالى . .

وقس على ذلك ثمرات ومعالم الوسطية الإسلامية ، التى هى صبغة الهوية الحضارية ، التى ميزت علومنا الإنسانية ، باعتبارها ثقافة «النفس المسلمة» التى تهذب ويجب أن تهذب وفق خصوصيات المعتقد والموروث وفلسفة النظر للكون - بدءاً . . ومسيرة . . ومصيراً . . وحكماً وغايات - وكذلك التقاليد والأعراف والعادات . .

تلك أمثلة على بعض سمات الخصوصية الحضارية . . والبصمة القومية . . والذاتية الثقافية . . التى يمثل إحيائها ، وتمثل حمايتها - مع معترك الصراع الثقافى والإعلامى - الشروط الضرورية للرشد والاستقلال . . ومؤهلات «التفاعل» مع الآخر ، دونما سقوط فى إفراط «الانغلاق» أو تفريط «التقليد والتبعية» . .

● ومع اكتشاف وإحياء وحماية مساحة الخصوصية الحضارية - للنجاة من «التقليد . . والتبعية» - فلا بد من اكتشاف مساحة «المشترك الإنسانى العام» . . التى تتمثل فيها الإبداعات الإنسانية للحقائق والقوانين والمعارف التى لا تتغير بتغير الحضارات والمعتقدات . . وإذا كانت تجارب النفس الإنسانية

لا تتكرر ولا تتماثل .. الأمر الذى ميز وعيىز العلوم الإنسانية فى كل حضارة من الحضارات العريقة .. فإن حقائق وقوانين العلوم «الموضوعية- الطبيعية - المحايدة لا تتغير بتغير عقائد أو حضارات علمائها وذلك لثبات المادة التى هى موضوعها . والتمايز بين الحضارات ، فى هذا الميدان لا يتعدى فلسفات وأخلاقيات تطبيقات حقائق وقوانين هذه العلوم .. فحقائق علم التربة الزراعية ، لا تتغير بتغير باحثيه فى المعتقد أو الجنس أو الوطن .. وإنما يقع ويرد التغير فى تطبيقات هذه الحقائق بين من يسخرها فى زراعة الحلال الطيب - بالمعيار الدينى - وبين من يسخرها فى زراعة ما يحقق اللذات الدنيوية والشهوات الآنية ، بصرف النظر عن علاقة ذلك بأسباب السعادة فى الدار الآخرة .. الأمر الذى يحول مطلق العلم إلى علم نافع .. وعلم لا ينفع ، إذا ضبط «النفع» بضوابط الدين ! ..

فإذا نحن اكتشفنا «مساحة : الخصوصية .. والهوية الذاتية» .. و «مساحة : المشترك الإنسانى العام» ، استطعنا تحقيق «الاستقلال الذاتى - الحضارى» مع «التفاعل - الحضارى» مع كل حضارات الدنيا ..

بقيت ملاحظتان :

الأولى : يرصدها الباحث فى المسارات الحضارية للأمم فى هذا الميدان .. عندما يرى أن الأمم والحضارات فى لحظات القوة والمنعة لا تدقق كثيرا فى سبل «الحماية» من الآخر الحضارى .. بل تفتح

- تقريبا - كل النوافذ على الآخرين .. مثلها كمثل معدة الجسم القوي ، لاتخشى طعاما ، لأنها قادرة على الهضم .. والتمثل للمفيد .. والطردها هو غير مناسب أو ضار ..

أما فى مراحل الضعف والاستضعاف ، فكثيرا ماتعلو الأصوات الداعية للتدقيق فى سبل «الحماية» من الآخر الحضارى .. كحال الجسد المريض ، الذى قد يؤذيه حتى الجيد والدسم من الطعام .. بل وقد يضره حتى الهواء العليل ! ..

تلك ملاحظة لايد من إدراك مغزاها ونحن نرى الصراع بين «الانفتاحيين» وبين «الانغلاقيين» .. فى واقعنا المعاصر .. وهى قد حدثت قديما فى مسيرتنا الحضارية .. فإبان نهضة أسلافنا وقوتهم حدث الفتح لأغلب النوافذ ومعظم الأبواب على الآخرين .. أما فى عصر التراجع والاستضعاف فلقد رأينا منهج «ابن عربى» ، الذى جعل قلبه معيدا لتوحيد والتثليث والوثنية واليهودية وكل الثقافات ! .. ورأينا منهج «ابن تيمية» الذى رفع شعار : «اقتضاء الصراط المستقيم : مخالفة أهل الجحيم» ! ..

والملاحظة الثانية: ترى فى «التفاعيل الحضارى» - الرفض «للانغلاق» و «لتقليد» - التبعية - القانون الذى حكم ويحكم العلاقة الصحية بين الحضارات على مر التاريخ - فهو «قانون» .. وليس اختراعا - ١٩ ..

● لقد انفتح أسلافنا على الحضارة الهندية .. نكنهم أخذوا حسابها وفلكها ، دون فلسفتها ..

● وانفتحوا على الحضارة الإغريقية والرومانية .. لكنهم أخذوا تدوين الدواوين ، ولم يأخذوا شريعة الرومان وقانونهم .. وأخذوا العلوم الطبيعية ، دون الإلهيات والآداب .. وعندما ترجموا الفلسفة العقلية اليونانية أرادوها سلاحا عقلائيا أجنبيا ضد الباطنية الغنوصية الأجنبية - التي مثلت التهديد الأكبر للإسلام - وظلت هذه الفلسفة مجرد سلاح بيد «الخاصة» من الفلاسفة ، ولم تتحول إلى فلسفة للإسلام وأمته فى يوم من الأيام ! ..

● وانفتح أسلافنا على الحضارة الفارسية .. لكنهم أخذوا «الترايب الإدارية» ، دون المذاهب الفارسية! ..

● وعندما انفتحت الحضارة الغربية على حضارتنا الإسلامية ، إبان نهضتهم ، أخذوا عنا ما هو مشترك إنسانى عام - من المنهج التجريبي .. إلى العلوم الطبيعية - .. ولم يأخذوا التوحيد الإسلامى ، ولا الوسطية الإسلامية ، ولا المثل والمقاصد والأخلاقيات .. فلقد أسسوا نهضتهم على «كلاسيكيات الإنسانيات اليونانية» - فى الثقافة المتميزة - وعلى حقائق وقوانين العلوم المحايدة - التى هى مشترك إنسانى عام ... بل لقد صنعوا هذا «التمييز» حتى مع المفكر الواحد - مثل ابن رشد - .. فأخذوا عنه عقلانية أرسطو .. وتركوا عقلانيته الإسلامية - الجامعة لما بين الحكمة والشريعة من الاتصال-؟! .. وأخذوا طب ابن سينا دون إشراقيته الفلسفية .. الخ .. الخ ..

وعليها - نحن .. الآن - أن نهيم ونبلور منهاج التفاعل الحضارى  
مع الآخرين - غربا وشرقا- وأن نحدد مساحة الخصوصية  
الحضارية .. والهوية الثقافية .. والبصمة القومية .. ومساحة  
المشترك الإنسانى العام .. لننفتح على الدنيا ، ونصافح الجميع ،  
دون أن نفقد هويتنا ، فننجو من إفراط «العزلة والانغلاق» .. ومن  
تفريط «التبعية والتقليد» ..



المباهلة : مُقَاعَلَةٌ بين فريقين متناظرين ومتحاجبين في أمر يختلفان فيه ، يبتهل - أى يتضرع كل منهما إلى ، سبحانه وتعالى ، أن يجعل لعنته على الكاذب منهما .

وفى المباهلة نزلت آيات سورة [ آل عمران : ٥٩ - ٦١ ] ﴿ إِنَّ مِثْلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١) ﴾

وسبب ومناسبة نزول آيات المباهلة هذه ما حدث من وفد نصارى نجران ، الذين جاءوا إلى النبی ﷺ بالمدينة سنة ٩ هـ سنة ٦٣٠ م - مع رؤسائهم «السيد الأيهم» و «العاقب عبد المسيح» ، و «ابن الحارث» ففي الحوار الذي دار بينهم وبين رسول الله ﷺ قال لهم الرسول :

- إن عيسى عبد الله وكلمته .

- فقالوا : أرنا عبدا خلق من غير أب .

- فقال لهم الرسول : آدم ، من كان أبوه؟ أعجبتكم من عيسى  
ليس له أب؟ فأدم عليه السلام ليس له أب ولا أم .

فنزلت الآيات تدعوهم - إن لم يصدقوا- إلى المناظرة- بحضور  
أبناء ونساء الفريقين- متضرعين إلى الله أن ينزل اللعنة على  
الفريق الكاذب ..

لكنهم خافوا على أنفسهم من تنفيذ المباهلة ، لما علموا من  
صدق نبوة ورسالة محمد ﷺ حتى قال بعضهم لبعض :  
«إن فعلتم اضطرم الوادى عليكم نارا»

فعادوا إلى النبي ﷺ يسألونه بديلا عن المباهلة وعن الإسلام ،  
وقالوا :

- أما تعرض علينا سوى هذا ؟

- فقال : الإسلام أو الجزية أو الحرب .

فعاهدوه - مقابل حرية عقيدتهم وحمايتهم كجزء من رعية  
الدولة الإسلامية- على جزية مقدارها ألف حُلَّة - ثياب- تُؤدى  
فى شهر صفر ، وألف حُلَّة أخرى تُؤدى فى شهر رجب .

وبذلك تكون المباهلة قد وقفت عند حد التحدى بها ، ولم تتم ،  
لأنهم خافوا عاقبتها ، واختاروا الصلح والمعاهدة التى دخلوا بها فى  
رعية الدولة الإسلامية وحمايتها ، مع الاحتفاظ بحريتهم الدينية  
وعقيدتهم النصرانية .



وظاهر الآيات القرآنية ينفي المرويات الرائجة التي تقول إن الرسول ﷺ قد اختار فريقه للمباهلة : على بن أبي طالب وفاطمة الزهراء والحسن والحسين ، رضى الله عنهم - «لأن كلمة [نساءنا] - كما يقول الإمام محمد عبده (١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م) لا يقولها العربى يريد بها ابنته ، لا سيما إذا كان له أزواج ، ولا يفهم هذا من لغة العرب ، وأبعد من ذلك أن يراد به [أنفسنا] - عندما ينطقها النبى - على بن أبى طالب» .

فما تطلبه الآيات هو اجتماع الفريقين للمناظرة والمحااجة والمجادلة ، بحضور جماهير الفريقين رجالا ونساء وأطفالا ، ويبتهلون إلى الله بأن يلعن الكاذب منهما .

ويؤكد أن هذه المباهلة لم تتم ، أن وفد نجران - يومئذ - لم يكن معهم أحد من النساء والأبناء .



ولأن هذه المباهلة هى سبيل من سبل المناظرة والمحااجة بين أهل الحق وأهل الباطل ، ولخلو الآيات مما يفيد قصرها على النبى ﷺ أو على زمنه ، فإنها تشريع إسلامى خالده ، تستدعيه المقاصد المرجوة من ورائها ، والمصالح المتعلقة عليها . . ولذلك ، قال الإمام ابن عابدين (١١٩٨ - ١٢٥٢ هـ ١٧٨٤ - ١٨٣٦ م) «إن المباهلة ، بمعنى الملاعنة ، مشروعة فى زماننا» . . ولذلك ، فمن المشروع والوارد أن تكون المباهلة من أساليب وآليات المناظرة والمحااجة مع

أخالفين والمعاندين . . أى أن تتم المناظرة ، ويقدم الفرقاء المختلفون ما لدى كل منهم من الحجج والبراهين والبيانات ، ثم يستهلون إلى الله ، سبحانه وتعالى ، أن يجعل اللعنة على الكاذبين . .

وإذا كان التاريخ الإسلامى قد شهد العديد والعديد من المناظرات بين علماء الإسلام وبين نفر من أهل الكتاب ، فلا تحضرنى وقائع تاريخية - قديمة أو حديثة - اتخذت فيها هذه المناظرات صورة المباهلة التى نزلت بها هذه الآيات من القرآن الكريم . والله أعلم<sup>(١)</sup> .



#### (١) مراجع :

- ١ - القرطبى الجامع لأحكام القرآن ج ٤ ص ١٠٢ - ١٠٥ . طبعة دار الكتب المصرية . القاهرة .
- ٢ - الإمام محمد عبده [الأعمال الكاملة] ج ٥ ص ٣٣ - ٣٥ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة دار الشروق القاهرة سنة ١٩٩٣ م .
- ٣ - [الموسوعة الفقهية] - مادة «المباهلة» - ج ٣٦ ص ٥٧ ، ٥٨ - طبعة الكويت سنة ١٩٩٦ م .
- ٤ - رفاعة رافع الطهطاوى [الأعمال الكاملة] ج ٤ ص ٣٧٦ ، ٣٧٧ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٧ م .

● عقيدة «الباب» الموصل إلى الرسول - ﷺ - .. وبالتالي إلى الله - سبحانه وتعالى - :

لمصطلح «الباب» - بهذا المعنى - مفهوم شرعى .. ومفاهيم باطنية منحرفة ومغالية ..

فالمفهوم الشرعى لهذا المصطلح هو : التوبة .. فباب الأبواب هو التوبة ، لأنها السبيل إلى الوصول لرسول الله - ﷺ - ، بمعنى الوصول إلى سنته وطريقته ، التى هى بيان الوحى الإلهى وتطبيقاته ، ومن ثم فالوصول إليها وصول إلى الله - سبحانه وتعالى - أى إلى حضرة طاعته والعبودية له .. ففى التوبة عودة التائب إلى طاعة الرسول ، التى هى طاعة لله ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا ﴾ [النساء : ٨٠] . وبذلك تتحقق المعية والحضور والوصول إلى الله ورسوله ..

وقريب من هذا المعنى الشرعى لمصطلح «الباب» معناه فى «التصوف السنى» - المضبوط بضوابط الشريعة الإسلامية - فباب التوبة هو أول ما يدخل به العبد حضرات القرب من جناب الرب - كما يقول المتصوفة الشرعيون - ..

لكن هناك معانى باطنية منحرفة لمصطلح «الباب» - باب الوصول - شاعت فى الفلسفات والعقائد الباطنية عند بعض الفرق المغالية :

فمثلا : الباب - عند الإسماعيلية - هو المريد الأكبر ، المفوض من الإمام المعصوم . . ولقد أطلق عليه فى بعض أدبياتهم لقب «داعى الدعاة» . . فهو الباب الموصل إلى الإمام ، الذى هو باب الوصول إلى الرسول ، ومن ثم إلى الله عز وجل . . و «الباب» - فى عقائد النصيرية - هو لقب «سلمان الفاريسى» - رضى الله عنه - . .

وعند الدرّوز : الباب هو العقل الكلى . .

وعند بعض فرق الشيعة : الباب هو على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - . .

و «الباب» عند طائفة «البابية» - وهى من الغلاة - هو على بن محمد الشيرازى [١٢٣٦ - ١٢٦٦ هـ - ١٨٢١ - ١٨٥٠ م] واليه نسبت الطائفة وسميت «بالبابية» - فهو باب الوصول - وذلك قبل أن تتحول «البابية» إلى «البهائية» على يد تلميذه ميرزا حسين على نوري [١٢٣٣ - ١٣٠٩ هـ - ١٨١٧ - ١٨٩٢ م] - الذى تلقب بـ «بهاء الله» - . .

والمعنى الشرعى للباب - أى التوبة - هو اللائق بعقيدة الإسلام ، التى لا تقيم حواجز كهنوتية بين الإنسان وخالقه ، قاله أقرب إلينا من حبل الوريد ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ ﴾ [١٧] . . والتوبة هى باب الإنسان إلى معية الله وحضرته ، ومعية رسوله - عليه الصلاة والسلام .

## الوجودية

● الوجودية : رؤية فلسفية للوجود الإنساني ، ظهرت في أوروبا - عقب الحرب العالمية الأولى [١٩١٤ - ١٩١٨م] - في ألمانيا أولا ، ثم في فرنسا . . ثم امتد انتشارها - بعد الحرب العالمية الثانية [١٩٣٩ - ١٩٤٥م] - إلى الأوساط الفلسفية في أوروبا وأمريكا . . وبلاد الشرق والجنوب .

وتنطلق الفلسفة الوجودية من وحدة الذات والموضوع ، والنظر إلى الإنسان باعتباره وجودا . . وسبيلها في المعرفة هو الحدس . . وهي تولى الحرية ، بمعنى الاختيار الفردي ، اهتماما شديدا ، مع عزل الحرية والاختيار عن الضرورات الموضوعية والقوانين والسنن التي تحكم الواقع وتحيط بالإنسان . . فالحرية - في الوجودية - هي الغاية ، وهي تعنى تحرير الفرد من المجتمع . .

ولقد أجادت الوجودية استخدام الفن والأدب ، بما في ذلك المسرح ، في نشر فلسفتها . .

وفي إطار الفلسفة الوجودية تمايزت تيارات ، أبرزها :

- ١ - تيار الوجودية المؤمنة بالدين - كما هي عند الفيلسوف الفرنسي جابريل مارسيل . . والألماني كارل ياسبرز [١٨٨٣ - ١٩٦٩م] . . والروسي نيقولاى الكسندروفيتش برديائييف [١٨٧٤ - ١٩٤٨م] والألماني مارتن بوبر [١٨٧٨ - ١٩٦٥م] .

٢ - والوجودية الإلحادية - كما هي عند الألماني مارتن هيدجر . . والفرنسي جان بول سارتر . . والفرنسي البير كامو [١٩١٣ - ١٩٦٠ م] .

ومع أن الوجودية غير العلمانية ، إلا أنها - ككل الفلسفات الغربية - فلسفة علمانية النزعة ، تعزل الدين عن الحياة - في تيارها الملحد - وتعزله عن الدولة - في تيارها المؤمن - لأن الإيمان - ككل الفلسفة الوجودية - مجرد نزعة ذاتية واختيار فردي ، لا علاقة له بالدولة أو السياسة أو الاجتماع . .

ولقد تراجعت ، بل وانهارت وتدهورت الفلسفة الوجودية في العقود الأخيرة . . وربما لن يدخل منها إلى القرن الواحد والعشرين سوى التاريخ .



● حركة عالمية وتنظيم دولي ، نشأ بأوروبا في عصورها الوسطى ، وتميز باختلاف ما يعلن من شعارات عن ما يبطن من مقاصد وأسرار . .  
فالماسون- في محافلهم- يسمون أنفسهم «البنائون الأحرار» ، ويرفعون شعارات الثورة الفرنسية : ( الحرية - والإخاء - والمساواة ) ، ويدعون إلى التحرر من سلطة الكهانة البابوية ، ويبرزون الإخاء الديني بين كل المنتسبين إلى محافلهم ، من كل الديانات- عندما يستبعدون الهوية الدينية للأعضاء . . لكن حقائق مقاصد الماسونية - التي انضحت علاقاتها باليهودية والصهيونية- كشفت عن أنها تستخدم التحرر من العصبية الدينية سبيلا للتدخل من الانتماء الديني- وخاصة لدى غير اليهود- فتدويب الخصوصيات الدينية- فضلا عن مضاره- إنما يتم لحساب اليهودية والصهيونية . . كما أن ألغاز تعاليم الماسونية تسهم- بالتدريج ، وبشكل غير مباشر- في تشكيك الأخذين بها في موارثهم وعقائدهم الدينية . . وذلك فضلا عن ما تكشف عبر القرن المنصرم من علاقة الماسونية بالصهيونية ، وليس فقط باليهودية . . فالماسونية «تعلمن» أعضاءها من غير اليهود ، وذلك خدمة للأقلية اليهودية ومخططاتها الصهيونية . .

وعندما تكشف هذه البواطن والمقاصد الماسونية لبعض المجتمعات والدول الإسلامية ، فأغلقت المحافل الماسونية ، عادت لتسرب تحت لافتات أندية وتنظيمات عالمية أخرى ، من مثل «الروتاري» و «الليونز» وأمثالهما .



فى عرف الفقهاء وعلماء الكلام وكتاب الفكر السياسى فى تراث العرب والمسلمين . تعنى البيعة ذلك الاتفاق التعاقدى القائم على ركنين أساسيين :

١ - ركن الإيجاب .. ويتمثل فى «أهل الاختيار» . أو «أهل الحل والعقد» ، الذين ينوبون عن الأمة فى مبايعة المرشح للخلافة والإمامة . كى يصبح بهذه البيعة خليفة وإماماً .

٢ - وركن القبول .. ويتمثل فى ذلك المرشح للخلافة . والذى يصبح . بهذه البيعة . أميراً للمؤمنين .

ولقد عرفت الحياة العربية هذا المصطلح قبل قيام نظام الخلافة عقب وفاة الرسول . عليه الصلاة والسلام . فلقد كان واحداً من مصطلحات التجارة والبيع والشراء . يعنى : صفقة اليد بين البائع والمشتري . دلالة على الاتفاق على الصفقة .. ولا زال معروفاً فى الأسواق العامة العربية . على هذا النحو . حتى الآن .

وعندما نشأ نظام الخلافة ، وتبلور للعرب المسلمين فكر سياسى فى الإمامة ، أصبحت البيعة تعنى : صفقة اليد من المبايع - [بكسر الياء] - ليد الأمير الممدودة طلباً للمبايعة ، أى وضع اليد فى اليد ، دلالة وإعلاناً على الاتفاق على صفقة «العقد الاجتماعى» بين ركنى وطرفى : الإيجاب والقبول .

وكانت البيعة تتم على مرحلتين - [درجتين] - :

الأولى : بيعة الخاصة .. وهم الذين عرفوا بـ [أهل الحل والعقد] وهي بمثابة «الترشيح» والتزكية والتمييز لشخص الإمام والخليفة من بين الأقران الذين يرشحهم للمنصب توافر شروطه فيهم .

والثانية : بيعة العامة .. وهم جمهور الأمة ، وتأتي بيعتهم عقب بيعة «الترشيح» التي يقوم بها ممثلوهم - [أهل الحل والعقد] - . ولقد كانت دائرة «العامة» هؤلاء تتسع أو تضيق وفق العصر والظروف والملابسات .. ولكنها وقفت عند جمهور العاصمة . كمرحلة أولى ، ثم كانت بيعة جمهور عواصم الأقاليم أشبه ما تكون ببيعة «الموافقة والتصديق» .

ولقد كانت بيعة السقيفة - سقيفة بني ساعدة - بالمدينة المنورة ، عقب وفاة الرسول ﷺ ، هي عقد التأسيس لنظام الخلافة ودولتها .. ففي ١٣ ربيع الأول سنة ١١ هـ ( ٨ حزيران - يونيو سنة ٦٣٢ م ) رشح عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح : أبا بكر الصديق ، للخلافة ، وبايعه الحاضرون من زعماء الأوس والخزرج ، البيعة الأولى ، بيعة الخاصة ، ثم عقدت له في اليوم الثاني . بالمسجد ، البيعة الثانية ، بيعة العامة .. واستمر الحال على ذلك فيما بعد - [انظر مصطلح : «المهاجرون»] - .

لكن تراث العرب المسلمين السياسي ، في البيعة ، قد عرف قبل بيعة السقيفة عدة بيعات ، ومنها ما كان بمثابة العقد الاجتماعي الذي تأسست به أول دولة للعرب المسلمين ..

ففى «العقبة» - وهى مكان على يسار الطريق الواصل بين مكة ومِنى - كانت لقاءات الرسول ﷺ . مع زعماء عرب يثرب - [المدينة] - من الأوس والخزرج . وكانت مبايعتهم له على الإيمان «بالدين» الجديد ، والتأسيس «للدولة» الجديدة . . ولقد تمت هذه اللقاءات فى مواسم الحج المتعاقبة ، بعد البعثة وقبيل الهجرة . . ومن المؤرخين من يجعلها اثنتين ، ومنهم من يعدها ثلاثاً . . وهى ، على الرأى الثانى :

**بيعة العقبة الأولى :** وكان المبايعون فيها من الخزرج فقط ، وعددهم ستة ، هم : أبو أمامة أسعد بن زرارة ، وعوف بن الحارث ابن رفاعة - [أبن عفراء] - ، ورافع بن مالك بن العجلان ، وقطبة بن عامر بن حديدة ، وعقبة بن عامر نابى ، وجابر بن عبد الله بن رثاب . وكانت بيعتهم على الإيمان بالإسلام ، بعد أن عرضه عليهم الرسول ودعاهم إليه . وما أعان هذا النفر من الخزرج على الاستجابة ، وأسرع بهم للبيعة ، ما كان بينهم وبين جيرانهم من يهود يثرب من صراعات ، ولم يكن لتأسيس «الدولة» مكان ملحوظ فى عقد هذه البيعة .

**بيعة العقبة الثانية:** تمت فى موسم الحج الذى تلا البيعة الأولى . . وكان عدد المبايعين فيها اثنى عشر رجلاً ، اثنين من الأوس وعشرة من الخزرج - منهم خمسة من السنة الذين عقدوا البيعة الأولى - وهم - من الخزرج - : أبو أمامة أسعد بن زرارة ، وعوف بن الحارث بن رفاعة - [أبن عفراء] - ، ورافع بن مالك بن العجلان ، وقطبة بن عامر بن حديدة ، وعقبة بن عامر بن نابى ،

ومعاذ بن الحارث بن رفاعه ، وذكوان بن عبد القيس الزرقى ،  
وعبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم . وأبو عبد الرحمن بن يزيد  
بن ثعلبة البلوى . والعباس بن عبادة بن نضلة . أما اللذان يابعا من  
الأوس فهما : أبو الهيثم بن التيهان . وعويم بن ساعدة .

ولم يكن تأسيس الدولة - ولا القتال - ملحوظاً فى عقد هذه  
البيعة أيضاً ، وإنما كانت بيعتهم على أن : لا يشركوا بالله شيئاً ،  
ولا يسرقون ، ولا يزنون ، ولا يقتلون أولادهم - [وأد البنات] - . ولا  
يأتون ببهتان . ولا يعصون الله فى معروف .

وعقب البيعة ، وعند عودتهم إلى يثرب . بعث معهم الرسول  
اثنتين من أصحابه لتعليم القرآن والدين والدعوة إليه ، وهما :  
عبد الله بن أم مكتوم ، ومصعب بن عمير .

بيعة العقبة الثالثة : وكانت فى الموسم التالى لموسم البيعة الثانية ،  
وبعدها تمت هجرة الرسول من مكة إلى المدينة . . وكان المبايعون  
فيها خمسة وسبعين ، منهم امرأتان . . ولقد مثل الأوس فى هذا  
العدد أربعة عشر ، وكان للخزرج الباقي . .

وفى عقد هذه البيعة وضحت البنود السياسية لتأسيس «الدولة»  
الجديدة - إلى جانب الإيمان «بالدين الجديد» - فلقد اتفقوا على  
هجرة الرسول وأصحابه إلى بلدهم . وأخذ لنفسه الموائيق  
والضمانات ، واتفقوا على حفظه وحمايته ومنعه مما يمنعونه منه  
أنفسهم ونساءهم وأبناءهم ، وبإيعوه على أن يحاربوا معه «الأسود  
والأحمر» ، أى كل من يعاديه ويعتدى عليه وعلى دعوته فى  
موطنه الجديد .

ومن هذا النفر ، الذين غدوا أشبه ما يكونون «بالجمعية التأسيسية» للدولة العربية الإسلامية ، اختار الرسول اثني عشر نقيباً ، أصبحوا هم قادة الأنصار في مجتمع المدينة المسلم ، تسعة من الخزرج . هم : أبو أمامة أسعد بن زرارة ، وسعد بن الربيع ، وعبد الله بن رواحة ، ورافع بن مالك بن العجلان ، والبراء بن معرور ، وعبد الله بن عمرو بن حرام ، وسعد بن عباد بن ذئلم ، والمنذر بن عمرو بن خنيس ، وعباد بن الصامت . . . وثلاثة من الأوس . هم : أسد بن حضير ، وسعد بن خثمة بن الحارث ، ورافعة بن عبد المنذر .

والمؤرخون الذين يجعلون «بيعة العقبة» بيعتين ، لا ثلاثاً . يسقطون من حسابهم الأولى . ويجعلون الثانية هي الأولى . والثالثة هي الثانية . . . وواضح للم تأمل على أنها . جميعاً . بيعة واحدة . تمت على مراحل . وتطورت بنود عقدها . وثما محتواه حتى أصبح عقد تأسيس «دولة» . بعد أن بدأ بالاستجابة والاهتداء . فقط . إلى الإسلام «كدين» . .

وغير بيعة تأسيس الدولة العربية الإسلامية الأولى . وبيعة تأسيس دولة الخلافة الراشدة . يذكر تراثنا وتاريخنا - بعد القرآن الكريم - :

بيعة الرضوان (تحت الشجرة) : ولقد تمت في الحديبية - وهي قرية سميت باسم بشر - وبينها وبين مكة مسيرة يوم - . . وكان المسلمون قد خرجوا من المدينة إلى مكة قاصدين العمرة في ذي القعدة سنة ٦ هـ (مارس - إبريل سنة ٦٢٨ م) . فاعترضت قريش طريقهم . وأبت السماح لهم بأداء شعائر العمرة في بيت الله بمكة

- ولم تكن قد فتحت- فأقام المسلمون بالحديبية ، وبعث الرسول إلى قريش عثمان بن عفان ، مفاوضاً ، فاحتجزته قريش ، وشاع أنهم قتلوه . فأعلن الرسول ﷺ في المسلمين : لا نبرح حتى نتاجز القوم . . ودعا الناس إلى «البيعة» على القتال . فتمت «البيعة» تحت شجرة هناك . . والمؤرخون مختلفون في عدد المبايعين يومئذ . فمنهم من يقول إنهم ألف وثلاثمائة . ومنهم من يجعلهم ألفاً وخمسمائة وخمسة وعشرين . . الخ . . الخ . . ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه البيعة عندما قال الله فيها : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [ الفتح : ١٨ ] .

ومنذ ذلك التاريخ . تاريخ تأسيس الدولة العربية الإسلامية . وتبلور التراث السياسي العربي الإسلامي . اتخذ مصطلح البيعة تلك المعاني . واستمر كذلك حتى الآن .

ولقد اتفقت كل فرق الإسلام . باستثناء الشيعة ، على أن «البيعة» هي الطريق لتولي الخليفة والإمام السلطة العليا بالدولة . . أما الشيعة فانفردوا بجعل الإمامة شأنًا سماويًا . أوصى به الله سبحانه إلى نفر بذاتهم وعينهم بذواتهم لهذا المنصب . ومن ثم فلا مكان فيه للبيعة . ولا رأى فيه للمبايعين- [ انظر مصطلح : «الإمام» ] - .

الشائع في التراث السياسي الإسلامي ، وفي مباحث علم الكلام أن مصطلح الإمام مرادف لمصطلحي : الخليفة ، وأمير المؤمنين . . وأن «الإمامة» هي : الخلافة ، وإمارة المؤمنين . . لكن هذا الشائع ليس بدقيق !

فدولة الخلافة ونظامها بدأت عقب وفاة الرسول ﷺ ، وكان «الخليفة» أو خليفة رسول الله ، هو لقب أبي بكر الصديق ، أول الخلفاء . . ولا نجد له في وثائق عصره لقباً سواه .

وبعد أبي بكر اختار عمر بن الخطاب - وهو الخليفة الثاني - لنفسه لقب : «أمير المؤمنين» لأسباب وملايسات ذكرها المؤرخون . . ومصطلح «الأمير» لم يكن مستحدثاً ، فلقد عرفته الدولة العربية الإسلامية منذ العهد النبوي ، بل وكان مألوفاً في الحياة السياسية العربية قبل ذلك العهد . . لكنه كان مخصصاً بوظيفة أو إقليم ، فهناك أمير الجيش ، أو أمير الصدقات ، أو أمير إقليم من الأقاليم أو مصر من الأمصار . . الخ . فلما كانت معركة «القادسية» ، وفيها احتشد جمهور المؤمنين لقتال الفرس ، سمي الناس أمير الجيش - سعد بن أبي وقاص - بأمير المؤمنين ، فوجد الخليفة عمر أنه الأحق بهذا اللقب ، وأنه هو الأوفق بالمنصب الذي يتولاه . . ولقد زاد في تزكية هذا اللقب عند عمر أنه مشتق من «الأمر» ، وهو المصطلح الدال على السياسة في القرآن والأدب



السياسي لذلك العصر ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ [الشورى : ٣٨] -  
و «الاتِّمار» هو التشاور ، فهو بعيد عن شبهة خلط سلطة الخليفة  
بالسلطان الديني للنبوة الذي انقضي ب وفاة الرسول ، عليه الصلاة  
والسلام . . ولقد كان عمر حريصاً على اتقاء هذه الشبهات . .  
فاختار عمر لنفسه لقب «أمير المؤمنين» ، ولم نجد له في وثائق  
عصره لقباً سواه .

ولقد استمر عثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب على نهج  
عمر ، وإن وجدنا عثمان يتلقب بلقب الخليفة في بعض  
الأحيان . . وشاع اللقبان في الدولة الأموية وما تلاها . .

حتى كان النصف الثاني من القرن الهجرى الأول ، عندما تبلور  
للشيعة ، كفرقة ، فكرها النظرى فى المنصب الأعلى بالدولة ، وهو  
الفكر الذى انفردت فيه من دون فرق الإسلام بالقول بالطبيعة  
الدينية لهذه السلطة ولصلاحيات صاحبها ، وبأن هذا المنصب  
والتعيين فيه إنما هما من شئون السماء ، لا مدخل فيهما للبشر . لا  
بالاختيار ولا بالمحاسبة ولا بالعزل ، لأن السماء قد اختارت  
أصحاب هذا المنصب وعينتهم وأوصت بذلك إلى الرسول ، عليه  
الصلاة والسلام . . بعد أن تبلور الشيعة فكرها النظرى هذا ،  
وانفردت بصيغ هذه السلطة بالصيغة الدينية ، وجدناها قد اختارت  
لصاحب هذا المنصب لقباً يدل على الطبيعة الدينية لسلطات  
صاحبها ، وهو لقب «الإمام» ! . . فمصطلح «الإمام» يستخدمه  
القرآن فى مقام المسؤوليات الدينية ، لا السياسية ، فهو خاص بالنبوة  
والتقوى أكثر مما هو دال على صاحب السلطان السياسى غير

الدينى . . . وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني  
جاعلك للناس إماماً ﴿ البقرة : ١٢٤ ﴾ - أى نبياً . . . يوم ندعو كل  
أناس بإمامهم ﴿ الإسراء : ٧١ ﴾ - أى بنبيهم ، أو كتاب دينهم .

ولما كان الشيعة هم طلائع المؤلفين فى هذا الفن ، ولما كان هذا  
المصطلح - الإمام - والإمامة - هو الذى شاع فى تاليفهم - ولما كانت  
كتابات خصومهم - وفى طليعتهم المعتزلة - قد جاءت ، فى هذا  
المبحث رداً عليهم وجدلاً معهم ، فلقد استخدم هؤلاء الخصوم  
ذات المصطلح فى أغلب الأحيان . . . وهكذا شاع فى التراث  
السياسى الإسلامى وفى مباحث علم الكلام مصطلح «الإمام ،  
والإمامة» للدلالة على «الخلافة» ، والخلافة - وأمير المؤمنين ، وإمامة  
المؤمنين » ، وذلك رغم الفروق الدقيقة ، والجوهرية ، بين هذه  
المصطلحات ! . .

ولا أدل على هذه الفروق من استخدامات الشيعة أنفسهم فهم  
قد يقبلون الحكماء من غيرهم بالخلفاء ، ولكنهم لا يقبلونهم  
بالأئمة . . . وأنتمهم أئمة حتى ولو لم يتولوا السلطة الزمنية . لأن  
لهم ، وفق نظريتهم ، السلطة الدينية بالنص والتعيين من السماء ،  
فإذا أصبحوا حكاماً زمنيين لقبوهم أيضاً بأمراء المؤمنين . . . فائمة  
الشيعة الإسماعيلية كانوا أئمة حتى أبى عبدالله ، مؤسس الدولة  
الفاطمية ، فلما ظهرت دعوته بالقيروان سنة ٩٠٩م وأصبحت له  
سلطة زمنية تلقب بالخليفة وأمير المؤمنين أيضاً . .

وفى شروط الإمام - (جرباً على الشائع فى استخدام المصطلح) -  
كما فى مصطلحه وطبيعة سلطاته نجد الخلاف الأساسى فى

التراث الإسلامي بين الشيعة وبين سائر فرق الإسلام غير  
الشيعة .

فالإمامة ، عند الشيعة ، امتداد للنبوّة ، وهي تقاس عليها ، ومهام  
الإمام هي مهام النبي ، بل أعم! . . ولذلك فإن من شروط الإمام :

١ - أن يكون معصوماً من الخطأ ، صغيراً كان الخطأ أو كبيراً . .

٢ - وأن يكون أفضل الخلق في الدين . .

٣ - وأن يكون عالماً بالسياسة ، وبجميع أحكام الشريعة ، وحجة  
فيها ، بحيث لا يحتاج إلى غيره . . وأن يكون أشجع الخلق . . الخ .

أما عند غير الشيعة من الفرق فإن الإمامة هي مستوى أعلى في  
«الحكم» ، وعليه تقاس ، ولا علاقة لطبيعتها بطبيعة النبوّة ، ومن  
ثم فإن شروط الإمام هي الشروط الواجب توافرها في إنسان يتولى  
منصب الحاكم الأعلى في الدولة . . وبعد الاتفاق على طبيعة  
السلطة اختلفوا في تعداد الشروط ، تبعاً للإجماع والتفصيل ،  
وانطلاقاً من مواقع اجتماعية متباينة وأفكار سياسية متنايرة . .  
وجمهور المتكلمين ومفكرى السياسة في التراث الإسلامي  
يشترطون في الإمام :

١ - العدالة . . بمعنى أن لا يكون فاسقاً ، سواء فسق رأى  
أو جارحة . . والفاسق هو من يرتكب ذنباً من الكبائر دون توبة . .  
وهذا الشرط لا يشترطه أحمد بن حنبل ، إذ يطلب الاعتراف  
بإمامة الفاسق إذا تغلب على السلطة ، ويرى ذلك ضرراً أخف من  
ضرر الثورة والمقاومة! .

٢ - العلم .. المؤدى إلى الاجتهاد فى الأمور الطارئة والمحدثة والأحكام ..

٣ - سلامة الخواس .. من السمع والبصر واللسان ، ليتأتى له مباشرة سلطانه ..

٤ - سلامة الأعضاء .. بحيث تسلم من النقص الذى يعوقه عن مهامه ..

٥ - رأى .. بمعنى أن يكون ذا قدرات تفضى به إلى حسن سياسة الرعية وتدبير مصالحها ..

٦ - الشجاعة والنجدة .. المؤدية إلى حماية الوطن وجهاد العدو ..

٧ - النسب القرشى .. بأن يكون من قريش .. وقدامى المتكلمين ، خوارج ومعتزلة ، لم يشترطوا هذا الشرط .. وهولم يظهر فى هذا المبحث إلا بعد أن ظهرت الشعوبية والعداء للعرب ، وبعد تغلب الأسر غير العربية على أطراف الدولة وسيطرتهم الفعلية على الخلافة وطمعهم فيها ، فى العصر العباسى الثانى ، فكان ظهور هذا الشرط رمزاً للولاء للعروبة ، ورفضاً للسلطة غير العربية على الأمة العربية .١

وجمهور المتكلمين ومفكرو السياسة ، من غير الشيعة ، متفقون على حق الأمة ، ممثلة فى «أهل الحل والعقد» ، فى الرقابة على تصرفات الإمام .. والتيار الغالب منهم يجعل الثورة واحدة من الطرق التى على الأمة أن تسلكها لخلع الإمام إذا ما كفر ، أو فسق ، أو ضعف عن النهوض بالمهام التى أوكلت إليه الأمة

النهوض بها . . يرى ذلك : الخوارج ، والمعتزلة ، والزيدية ، وكثير من المرجئة ، وعدد من أئمة الأشعرية . ويعارض ذلك أهل الحديث ، بزعمهم أحمد بن حنبل ( ١٦٤ - ٢٤١ هـ / ٧٨٠ - ٨٥٥ م ) وجمهور من أئمة الأشعرية . . والذين أوجبوا « الثورة » - عند الاقتضاء - طريقاً للتغيير انطلقوا إلى قولهم هذا من الموقف القرآني والأصل الإسلامي الذي يوجب على المسلمين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وهو الموقف والمبدأ الذي يجعل « الفعل » مقدماً على « القول » إذا ما وازن الإنسان بين أدوات التغيير . . فقد ورد في القرآن الكريم : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [ آل عمران : ١٠٤ ] والرسول ﷺ يقول : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » ! .





## دولة الإسلام الأولى



( ١ - ١١ هـ ، ٦٢٢ - ٦٣٢ م )

وهي أول دولة للعرب المسلمين في التاريخ . وكانت السلطة العليا فيها لنبي الله ورسوله محمد بن عبد الله - ﷺ - وفي المدينة . . ( يثرب ) - مارست هذه الدولة سلطتها وتضمنت مجتمعها ووضعت دستورها الأول . وكان ذلك منذ السنة الأولى للهجرة غير أن عقد تأسيس هذه الدولة يعود تاريخه إلى ما قبل الهجرة بثلاث سنوات . ففي ثلاثة مواسم للحج . متتالية . قبل الهجرة . كان التعاقد على تأسيسها يتم . ويتأكد . ويتزايد العاقدون له والقابلون بتنفيذ بنوده .

ولقد كانت البداية . عندما لقي الرسول . في موسم الحج . بمكة . ستة من سكان يثرب . كلهم من قبيلة الخزرج . فعرض عليهم دينه ودعاهم إلى دعوته فأجابوه . وتعاهدوا معه على الهجرة إلى بلدهم . ودعوة قومهم لدينه . وقيادتهم في بناء مجتمع جديد يتوحد فيه الأنصار . وتعلو فيه كفتهم على كفة اليهود الذين كانوا يمارسون في يثرب وضع الغزاة الذين حولوا عربها إلى «موالي» مواطنين من الدرجة الثانية .

والذي يؤكد هذا الطابع السياسي الذي اشتمل عليه عقد تأسيس هذه الدولة - إلى جانب أمور الدين الخالصة - أن الرسول

عندما لقي هؤلاء النفر سألهم : من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج.. قال:  
أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم.. قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى ..  
فجلسوا معه . فدعاهم إلى الله . وعرض عليهم الإسلام .

ويذكر المؤرخون جميعاً دور العامل السياسى فى استجابة هؤلاء  
النفر من الأنصار لدعوة الإسلام وتسايقهم لإبرام عقد تأسيس  
هذه الدولة . عندما يتحدثون عن أن اليهود كانوا يقيمون يشرب  
« وأنهم أهل كتاب وعلم. بينما كان الأنصار أهل شرك وأوثان. وكانوا قد  
غزوه م ببلادهم. فكانوا إذا كان بينهم شىء قالوا اللهم: إن نبياً مبعوث  
الآن. قد أظلم زمانه. نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم.. فلما كلم رسول  
الله أولئك النفر من الخزرج. قال بعضهم لبعض: يا قوم. والله إنه لنبى  
الذى توعدكم به يهود. فلا تسبقنكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه..  
وقالوا له: إننا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم.  
وعسى أن يجمعهم الله بك. فتقدم عليهم فتدعوهم إلى أمرك. وتعرض  
عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين. فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل  
أعز منك...»

وفى موسم الحج التالى . بعد عام . بلغ عدد الأنصار الذين  
جددوا هذا التعاقد وأكدوه اثنى عشر رجلاً . فيهم إثنان من قبيلة  
الأوس والباقيون من الخزرج . . وبعد عام ارتفع عدد المبايعين  
المتعاقدين على تأسيس هذه الدولة فى بيعة العقبة الثالثة إلى  
ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين . مثل الأوس فيهم أحد عشر والباقيون  
من الخزرج . وقادهم فى عقد البيعة اثنا عشر نقيباً تسعة منهم من  
الخزرج وثلاثة من الأوس . . أبرموا عقد تأسيس الدولة العربية



الإسلامية الأولى ، واتفقوا على أن عاصمتها هي (المدينة) - يثرب - يحكم منها الرسول ويقوم فيها حتى بعد أن يفتح الله عليه مكة التي ولد ونشأ فيها . .

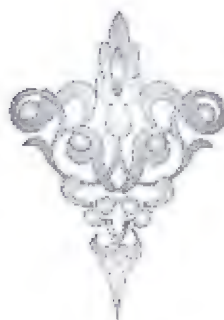
وفي يثرب . بعد الهجرة . بدأت الدولة الجديدة بناء المجتمع الجديد . كما شرعت في إعداد العدة للدفاع عن هذا المجتمع ضد المشركين . . وفي التنظيم السياسي للمجتمع الجديد كانت القبائل المسلمة تكون جماعة مسلمة واحدة . ثم دخلت هذه الجماعة المسلمة في حلف سياسي مع القبائل العربية غير المسلمة ومع القبائل اليهودية . يحصون بموجبه . جميعاً . يثرب وملحقاتها من غزو مشركي مكة ومن حالفهم من الأعراب . . واستمر هذا الحلف السياسي حتى عم الإسلام عرب يثرب وحتى نقضه اليهود أثناء غزوة الأحزاب (والخندق) .

ولقد كوّن المهاجرون القرشيون حياً لقريش بالمدينة . فكانوا قبيلة قريش في يثرب . وعقد الرسول بينهم مؤاخاة . ثم ضمّهم والأنصار مؤاخاة ثانية تشاركوا جميعاً بموجبها في : ١ - الثروة وأموال المعاش ٢ - والحق . أي الدين والنصرة فيه ٣ - والميراث بعد الموت . . ثم نسخ الاشتراك في الميراث . وتخصص بذوى الأرحام وبقيت المؤاخاة بين أعضاء المجتمع الجديد في الثروة والحق .

وكانت قيادة القرشيين المهاجرين لتلك الهيئة التي كانت بمثابة حكومة للرسول عليه الصلاة والسلام وهي التي اشتهرت باسم «المهاجرين الأولين» . وهم عشرة . أحاطت بيوتهم . مع الرسول .

بالمسجد . الذى كان دارا للحكومة . واحتصوا بأبواب تربط بين  
 بيوتهم وبين ساحة المسجد . . وكانوا فى الصلاة يقفون خلف  
 الرسول . وفى القتال يقاتلون أمامه . . وفيهم كان ثقل أهم بطون  
 قبيلة قريش . . واشتهر فى الإسلام أنهم المبشرون بالجنة . . وبعد  
 وفاة الرسول ظلت سلطة الخلافة خاصة بهم مقصورة عليهم .  
 وكانوا حريصين على أن يذهبوا الأنصار إلى الفرق بينهم عندما قالوا  
 لهم : نحن الأمراء وأنتم الوزراء - أى المستشارون - . . ولقد يادر  
 الثنا من هذه الهيئة بمقد الخلافة لثالث منها فى سقيفة بنى  
 ساعدة - عندما عقد عمر وأبو عبيدة لأبى بكر - وشاورهم أبو بكر  
 عندما أراد العهد إلى عمر . . وكون عمر من بقيتهم الأحياء -  
 وكانوا ستة - مجلس الشورى الذى اختار عثمان بن عفان . .  
 فكانت «هيئة المهاجرين الأولين» هى حكومة دولة المسلمين  
 الأولى التى كان الرسول نبيها وحاكمها . . وهؤلاء المهاجرون  
 الأولون هم : أبو بكر . وطلحة بن عبيد الله . وهما من تيم - وعمر  
 بن الخطاب . وسعيد بن زيد - وهما من عدى - وعبد الرحمن بن  
 عوف . وسعد بن أبى وقاص - وهما من زهرة - وعلى بن أبى  
 طالب . وهو من هاشم - وعثمان بن عفان - وهو من أمية - والزبير  
 بن العوام - وهو من أسد - وأبو عبيدة بن الجراح - وهو من قهر . .  
 ومن المدينة . قاعدة الدولة الجديدة . خرجت القوات التى أمنت  
 للدعوة الجديدة ودولتها الاستمرار والانتشار . والوفود والرسائل إلى  
 القبائل والملوك والرؤساء . حتى تم فتح مكة . واعترفت قبائل شبه

الجزيرة وحواضرها بالسلطة السياسية الجديدة التي وجدت العرب تحت رايات الإسلام . . وبين هذه القبائل . في مضاربها وفي حواضرها . بدأت تتكون وتنمو قسماات جهاز الدولة الجديدة . فكان هناك : قضاة . وعمال يجلبون الصدقات . إلى أن تأسست قواعد جهاز الدولة وبلغت ذروة نضجها في دولة الخلافة الراشدة . خاصة على عهد خليفتها الثاني عمر بن الخطاب .





## دولة الخلافة الراشدة



( ١١ - ٤١ هـ ، ٦٣٢ - ٦٦١ م )

تعتبر ثانية دول العرب المسلمين ، وامتداداً لدولتهم الأولى التي أسسها وقادها الرسول محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام . . وهي قد تكونت عقب وفاته مباشرة بعد جدل دار بين ممثلي المهاجرين الأولين ، وهم الحى المدنى من قبيلة قريش الذين سبق قادتهم إلى الإسلام واستوطنوا المدينة بعد هجرتهم من مكة . وممثلى الأنصار . وهم سكان المدينة الأصليون . وبالدات - قبيلتى الأوس والخزرج . . ولقد انتهى هذا الجدل - الذى تم فى سقيفة بنى ساعدة ، بأخذ البيعة لأبى بكر الصديق ( ٥١ ق هـ - ١٣ هـ ) فأصبح أول خليفة فى دولة الخلافة الراشدة . . تلك الدولة التى اتخذت من المدينة عاصمة لها . . والثى استمر حكمها تسعة وعشرين عاماً .

ولقد قامت هذه الدولة على أساس من فلسفة الشورى . فكان خلفاؤها يتم تنصيبهم بشورى أهل الرأى فى العاصمة الذين كانوا يبسايعون واحداً من هيئة « المهاجرين الأولين » العشرة أو « الصحابة » . الذين كانوا بمثابة حكومة الرسول . والذين اشتهروا بالعشرة المبشرين بالجنة . . فاخضعت هذه الهيئة بالمنصب واختص رؤساء المدينة بالشورى والاختيار والبيعة ، أو إبداء الرأى والتصديق على ترشيح الخليفة القائم للخليفة الجديد .

ومنذ البداية حرص خلفاء هذه الدولة على تأكيد طابعها المدني والتمييز بين طبيعتها وطبيعة الدولة والسلطة في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وذلك لانقطاع الوحي ، وتام الدين ، وتقرير أن سلطان النبي الديني ليس قابلا للميراث ، ومن هنا كان الحرص على أن لا تبدأ الخلافة في الفرع الهاشمي من قريش حتى لا تكون فيها شبهة الميراث فتتأبد في آل بيت الرسول .

وأخطر ما واجهته هذه الدولة ، بعد قيامها ، هو رفض القبائل العربية المسلمة ، في غير مكة والمدينة والطائف ، الخضوع لسلطانها ، وكان منع تسليم الصدقات للخليفة بادرة هذا الوهن الذي تعرضت له وحدة الدولة ، فدارت تلك الحرب السياسية التي عرفت في التاريخ «بحروب الردة» ، وانتهت بإعادة وحدة عرب شبه الجزيرة . ثم بدأت الدولة موجة فتوحاتها المظفرة ضد الدولة الفارسية فحررت العراق من نفوذها وطاردت جيشها حتى هزمته وأخضعت الفرس لحكم الخلفاء ، كما حررت المستعمرات الشامية ومصر وأجزاء من شمالي إفريقيا من حكم الروم البيزنطيين ، وأدخلتها جميعاً في إطار دولة الخلافة .

وفي عهد عمر بن الخطاب (١٣ - ٢٣ هـ) ثانی خلفائها ، وأبرزهم ، اكتملت لهذه الدولة سمات الإمبراطورية ، ووضعت الأسس لنظمها المالية والإدارية والعسكرية . وفي عهد عثمان بن عفان (٢٣ - ٣٥ هـ) برزت الصراعات الاجتماعية والقبلية عندما ظهرت سيطرة بنى أمية على عصب الأجهزة المالية والإدارية في الدولة ، حتى بلغت الحد الذي يمكن معه اعتبار سنوات حكمه

الستة الأخيرة هي فترة التأسيس للدولة الأموية التي كرس انتصارها ، فيما بعد ، معاوية بن أبي سفيان ( ٢٠ ق هـ - ٦٠ هـ ، ٦٠٣ - ٦٨٠ م ) . . وبعد أن انتهت هذه الصراعات بثورة احتلت العاصمة وقتلت الخليفة عثمان ، بايع الثوار علياً بن أبي طالب ( ٢٣ ق هـ - ٤٠ هـ ، ٦٠٠ - ٦٦١ م ) ولكن الأمويين وأنصارهم . من أهل الشام خاصة ، رفضوا الاعتراف بخلافته ، واستمر صراعهم ضده وضد أنصاره ، الذين كان أغلبهم من أهل العراق ، حتى استشهد على ، وأكث مقاليد السلطة إلى معاوية ، فانتهت بذلك فترة حكم الخلفاء الراشدين .

أما وصف «الراشدة» الذي أطلق على هذه الدولة ، ووصف «الراشدين» الذي وصف به خلفاؤها ، فلعل له صلة بطابعها المدني . . فالإنسان كان ولا يزال خليفة لله في الأرض ، وقبل ختام دورة النبوة والرسالة ، كان هذا الخليفة تحت وصاية السماء ، تبعث إليه الرسل والأنبياء كلما انحرف عن الشريعة ، أما ختام الرسالات والنبوات بمحمد ﷺ فإنه المؤذن ببلوغ الإنسان مرحلة «الرشد» ، وهنا ترتفع عنه الوصاية ، وتصبح السلطة في دولته ذات طابع مدني ، وليست سلطة دينية كما كانت ، مثلاً ، في تاريخ العبرانيين . . فهذا الإنسان ، الخليفة «الراشد» ، قد أصبح يحكمه «خلفاء راشدون» .

## الدولة الأموية

(٤١ - ١٣٢ هـ ، ٦٦١ - ٧٥٠ م)

وسميت بذلك لأن مؤسسها هو معاوية بن أبي سفيان بن أمية ، ولقد كانت عصبية قريش متجلية في الفرع الأموي أكثر من تجليها في أي فرع آخر من فروع هذه القبيلة ، فتوارث أبناء هذا الفرع المسؤوليات والمناصب ذات الخطر المادي والعسكري في مكة منذ ما قبل الإسلام ، فلما كانت النبوة والرسالة في الفرع الهاشمي لعب الأمويون دوراً قيادياً في مناهضة الإسلام ورسوله ، حتى دانوا بالدين الجديد مخافة القتل عندما فتحت مكة بجيش الإسلام (سنة ٨ هـ) .

وبعد وفاة الرسول كان الأمويون دعاة لجعل السلطة في قريش لا في الأنصار ، وعندما ولي الخلافة عثمان بن عفان بن أبي العاص ابن أمية ، اتخذ الأمويون هذا الظرف سبيلاً لفرض سيطرتهم على مقاليد دولة الخلافة ، مما أدى إلى ثورة قتلت عثمان ونصبت علياً ابن أبي طالب ، فناهضوها ورفضوا الاعتراف بشرعية تغييراتها السياسية ، ومضوا في طريقهم حتى اجتمع لهم الأمر بقيادة معاوية بن أبي سفيان (سنة ٤٠ هـ ٦٦١ م) عندما خلص لهم الحكم فتأسست دولتهم واتخذوا دمشق عاصمة لها .

وفي العهد الأموي اكتملت للعرب مقومات إمبراطوريتهم ،



وعرفوا عدداً من الخلفاء الذين دخلوا التاريخ كساسة ورجال دولة من الطراز الأول في ذلك التاريخ ، كما امتدت رقعة الدولة لتشمل شعوباً وأقطاراً جديدة ، ولكن اعتمادهم على سلاح العصبية القبلية قد امتد ليميز ما بين المواطنين من أصل عربي والآخرين المتحدرين من أصلاب غير عربية - الموالي - فخلق ذلك المناخ ردود فعل تمثلت في الحركات الشعبية المناهضة للعروبة ودولتها ، كما استمر اضطهادهم ، بل وتصاعد . ضد بنى هاشم وآل بيت الرسول . مما مكن كل أخرجين عليهم من التستر برايات آل البيت ذات الظلال المهيبة والتأثير الكبير ، فتعرضت الدولة لثورات شبه مستمرة من قبل : الخوارج ، والشيعة ، والمعتزلة ، وأشراف مكة الذين تزعمهم عبدالله بن الزبير ( ١ - ٧٣ هـ ٦٢٢ - ٦٩٢ م ) .

ولم ينقذ الدولة من الانهيار المبكر سوى خليفتها الفذ عبد الملك بن مروان ( ٢٦ - ٨٦ هـ : ٦٤٦ - ٧٠٥ م ) فأتاح لعمرها أن تمتد حتى يشهد تولي أربعة عشر خليفة للحكم فيها . كان آخرهم مروان بن محمد ( ١٢٧ - ١٣٢ هـ ٧٤٤ - ٧٥٠ م ) الذي ختمت الثورة الهاشمية عهده وعهد الدولة الأموية بنقلها السلطة والسلطان إلى العباسيين .

ولكن نهاية الحكم الأموي بدمشق لم يكن ختام صفحات حكمهم ، فلقد فر أحد أمراء البيت الأموي ، وهو عبد الرحمن الداخل ، حفيد خليفتهم العاشر هشام بن عبد الملك ، قبيل أرض الأندلس ( ١٣٧ هـ : ٧٥٥ م ) وأسس هناك الإمارة ، ثم الخلافة الأموية بالأندلس ، وهي التي شهدت عصر الازدهار الحضارى الذى تتلمذت عليه أوروبا ، واستمر بها الحكم الأموى حتى ( ٤٢٤ هـ ١٠٣١ م ) .



## الدولة العباسية



(١٣٢ - ٩٢٢ هـ - ٧٥٠ - ١٥١٧ م)

خليفته الأولى (أبو العباس) عبدالله بن محمد، السفاح (١٣٢ - ١٣٦ هـ - ٧٥٠ - ٧٥٣) .. ومؤسسها الحقيقي هو خليفته الثاني أبو جعفر عبد الله بن محمد المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ - ٧٥٣ - ٧٧٤ م) .. وهي أطول دولة الإسلام عهداً، فلقد امتد زمن حكم خلفائها أكثر من سبعمائة عام .. وبلغ عدد خلفائها أربعة وخمسين خليفة .. ولكن هذه الدولة قد مرت بثلاثة أدوار :

١ - دور الازدهار: الذي امتد منذ تأسيسها (سنة ١٣٢ هـ - ٧٥٠ م) حتى نهاية عهد خليفته العاشر المتوكل (٢٤٧ هـ - ٨٦١ م) .. وفي هذه الفترة التي بلغت مائة وخمسة عشر عاماً شهدت الدولة ذلك الازدهار المادي والارتقاء الفكري اللذين كونا ملامح الحضارة العربية الإسلامية وجسدا ما نسميه بالعصر الذهبي لهذه الحضارة، فأصبح لنا ولإلسانية ذلك التراث الخالد المضيء .

٢ - دور المحافظة والتفكك: الذي بدأ بعد المتوكل وانتهى بمقتل آخر خلفائها ببغداد - أبو أحمد عبدالله المستعصم بالله - على يد هولاكو في ١٤ صفر ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م - وفي هذا العهد تميزت فكرية الدولة بالمحافظة أو الجمود، وانتقلت أنشطة الفكر ومراكز ازدهاره إلى الدويلات التي تكونت واقتسمت جسم

الإمبراطورية ، حتى عاشت بغداد ، العاصمة . وخليفتها أسرى لبعض سلاطين هذه الدويلات . ولم يكن للخليفة في أغلب سنوات ذلك الدور سوى اللقب الذى يضرب على السكة (النقد) والدعاء لاسمه على المنابر يوم الجمعة . . ولقد استنفذ هذا الدور من عمر الدولة أربعة قرون وتسع سنوات . توالى فيها على عرشها سبع وعشرون خليفة .

٣ - دور الخلافة الشكسية : الذى بدأ بنقل المماليك فى مصر مركز الخلافة العباسية إلى القاهرة ببيعتهم أبا القاسم أحمد المستنصر بن الظاهر خليفة فى ١٣ رجب ٦٥٩ هـ ١٢٦١ م . . وتوالى من بعده خلفاء ليس لهم من الأمر شيء ، بلغ عددهم سبع عشرة خليفة ، كان آخرهم المتوكل الثالث بن المستمسك الذى فتح العثمانيون على عهده مصر . فانتتهت بهذا الفتح قصة الخلافة العباسية ٩٢٢ هـ ، ١٥١٧ م .

والدولة العباسية ، مثلها فى ذلك مثل الدولة الأموية . قام نظام الحكم فيها زمن قوتها على فلسفة التوارث . المغلفة بولاية العهد وأخذ البيعة من ولاة الأمر للخليفة المرشح فى عهد الخليفة صاحب السلطان . أما فى عهود ضعفها فكان منصب الخلافة لعبة لرؤساء الجند وسلاطين الدويلات الذين فرضوا نفوذهم الحقيقى على عرش بغداد .

## الدولة الإدريسية

(١٧٢ - ٣٦٤ هـ ، ٧٨٨ - ٩٧٤ م)

تكونت دولة الأدارسة بالمغرب فى القرن الثانى الهجرى .  
 وأميرها الأول هو إدريس (الأول) إدريس بن عبد الله بن الحسن  
 (١٧٢ - ١٧٧ هـ ، ٧٨٨ - ٧٩٣ م ) وهو أمير علوى شارك فى إحدى  
 ثورات العلويين بالمدينة المنورة ضد المهدي العباسى ، وبعد فشلها فر  
 إلى المغرب حيث كانت قد استقرت هناك جماعة من ثوار آل  
 البيت الذين كانوا على مذهب المعتزلة . بعد فشل ثورتهم ضد  
 المنصور العباسى بالمدينة والبصرة سنة ١٤٥ هـ ، سنة ٧٦٢ م . .  
 وكانت قيادة معتزلة المغرب هؤلاء لإسحاق بن محمود بن  
 عبد الحميد ، الذى استقبل الأمير العلوى ، حيث قاد ثورتهم التى  
 نجحت فى إقامة دولة الأدارسة كأول دولة شيعية - مذهبها  
 الاعتزال - فى تاريخ الإسلام السياسى بالمغرب .

وفى البداية اتخذت مدينة «وليلي» عاصمة لها . ثم نقلت مقر  
 حكمها إلى «فاس» بعد عشرين عاماً من تأسيسها ، وبسطت  
 سلطانها على مدن : ترغة ، والبصرة ، والعلية ، وفاس ، ومطغرة ،  
 ووحد ، وطنجة ، وتجر جر ، ووزيعة ، وورغة ، ووطيط وواطيل ،  
 وياجرهان ، ووازقور .

ولقد تعاقب على الحكم فيها اثنا عشر أميراً ، وإن تكن السلطة

ففيها قد انقسمت بعد موت أميرها إدريس الثاني (١٧٧ - ٢١٣ هـ ، ٧٩٣ - ٨٢٨ م) .

ولقد انتهت هذه الدولة بفعل التوسعات التي قام بها الفاطميون من جانب والضغط الذي مارسه ضدها خلفاء الأندلس الأمويون من جانب آخر . ولكنها ظلت تمثل لقرنين من الزمان : التجسيد لحلم الثوار العلويين الذين تمذهبوا بمذهب المعتزلة ، في الثورة على العباسيين ، والبديل عن ثورتهم المشرقية التي أحمدوها المنصور والمهدي وغيرهما من خلفاء بني العباس .



## دولة الأغلبية

(١٨٤ - ٢٩٦ هـ ، ٨٠٠ - ٩٠٩ م)

دولة سنية أسسها في تونس - التي كانت تسمى «أفريقية» يومئذ - أول أمرائها : إبراهيم (الأول) ابن الأغلب بن سالم بن عقال ابن خفاجة بن سودة التميمي (١٨٤ - ١٩٧ هـ ، ٨٠٠ - ٨١١ م) وكان قبل استقلاله بهذه الإمارة أميراً عليها من قبل هارون الرشيد . وقد أدى استقلال إفريقية الأغلبية عن العباسيين إلى انحسار سلطانهم عن المغرب ، لأن الأدارسة كانوا قد استقلوا بما هو إلى الغرب من إفريقية .

وكانت القيروان عاصمة الدولة الأغلبية ، وتحول مسجدُها الجامع الذي أقاموه إلى واحدة من أقدم دور العلم في دول الإسلام ، وفي القرن الذي حكموا فيه هذه البلاد ثم تعريبها وإسلامها ، فحلت العربية محل اللاتينية والإسلام مكان المسيحية . ونشط أسطول لهذه الإمارة في البحر المتوسط ففتح صقلية ووطد بها سلطان المسلمين ، كما استولى على مالطة وسردينيا ، وشن العديد من الغارات على الشواطئ الجنوبية لأوربا البحر المتوسط .

لما نهاية هذه الدولة فإنها قد جاءت عندما فر أميرها الحادي عشر : أبو مضر زيادة الله (الثالث) (٢٩٠ - ٢٩٦ هـ ، ٩٠٣ - ٩٠٩ م) أمام الفتح الفاطمي الذي تكونت بواسطته القاعدة الأولى لدولة الفاطميين .

## الدولة الطولونية

( ٢٦٦ - ٢٩٢ هـ ، ٨٧٩ - ٩٠٥ م )

قامت في مصر في ظل الدولة العباسية . ومؤسسها هو أحمد بن طولون ( ٢٢٠ - ٢٧٠ هـ ، ٨٣٥ - ٨٨٤ م ) الذي عين نائباً لوالى مصر ، الغائب عنها ، فى ٢٥٤ هـ ، ٨٦٨ م ، فدبر للاستقلال بها عن خلافة بغداد ، وكان انشغال الخلافة بثورة الزنج مناسبة لإعلان أحمد بن طولون استقلال مصر ٢٦٦ هـ ، ٨٧٩ م عندما رفض مساعدة الخلافة فى قمع ثورة الزنج . . ولقد استطاع ابن طولون أن يضم سورية إلى مصر تحت حكمه المستقل فى نفس السنة التى أعلن استقلالها عن خلفاء بغداد .

ولقد بنى ابن طولون مدينة « القطائع » عاصمة لدولته المستقلة . . وخلفه فى الحكم ابنه أبو الجيش خمارويه ( ٢٧٠ - ٢٨٢ هـ ، ٨٨٤ - ٨٩٥ م ) . . ثم أبو العساكر جيش بن خمارويه ( ٢٨٢ - ٢٨٣ هـ ، ٨٩٥ - ٨٩٦ م ) . . ثم أبو موسى هارون بن خمارويه ( ٢٨٣ - ٢٩٢ هـ ، ٨٩٦ - ٩٠٤ م ) . . ثم أبو المناقب شيبان بن أحمد ( ٢٩٢ هـ ، ٩٠٥ م )

وبعد هذا التاريخ عادت تبعية مصر لخلافة بغداد ، بعد أن حققت لها الدولة الطولونية أول استقلال تمتعت به منذ عهد البطالسة ، وأول وحدة ضمتها مع سورية منذ الحكم الفرعونى القديم .





## الدولة الزيدية (اليمنية)



(٢٨٠ - ٦٩٧ هـ ، ٨٩٣ - ١٢٩٧ م)

و ( ١٥٩١ - ١٩٦٣ م )

أسسها بصعدة وصنعاء إمامها الشيعي الزيدي : الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي ، بعد أن نجح فيما فشل فيه أسلافه من الرسيين الذين قاتلوا لإقامة دولة زيدية باليمن . . وبعد قيامها دخلت في حروب عديدة ضد جيرانها ، ومنهم القرامطة والأيوبيون .

ولقد امتد عهدها الأول إلى عام ٥٦٩ هـ ١١٧٣ م حين انهزم إمامها علي الوحيد بن حاتم أمام تور انشاء ( الأول ) الأيوبي . . وبدأ عهدها الثاني بإمامها المنصور عبد الله بن حمزة ( ٥٩٣ - ٦١٤ هـ ، ١١٩٦ - ١٢١٧ م ) وانتهى مع نهاية القرن السابع الهجري . . ثم تلت ذلك دولة أئمة صنعاء الحديثة ، وهم زيدية كذلك ، وهي التي بدأت بإمامها القاسم المنصور بن محمد بن علي بن محمد ( ١٠٠٠ - ١٠٢٩ هـ ، ١٥٩١ - ١٦١٩ م ) وظلت قائمة حتى ثورة اليمن في ١٩٦٣ م .

## الدولة الفاطمية

( ٢٩٧ - ٥٦٧ هـ ، ٩٠٩ - ١١٧١ م )

ينتسب خلفاؤهم إلى آل بيت الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، فهم شيعة ، علويون في نسبهم ، إسماعيليون في مذهبهم . . . ولقد تأسست دولتهم أول الأمر في تونس واتخذت القيروان عاصمة لها ، ثم أقام خليفتها الأول المهدي أبو محمد عبيد الله ( ٢٩٧ - ٣٢٢ هـ ، ٩٠٩ - ٩٣٤ م ) مدينة «المهدية» عاصمة لخلافته ٣٠٨ هـ ، ٩٢٠ م .

وفي عهد الخليفة الرابع : المعز لدين الله ، أبو تميم محمد ( ٣٤١ - ٣٦٥ هـ ، ٩٥٢ - ٩٧٥ م ) نجح قائده جوهر الصقلي ( ٣٨١ هـ ، ٩٩٢ م ) في فتح مصر ( ٣٥٨ هـ ، ٩٦٩ م ) ، وفيها بنى مدينة القاهرة التي أصبحت عاصمة للخلافة الفاطمية بعد أن حضر إليها المعز لدين الله بأهله وبيت مائه ورجال دولته ، بل وبرفات أجداده ( ٣٦٣ هـ - ٩٧٣ م ) .

ولقد اعتبر الفاطميون أن فتحهم لمصر ، واتخاذ القاهرة عاصمة لخلافتهم هو بداية لرجحان كفة دولتهم على دولة بني العباس في بغداد ، وسرعان ما امتد نطاق حكمهم ليشمل سورية ، بل لقد حكموا من محيط الأطلسي حتى البحر الأحمر واليمن ومكة

ودمشق ، بل وبلغ سلطانهم الموصل وكادوا يقتحمون بغداد على خلفاء بنى العباس .

وكان الأسطول الفاطمي يفرض سلطانه على البحر الأبيض المتوسط ، بل ويهدد الشواطئ الجنوبية لأوروبا .

وفي عهدهم اكتملت لمصر قسمتات عربيتها ، ورغم مذهب الدولة الشيعي المخالف لمذهب الشعب السني فإن سماحة الخلفاء المذهبية قد ساعدت على امتزاجهم بأرض مصر وشعبها ، حتى كانت تسمى : الدولة المصرية ، ويطلق على جيشها : العساكر المصرية . . ومن الأزهر ، الذي تحول من مسجد جامع إلى جامعة فكرية ، ومن دار الحكمة التي أنشأها خليفتهم المتفلسف الحاكم بأمر الله ( ٣٨٦ - ٤١١ هـ ، ٩٩٦ - ١٠٢١ م ) . ومن تنظيماتهم المذهبية انبعثت الأفكار والمقولات والمذاهب التي أغنت الواقع الفكري لحضارة العرب المسلمين .

والخلفاء الفاطميون يبلغ عددهم أربعة عشر خليفة ، آخرهم : العاضد ، أبو محمد عبد الله ( ٥٥٥ - ٥٦٧ هـ ، ١١٦٠ - ١١٧١ م ) الذي انتهت الدولة بوفاته وقامت عقبها الدولة الأيوبية السنية بقيادة سلطانها صلاح الدين الأيوبي .

وبقدر ما شهدت الدولة الفاطمية من مظاهر التحضر والازدهار والرخاء المادي الذي بلغ حد الترف لدى قطاعات من مجتمعيها . فهي قد شهدت من العوامل السلبية والشدائد والأزمات ما أودي بحياتها . . فمن المجاعات التي نشأت عن نقص مياه النيل حيناً واحتكار التجار أحياناً ، إلى سيطرة الجند وصراعاتهم على

السلطة ، إلى التهديد الصليبي الذي أخذ يمد بصره إلى احتلال مصر كي يمنع صحتها وقيادتها العرب والمسلمين ضد كياناته الاستيطانية التي أقامها بفلسطين والشام . . وهي جميعها عوامل قد تحالفت على انهيار هذه الدولة التي بلغت مصر في ظلها مراتب متقدمة على درب تحضرها العربي الإسلامي .





## الدولة الحمدانية



(٣١٧ - ٤٠٦ هـ ، ٩٢٩ - ١٠١٥ م)

ونسبها إلى حمدان بن حمدون ، من قبيلة تغلب العربية ، وهي شيعية المذهب ، تأسست أولاً بشمالى العراق ، واتخذت الموصل عاصمة لها ، وذلك على عهد أميرها ناصر الدولة أبو محمد الحسن (٣١٧ - ٣٥٨ هـ ، ٩٢٩ - ٩٦٨ م) . وفى عهد أميرها سيف الدولة أبو الحسن على (٣٠٣ - ٣٥٦ هـ ، ٩١٥ - ٩٦٧ م) استولوا على حلب وحمص ، فكونوا دولته بالشام على حساب الإخشيديين . .

وفى بلاطهم بحلب ازدهرت الحركة الفكرية ، وكان الفارابى (٢٦٠ - ٣٣٩ هـ ، ٨٧٤ - ٩٥٠ م) واحداً من الأعلام الذين احتضنهم بلاط الحمدانيين ، كما خلد المتنبى (٣٠٣ - ٣٥٤ هـ ، ٩١٥ - ٩٦٥ م) قتال سيف الدولة ضد البيزنطيين .

وعندما ناءت هذه الإمارة بعبء الصراع ضد البيزنطيين من ناحية والفاطميين من ناحية أخرى ضمها آخر أمراءها - مرتضى الدولة أبو نصر منصور بن لؤلؤ - إلى الفاطميين (٤٠٦ هـ ، ١٠١٥ م) .

## الدولة البويهية

(٣٢٠ - ٤٤٧ هـ ، ٩٣٢ - ١٠٥٥ م)

ينحدر أمراؤها من أصول عرقية غير عربية ، فهم من قبيلة جبلية سكنت الديلم على الساحل الجنوبي من بحر قزوين ، ولقد بدأت حياتهم الإدارية والسياسية في خدمة آل سامان ، ثم بدأت عملية تكوين إمرتهم في عهد أميرهم عماد الدولة أبو الحسن علي ( ٣٢٠ - ٣٣٨ هـ ، ٩٣٢ - ٩٤٩ م ) بعد احتلالهم أصفهان وشيراز التي اتخذوها عاصمة لدولتهم .

وفي عهد ثالث أمرائهم : معز الدولة أبو الحسين أحمد بن بويه امتد نفوذهم إلى بغداد ، فسيطروا عليها . وفرضوا نفوذهم على خليفته الذي أصبح لعبة في أيديهم ، تولية وعزلاً ، بل وقتلاً . . ولقب أمراؤهم منذ ذلك الحين بلقب : أمير الأمراء ، وأضيفت أسماؤهم إلى أسماء الخلفاء في خطبة الجمعة وعلى السكة (النقود) .

وفي عهد خامس أمرائهم : عضد الدولة أبو شجاع فناخسرو ( ٣٦٧ - ٣٧٢ هـ ، ٩٤٩ - ٩٨٣ م ) اتسعت دولتهم حتى قاربت خلافة بغداد في عهد هارون الرشيد . . كما نافست في الفكر والإنشاءات عصور ازدهار الدولة العباسية ، فاتصل ببلاط عضد الدولة - الذي تلقب بلقب : شاهنشاه - وجهاز دولته أعلام في الفكر والطب والتاريخ والأدب من أمثال : مسكويه

(٤٢١ هـ ، ١٠٣٠ م) والرازي الطبيب الفيلسوف (٢٥١ - ٣١١ هـ ، ٨٦٥ - ٩٢٣ م) والمتنبي (٣٠٣ - ٣٥٤ هـ ، ٩١٥ - ٩٦٥ م) وأبو علي الفارسي (٢٨٨ - ٣٧٧ هـ ، ٨٤٣ - ٩٨٧ م) كما ازدهر في ظل هذه الدولة ، التي كان التشيع مذهبها ، نشاط جماعة (إخوان الصفاء وخلان الوفاء) ، وعرف فكر المعتزلة صحوته من خلال تسامحها ، وكان إمام المعتزلة عبد الجبار بن أحمد (٤١٥ هـ ، ١٠٢٤ م) قاضى القضاة فيها ، كما تولى وزارتها الصاحب بن عباد (٣٢٧ - ٣٨٥ هـ ، ٩٣٨ - ٩٩٥ م) الذي كان على مذهب أهل العدل والتوحيد .

ولقد انهارت الدولة البويهية بدخول القائد السلجوقي طغرل بك بغداد (٤٧٧ هـ ، ١٠٥٥ م) في عهد الأمير البويعي : الملك الرحيم أبو نصر خسرو فيروز ، الذي كان الأمير الثالث عشر في أمراء هذه الدولة .







## الدولة الإخشيدية



(٣٣٣ - ٣٥٧ هـ ، ٩٣٥ - ٩٦٩ م)

أسسها بمصر أبو بكر محمد بن طغج الإخشيد (٢٦٨ - ٣٣٤ هـ ، ٨٨٢ - ٩٤٦ م) الذي بدأ والياً عليها من قبل الخليفة العباسي ، فنهج نهج أحمد بن طولون ، واستقل بها ، ثم ضم إليها سورية ، وبعد ذلك أضاف إليها مكة والمدينة وإقليم الحجاز .

وحكام هذه الدولة بعد مؤسسها هم : أبو القاسم أنوجور بن الإخشيد ( ٣٣٤ - ٣٤٩ هـ ، ٩٤٦ - ٩٦٠ م) وأبو الحسن علي بن الإخشيد (٣٤٩ - ٣٥٥ هـ ، ٩٦٠ - ٩٦٦ م) وأبو المسك كافور (خادم الإخشيد) (٣٥٥ - ٣٥٧ هـ ، ٩٦٦ - ٩٦٨ م) وأخيراً أبو الفوارس أحمد بن علي (٢٥٧ هـ ، ٩٦٩ م) .

وبعد ذلك نجح القائد الفاطمي جوهر الصقلي في فتح مصر فأصبحت عاصمة لخلافة الفاطميين .



## الدولة الغزنوية



(٣٥١ - ٥٨٢ هـ ، ٩٦٢ - ١١٨٦ م)

وتنسب إلى عاصمتها «غزنة» الواقعة على قمة هضبة عالية تشرف على سهول الهند الشمالية ، وتتصل بها بواسطة وادي كابل ، في أفغانستان . . ومؤسس هذه الدولة الأول هو المولى التركي ألب تكين الذي عمل أولاً في خدمة بني سامان ، أما المنشئ الحقيقي لها فهو ابنه سيكتكين (٣٦٦ - ٣٨٧ هـ : ٩٧٦ - ٩٩٧ م) وفي عهد ابنه محمود الغزنوي (٣٩٠ - ٤٢١ هـ ٩٩٩ - ١٠٣٠ م) بلغت ذروة اتساعها وازدهارها ، فهو الذي فتح بلاد البنجاب فدخلها الإسلام بعد غزوات عدة شنّها على الهند ، وأصبحت الدولة تضم شمال الهند وعراق العجم وخراسان وطخارستان وسجستان وأجزاء من بلاد ما وراء النهر . . وكان لقب محمود الأمير ، ودعى بالغازي لكثرة حروبه ضد عسир المسلمين .

وكانت الدولة الغزنوية ، التي توالى على حكمها ستة عشر أميراً ، سنية المذهب ، فحسنت علاقتها بخليفة بغداد ، والخليفة القادر (٣٨١ - ٤٢٤ هـ ، ١٠٣١ م) هو الذي لقب محمود الغزنوي بلقب : يمين الدولة .

ولقد صلب العالم الفذ أبو الريحان البيروني (٣٦٢ - ٤٤٠ هـ  
٩٧٣ - ١٠٤٨ م) الجيش الغزنوي في فتحه للهند ، وأمضى هناك  
أربعين عاماً يدرس حضارتها وديانته وفلسفتها ، كما أهدى الشاعر  
الفردوسي (٣٢٠ - ٤١١ هـ ، ٩٣٢ - ١٠٢٠ م) ملحمة «الشاهنامه»  
إلى محمود الغزنوي .





## الدولة السلجوقية



(٤٢٩ - ٥٨٢ هـ ، ١٠٣٧ - ١١٨٦ م)

يرجع نسب هذه الدولة إلى قبيلة «الغز» التركمانية ، وهي من القبائل الرحل ، تبعت زعيمها سلجوق فاتحدروا من سهول كرغيز ببلاد التركستان إلى ناحية بخارى ، حيث اعتنقوا الإسلام وتذهبوا بالمذهب السني ، وبالفارات والحروب وصلوا خراسان ثم استولوا على مرو ونيسابور وبلخ وجرجان وطبارستان وخوارزم وهمدان والرى وأصبهان ، فاقتطعوا بذلك أجزاء من الدولة الغزنوية والدولة البويهية . . ولقد اتخذوا أصبهان عاصمة لإمارتهم ، وتلقب أميرهم بلقب : السلطان .

وفي عهد ركن الدولة طغرل بك أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق (٤٢٩ - ٤٥٥ هـ ١٠٣٧ - ١٠٦٣ م) أزاحوا عن بغداد وخليفاتها نفوذ بني بويه ، ومارسوا هم السيطرة فيها . . ثم امتدت دولتهم فشملت الشام بعد أن اقتطعته من الدولة الفاطمية ، وحاربت جيوشهم الروم البيزنطيين فانتزعت منهم آسيا الصغرى ، حيث نشروا فيها الإسلام وأقاموا بها إحدى إماراتهم التي تصدرت ، مع إماراتهم بالشام حملات الغزاة الصليبيين .

ولقد عرفت هذه الدولة ، غير العربية ، عهداً من الازدهار

التعليمى والفكرى على عهد وزيرها القذ نظام الملك أبو محمد  
الحسن الدهستانى (٤٠٩ - ٤٨٥ هـ ، ١٠١٨ - ١٠٩٣ م) . وفى  
هذا العهد عاش وكتب وأنتج أعلام ، منهم أبو حامد لغزالى (٤٥١ -  
٦٠٥ هـ ، ١٠٥٩ - ١١١١ م) وعمر الخيام (٥١٥ هـ ، ١١٢١ م)  
وناصر خسروا (٤٦٧ هـ ، ١٠٧٤ م) .

ولقد ظلت بقية من الدولة السلجوقية قائمة حتى اكتسحها ،  
فى فارس (كرمان) : جنكيز خان فى القرن الثالث عشر الميلادى  
(٦١٩ هـ ، ١٢٢٢ م) ، أما فى آسيا الصغرى فقد أسلمت السلطة  
لفرع من قبيلة « الغز » هم الأتراك العثمانيون (٥٨٢ هـ ، ١١٨٦ م) .





## دولة المرابطين



( ٤٤٨ - ٥٤١ هـ ، ١٠٥٦ - ١١٤٦ م )

دولة سنيّة محافظة في مذهبها الديني ، أقامت سلطاتها السياسية بالمغرب بعد ان نشأت في البداية كحركة دينية بدأها أحد الصالحين من قبيلة صنهاجة ، الذي أقام «رباطاً» - مركز عبادة مسلح ، تعد فيه حراسة الوطن قرية يتقرب بها إلى الله - في جزيرة تقع أسفل السنغال . . ثم انتشرت «الرباطات» ، وتكوّن «المرابطين» جيش من ألف مجاهد نشر الإسلام بين القبائل الرنجية ، وفي ( ٤٤٨ هـ : ١٠٥٦ م ) أسس أميرهم الأول أبو بكر بن عمر اللمتوني الصنهاجي ( ٤٤٧ - ٤٨٠ هـ ، ١٠٥٦ - ١٠٨٧ م ) هذه الدولة ذات الأصل البربري ، والتي بسطت سلطانها على المغرب والأندلس وحكمت من السنغال إلى نهر الأيبر ومن المحيط الأطلسي إلى الجزائر .

وفي عهد أميرهم الثاني يوسف بن تاشفين ( ٤٨٠ - ٥١٠ هـ ، ١٠٨٧ - ١١٠٦ م ) بنيت مدينة مراكش ، التي أصبحت حاضرة الدولة . ولما ضعف ملوك الطوائف . بالأندلس ، وانتزع منهم ألفونسو السادس ، ملك قشتالة ، طليطلة ، استنجدوا بيوسف بن تاشفين ، فعبر جيشه إلى الأندلس وانتصر على الفرنجة في معارك عدة من أشدها شهرة وحسماً معركة الزلاقة ( ٤٧٩ هـ ، ١٠٨٦ م )

ولما تكشفت للأمير يوسف حالات الضعف والفوضى التي عليها  
ملوك الطوائف ألحق بلادهم بإمارته ، ثم عاد إلى المغرب ليحكم  
البلاد كلها من هناك .

ولقد نهض المرابطون بمهمة نشر الإسلام في أنحاء عدة من  
غربي إفريقيا ، مثل ملكة غانا القديمة وغيرها ، وكان تنظيمهم  
الديني المعتمد على «الرباطات» يلعب الدور الأول في هذا  
النشاط . . غير أن هذا التنظيم قد أدى إلى فرض سيطرة الفقهاء ،  
من أتباع المذهب المالكي ، على الحياة الفكرية في البلاد ، فضاقت  
مجاللات الفكر الفلسفي ، حتى عدت كتب أبي حامد الغزالي  
(٤٥١-٥٠٥ هـ ، ١٠٥٩ - ١١١١م) من الفكر المتحرر فأحرقت  
وحرّم تدريسها . . ولقد أذن ذلك بانهيار الدولة ، فورثتها دولة  
الموحدين عندما توفي الأمير المرابطي السادس إسحاق بن علي  
(٥٤١ هـ ، ١١٤٦م) في العام الذي دخل فيه مراكش جيش  
الموحدين .





## الدولة الزنكية

(٥٢١ - ٦٤٨ هـ ، ١١٢٧ - ١٢٥٠ م)

وتسمى ، بحسب بدايتها : دولة أتابكة الموصل ، أسسها عماد الدين زنكى بن أقسنقر ، وهو ابن رقيق تركى ، وقامت كمؤسسة فروسية عسكرية تمثل الاستجابة الإسلامية للتحديات التى فرضتها على الشرق غزوة الاستيطان الصليبي .

وكانت الخطوة الحاسمة عندما تقدمت جيوشها نحو الغرب فوحدت دمشق مع الموصل ، وانتقلت عاصمتها إليها ، ثم إلى حلب كى تقود منها ، عن قرب ، الصراع المظفر الذى قامت به ضد الصليبيين . . وكان ذلك فى عهد سلطانها الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكى ( ٥١١ - ٥٦٩ هـ ، ١١١٧ - ١١٧٤ م ) . . الذى حرر «كونتية» الرها من الاحتلال الصليبي ٥٤٦ هـ ، ٥٥١ م وأقساماً من إمارة أنطاكية ٥٦٠ هـ ، ١١٦٤ م .

وفى مرحلة من مراحل صراع نور الدين ضد الصليبيين ركزوا ضغطهم على مصر الفاطمية ، مستغلين الخلافات الداخلية بين وزيرى الخليفة العاضد : «شاور» الذى استعان بالصليبيين وحالفهم و «ضرغام» الذى كان يريد محاربة الصليبيين ونفوذهم فى مصر فاستعانت الخلافة الفاطمية ، الشيعية ، بجيش نور الدين السنى ،

وتوحدت جهودهما أمام الخطر المشترك ، فتداعيت الأحداث ، حيث انحسرت موجة التهديد والغزو الصليبي عن مصر ، وتحول قائد جيش نور الدين بمصر - صلاح الدين الأيوبي - من منصب الوزارة إلى منصب السلطان بعد وفاة الخليفة العاضد عام ١١٧١ م ، الأمر الذي مثل البداية الحقيقية لقيام الدولة الأيوبية ، التي ورثت الدولة الزنكية نفسها ، بعد موت نور الدين . . . ولقد كانت نهاية الدولة الزنكية تدريجية ومتعاقبة ، فالأيوبيون قد استولوا على ولاياتها بالشام عام ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) ثم استولوا على ملكها في سنجار عام ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) ، ثم كانت نهايتها التامة عندما استولوا على ملكها في الجزيرة عام ( ٦٤٨ هـ - ١٢٥٠ م ) .



## دولة الموحدين

(٥٢٤ - ٦٦٨ هـ ، ١١٢٩ - ١٢٦٩ م)

أشبهت في قيامها دولة المرابطين ، حيث بدأت حركتها بدعوة دينية سنّية نهض بها إمامها محمد بن تومرت (٤٨٥ - ٥٢٤ هـ ، ١٠٩٢ - ١١٣٠ م) الذي لقب نفسه بالمهدي ، وهو من قبيلة مسمودة البربرية ، ولكن دعوة المهدي بن تومرت قد تميزت عن دعوة المرابطين بسلفيتها الرافضة للبدع وشبهات التشبيه والإشراك بالله- ومن هنا سموا أنفسهم : الموحدين- ويقدر من الاستئارة رفضوا به تشدد الفقهاء وجمودهم كما كان الحال على عهد المرابطين ،

وبعد أن انتشرت دعوة الموحدين بين قبائل جبال الأطلس ، بمراكش ، قاد جيشهم رجل الدعوة القوى : عبد المؤمن بن علي ، من قبيلة زناتة ، فبدأ تأسيس الدولة (٥٢٤ هـ ، ١١٢٩ م) . وفتح مراكش وورث ملك دولة المرابطين (٥٤١ هـ ، ١١٤٦ م) . وكان قد تلقب بلقب أمير المسلمين .

ولم تقف حدود الموحدين عند حدود المرابطين فبعد أن استقر أمرهم في الحدود السابقة للمرابطين ، ضموا كل بلاد الجزائر بحملة سيروها ٥٤٧ هـ ، ١١٥٢ م ، ثم تونس بحملة بعثوا بها ٥٥٣ هـ ١١٥٨ م .

ثم طرابلس بحملة قامت ٥٥٦ هـ ، ١١٦٠ م فشهدت بلاد المغرب أول سلطة توحد كل أقاليمه مع بلاد الأندلس فى دولة واحدة .

وفى بلاط الموحدين علا نجم كوكبة من الفلاسفة والمفكرين والأطباء البارزين ، من بينهم ابن طفيل ( ٥٨١ هـ ، ١١٨٥ م ) وابن رشد ( ٥٢٠ - ٥٩٥ هـ ، ١١٢٦ - ١١٩٨ م ) . . كما كان قيام ابن رشد بوضع شروحه الشهيرة على أعمال أرسطو استجابة لاقتراح أمير الموحدين الثانى : أبو يعقوب يوسف ( الأول ) ( ٥٥٨ - ٥٨١ هـ ، ١١٦٢ - ١١٨٤ م ) .

وفى عهد أميرهم الثالث عشر : أبو العلاء إدريس الوثائق بالله ( ٦٦٥ - ٦٦٨ هـ ، ١٢٦٦ - ١٢٦٩ م ) انقسمت الدولة فأسلمها هذا الانقسام إلى بنى مرين الذين فتحوا مراكش وورثوا ملك الموحدين فى إفريقيا . . أما ملكهم فى الأندلس فكان قد ضاع عقب معركة العقاب ( لاس نفاس ) ٦٠٩ هـ ، ١٢١٢ م التى هزم فيها جيش الموحدين أمام جيش أوروبى موحد شارك فيه الفرنسيون الصليبيون والبرتغاليون والأراغون والنافاريون ، بقيادة الفونسو الثامن .



## الدولة الأيوبية

(٥٦٧ - ٦٤٨ هـ ، ١١٧١ - ١٢٥٠ م)

تأسست بمصر على يد صلاح الدين الأيوبي ، الذي بدأ وزيراً للخليفة الفاطمي العاضد ، ثم صار سلطاناً بعد وفاته التي انتهت بها دولة الفاطميين . . ولخمس سنوات من بدء تأسيسها ظلت تتبع . شكلاً ، الدولة الزنكية بالموصل والشام التي كان يحكمها نور الدين الشهيد ، وعندما توفي نور الدين عام ١١٧٤ م ، استقل صلاح الدين بمصر ، وشرع يخضع أقاليم الدولة الزنكية لسلطانه ، وتم له ذلك تماماً بعد عشر سنوات ، إذ أصبحت سلطنته تضم مصر والمغرب والنوبة وغربي الجزيرة العربية وفلسطين وسورية الوسطى والموصل والعراق .

والدولة الأيوبية مؤسسة ذات طابع حربي ، فهي امتداد للدولة الأتابكة الزنكية التي تأسست بالموصل عام ١١٢٧م كرد فعل عسكري ضد خطر الكيانات الاستيطانية الصليبية . . فكانت الفروسية بمعسكراتها هي مصدر جيشها الكبير ، المكون من عناصر الرقيق التي تجلب في سننها المبكر لتنشأ نشأة إسلامية عسكرية ، وكانت الأرض الزراعية ومصادر الثروة تعطى إقطاعاً حربياً لهؤلاء الجند وقادتهم لقاء صدهم الخطر الصليبي عن بلاد الإسلام .

ولقد قامت ، كدولة سنّية محافظة ، بتصفية مراكز الفكر الشيعى من مصر ، فأغلقت الجامع الأزهر خمس سنوات حتى حولت مناهجه من الشيعة إلى السنّة ، وبددت مكاتب القاهرة التى لم يكن لها فى عصرها نظير ، وطاردت دعاة الفاطميين ، وقضت على بقايا عسكرهم وحرسهم الخاص ، وأقامت المدارس السنّية ، والتكايا والخوانق وشجعت حركات التصوف ، كى تملأ الفراغ الذى ظهر بغياب الفكر الشيعى من البلاد .

وعلى الجبهة العسكرية قاد صلاح الدين سلسلة من المعارك ضد الغزاة الصليبيين وكياناتهم فى فلسطين تصدرت كبريات المعارك والانتصارات التى سجلها العرب عبر تاريخهم الطويل ، حتى استقر ، ولا يزال ، فى ضمير الأمة العربية كواحد من أبرز قادتها العظام . . وفى هذه المعارك حرر كثيراً من المدن والحصون التى كانت فى حوزة الصليبيين ، ومن بينها القدس . . كما صد عن مصر عدداً من محاولات الصليبيين لغزوها . . واستمر هذا الصراع الحربى كقسمة من أبرز قسّمات الدولة الأيوبية حتى بعد عهد صلاح الدين .

وبعد صلاح الدين وفى عهد خلفائه ، كانت إدارة الدولة مزيجاً من المركزية التى تحكم من القاهرة ومن اللامركزية التى أقامت سلطات قوية للأمراء الأيوبيين فى عواصم الامارات ، وخاصة : دمشق وحلب وميافارقين واليمن وبلبك وحمص والكرك وحماء وحصن كيفا وأمد وبانياس وسببية وبصرى . . ولقد تعاقب على

الحكم ، ومن القاهرة العاصمة ، ثمانية سلاطين ، هم : صلاح الدين (٥٦٤ - ٥٨٩ هـ ، ١١٦٩ - ١١٩٣ م) . . والملك العزيز (الأول) عماد الدين أبو الفتح عثمان (٥٨٩ - ٥٩٥ هـ ، ١١٩٣ - ١١٩٨ م) . . والملك المنصور ناصر الدين محمد (٥٩٥ - ٥٩٦ هـ ، ١١٩٨ - ١١٩٩ م) . . والملك العادل (الأول) سيف الدين أبو بكر أحمد (٥٩٦ - ٦١٥ هـ ، ١١٩٩ - ١٢١٨ م) . . والملك الكامل (الأول) ناصر الدين أبو المعالي محمد (٦١٥ - ٦٣٥ هـ ، ١٢١٨ - ١٢٣٨ م) . . والملك العادل (الثاني) سيف الدين أبو بكر (٦٣٥ - ٦٣٧ هـ ، ١٢٣٨ - ١٢٤٠ م) . . والملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧ - ٦٤٧ هـ ، ١٢٤٠ - ١٢٤٩ م) . . والملك المعظم توران شاه (الرابع) (٦٤٧ - ٦٤٨ هـ ، ١٢٥٠ م) .

وبقتل توران شاه انتقلت السلطة إلى المماليك عبر سلطان لم يدم طويلاً للسلطنة شجرة الدر (٦٥٥ هـ ، ١٢٥٧ م) ومن خلال سلطة اسمية للملك الأشرف (الثاني) مظفر الدين موسى بن يوسف بن محمد الذي احتفظ المماليك له بالدعاء على المنابر بينما قامت دولتهم ومارسوا سلطانهم منذ (٦٤٨ هـ ، ١٢٥٠ م) .







## دولة المماليك البحرية



(٦٤٨ - ٧٨٤ هـ ، ١٢٥٠ - ١٣٨٢ م)

أسسها وحكم فيها مماليك السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب الذين حققوا للدولة النصر على حملة لويس التاسع الصليبية في موقعة المنصورة ١٢٥٠ م . وأول سلاطينها هو المعز عز الدين أيبك (٦٤٨ - ٦٥٥ هـ ، ١٢٥٠ - ١٢٥٧ م) الذى تزوج شجرة الدر ثم انفرد بالسلطة دونها . وآخر سلاطين هذه الدولة هو برفوق (٧٨٤ هـ ، ١٣٨٢ م) وهو السلطان الخامس والعشرون فى عدد سلاطينها .

وكان أكثر هؤلاء المماليك من أصل تركى ومغولى . . وسموا بالبحرية لأن معسكراتهم كانت بجزيرة الروضة الواقعة وسط نهر النيل - الذى يسمى عند العامة بحر النيل - قبالة القاهرة وتجاه الجيزة .

ولقد كانت دولة المماليك امتداداً للدولة الأيوبية ، سيطرت على أقاليمها ، وواصلت مهامها القتالية ضد الصليبيين ، وهزمت التتار فى معركة عين جالوت (٦٥٩ هـ ، ١٢٩٠ م) . . كما استمروا يشجعون المذهب السنى ويتنافسون فى إقامة مدارسهم ، وتعد المدارس والمساجد التى أقاموها الشواهد الجسدة للفن الإسلامى فى

العصر الوسيط . . وذلك بالرغم من أنهم قد عاشوا مع جهاز دولتهم الإدارى والحربى بمعزل عن دائرة العروبة بقسماتها الحضارية ، فلقد كانوا فرسان الإقطاع الحربى الذين تصدوا لدفع الخطر الصليبي والمغولى عن الشرق الإسلامى فى مقابل السلطة السياسية والاقتصادية على البلاد .

وكانت السلطة تنتقل فى دولتهم إما من السلطان إلى أقوى مماليكه ، وإما من السلطان المغلوب أو المقتول إلى غالبه أو قاتله .  
ويصنف العصر المملوكى ضمن عصور الجمود الحضارى ، فلقد تميز بالجمع والتصنيف دون الخلق والإبداع والابتكار على وجه العموم .





## الدولة العثمانية



(٦٦٩ - ١٣٤٢ هـ ، ١٢٩٩ - ١٩٢٢ م)

من كبريات الدول الإسلامية ، وأوسعها مساحة ، وأطولها عمرا ، استمرت سلطنتها لأكثر من ستة قرون وتوالى على حكمها ستة وثلاثون سلطانا . .

تكونت على يد الأتراك ، فى آسيا الصغرى حوالى سنة ٦٦٩ هـ ١٢٩٩ م على يد أقدم أمرائها ، وهو السلطان عثمان غازى بن أرطغرل (٦٩٩ - ٧٢٧ هـ ، ١٢٩٩ - ١٣٢٥ م) . . وكان توسعها - فى البداية - على حساب الدولة البيزنطية . . ولقد مثلت الدولة العثمانية السلطة الإسلامية التى جابهت العدوان الأوروبى على الشرق الإسلامى ، فنقلت المعركة إلى الأرض الأوربية ، فى البلقان وحتى أبواب فينا . . وعندما التفت المد الاستعمارى الأوروبى حول العالم الإسلامى ، بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ م ، واستولت جيوشه على البلاد الإسلامية فى شرقى آسيا ، وبدأ تهديده لقلب العالم الإسلامى - الوطن العربى - إبان ضعف الدولة المملوكية - بادرت الدولة العثمانية بضم العالم العربى إلى سلطنتها (٩٩٢ هـ ١٥١٦ م) الأمر الذى جعل منها الجدار الذى أخرج الغزوة الأوربية للشرق العربى لأكثر من أربعة قرون . . ولذلك مثل

العثمانيون في التراث السياسي والثقافي الأوربي قوة الإسلام  
المجاهد ، فتوالت المؤامرات الأوربية ضده على امتداد تلك القرون .  
ولأن تاريخ الدولة العثمانية قد شهد عصر النهضة الأوربية ،  
وثورتها الصناعية ، ومدها الاستعماري العالمي ، وخاصة ضد العالم  
الإسلامي ، كانت المؤامرات والغزوات الأوربية العامل الأول في  
ضعف واضمحلال وزوال الدولة العثمانية . . ولقد ساعد على  
ذلك ثغرات داخلية في البناء العثماني . . من مثل عدم تعرب  
الدولة العثمانية ، رغم غلبة العروبة على رعيتهما ، الأمر الذي أوجد  
«ثغرة قومية» بين العرب والترك ، استغلها ووسعها الطورانيون  
والقوميون العرب الذين تبنوا المفاهيم الغربية للقومية . . وكذلك  
غلبة الطابع العسكري على الدولة ، وضمور الإبداع الحضاري ،  
الأمر الذي جعل الثغرات تتسع ، دون ترميم لها وملافاة لسلبياتها  
بالإبداع والتجديد . . حتى تضاعفت التحديات الخارجية والثغرات  
الداخلية على إسقاط الدولة العثمانية في العقد الثالث من القرن  
العشرين ، فدخل العالم الإسلامي عصر التجزئة ، عندما غاب  
الإطار الجامع ، وغودج الإسلامية لأول مرة في تاريخ الإسلام .





## دولة المماليك البرجية



(٧٨٤ - ٩٢٢ هـ ، ١٣٨٢ - ١٥١٧ م)

ينحدر سلاطين هذه الدولة من العنصر الشركسى ، ولقد جلبوا إلى مصر بعد المماليك البحرية ، وكانوا يكونون فى الأصل الحرس الخاص للسلطان المنصور سيف الدين قلاوون ، أبو المعالى الألفى (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ ، ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م) أحد سلاطين المماليك البحرية . . وتسمية «البرجية» جاءتهم من محل إقامتهم فى أبراج قلعة الجبل بالقاهرة .

وأول سلاطين هذه الدولة هو الظاهر سيف الدين برفوق بن أنس العثمانى اليلبغاوى (٧٨٤ - ٨٠١ هـ ، ١٣٨٢ - ١٣٩٨ م) وآخر سلاطينها هو الأشرف طومان باى (٩٢٢ هـ ، ١٥١٧ م) الذى انتهت دولة المماليك بقتله على يد السلطان العثمانى سليم الأول عندما فتح العثمانيون البلاد وأحقوها بسلطنتهم . . وكان طومان باى هو السلطان الرابع والعشرون فى تعداد سلاطين هذه الدولة .

وتعتبر دولة المماليك البرجية امتداداً واستمراراً لدولة المماليك البحرية فى قسماتها العامة وطابع الحياة فيها وتنوعية منجزاتها ، مع بعض التحولات التى طرأت على جبهات التحديات الخارجية ، فبدلاً من الصراع ضد الصليبيين أو انتشار تحول الصراع

حول امتلاك طرق التجارة العالمية ، وخاصة بعد اكتشاف  
البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح ووصولهم عبره إلى جزر  
الهند ، وهو الأمر الذي أصاب سلطنة المماليك بالضعف الذي  
مكن العثمانيين من الانتصار عليها .

كما برزت في دولة المماليك البرجية ظاهرة انتقال السلطة عن  
طريق التغلب والقتل فطغت على طريق انتقالها بالميراث من  
السلطان إلى كبير مماليكه وأقواهم .





## الدولة المصرية الحديثة



(١٢٢٠ - ١٣٧٣ هـ - ١٨٠٥ - ١٩٥٣ م)

ونقصد بها دولة محمد علي باشا (١١٨٣ - ١٢٦٥ هـ ، ١٧٦٩ - ١٨٤٩ م) وأسرته التي حكمت منذ تأسيس الدولة الحديثة بمصر حتى إعلان الجمهورية في ١٨ حزيران - يونيو ١٩٥٣ م بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ م .

وهذه الدولة قد تأسست بمبادرة من قادة الرأي العام بمصر ، وفي مقدمتهم علماء الشريعة وشيوخ التصوف وكبار التجار ومثلو الخرف والطوائف ، عندما قرروا حق المصريين في اختيار وترشيح محمد علي والياً على مصر بدلاً من الوالي الذي كان السلطان العثماني قد بعث به ليحكم البلاد ، ولقد استجاب السلطان لمرغبتهم فبدأ حكم محمد علي للبلاد .

ولقد صد الشعب غزوة إنجليزية جاءت لاحتلال أرضه من رشيد ١٨٠٧ م ، ثم أجهز النظام الجديد علي بقايا المماليك ١٨١١ م . وأخذ يبنى للدولة جهازها العسكري . وخاصة جيشها الوطني الذي اعتمد على عنصرها المحلي للمرة الأولى منذ الدولة الفرعونية . وبهذا الجيش ساعدت مصر الدولة العثمانية في حربها ضد الوهابيين (١٨١١ - ١٨١٩ م) وفي



اليونان (١٨٢٤ - ١٨٢٦م) . ثم تطلع محمد علي إلى بناء  
إمبراطورية عربية ترث تركة الرجل العثماني المريض فبدأت الحملة  
العسكرية ضد الحاميات التركية في إمارات فلسطين والشام  
(١٨٣١ - ١٨٤١م) . ولما هددت هذه الحملة بعد توحيدها الشام  
مع مصر والحجاز والسودان- بقاء السلطنة العثمانية ، وأذنت بقيام  
دولة عربية قوية موحدة تدخلت أوروبا ، بواسطة الجيش الإنجليزي ،  
ومعاهدة لندن ١٨٤٠ م . لتفرض على محمد علي العودة إلى  
حدود مصر كإقليم .

ولقد تحقق لمصر في ظل هذه الدولة الجهاز الإداري الذي وحد  
أقاليمها بعد أن كانت مقسمة بين المماليك ، وتوحدت كذلك  
مقاييسها وموازينها . . وقامت بها الصناعات الحديثة ، وتميزت  
الإدارة والسياسة عن الدين . وأصبحت حقوق المواطنة هي المعيار  
الذي تتعامل الدولة على أساسه وليست معتقدات الرعايا . . ونشأ  
التعليم المدني . وسافرت البعثات إلى أوروبا . . وصدرت الصحف  
بعد أن دخلت المطابع العربية للبلاد . . وتكونت القيادات الوطنية  
التي أخذت تزاحم العناصر الشركسية والمتمصرة في مختلف  
ميادين البناء الحديث . . وتدخلت الدولة في الاقتصاد الزراعي  
والصناعي والتجاري فشملت نشاطات رأسمالية الدولة كل  
الميادين . . ومثلت البلاد بتجربتها تلك مركز إشعاع أمد الشرق كله  
بأنوار العصر الحديث .

غير أن العقد الأخير من حياة محمد علي شهد غو عوآمل

ضعف التجربة ، بسبب إجبار أوروبا والعثمانيين البلاد على الانكماش من جانب . والتخلي عن جوهر تنظيمها الاقتصادي من جانب ثان وتقليص حجم قواتها المسلحة من جانب ثالث .

ولقد حكمت أسرة محمد علي مصر بنظام الوراثة . ولاية ثم خديويين ثم سلاطين ثم ملوكاً . فبعد محمد علي حكم ابنه إبراهيم (١٢٦٤ هـ ، ١٨٤٨م) . . فعباس الأول (١٢٦٤ - ١٢٧٠ هـ ، ١٨٤٨ - ١٨٥٣م) فسعيد (١٢٧٠ - ١٢٨٠ هـ ، ١٨٥٣ - ١٨٦٣م) الذي بدأ في عصره حفر قناة السويس . . فإسماعيل (١٢٨٠ - ١٢٩٦ هـ ، ١٨٦٣ - ١٨٧٩م) الذي سار بتمدن البلاد خطوات كبرى إلى الأمام ، وتعرضت في عهده للتدخل الأوروبي بحجة ضمان ما عليها من ديون . . فتوفيق (١٢٩٦ - ١٣٠٩ هـ ، ١٨٧٩ - ١٨٩١م) الذي شهد عهده الثورة الوطنية الديمقراطية المعروفة بالثورة العربية (١٨٨١ - ١٨٨٢م) والتي هزمتها جيوش إنجلترا واحتلت عقبها مصر في أيلول - سبتمبر ١٨٨٢ م . . فعباس الثاني (١٣٠٩ - ١٣٣٢ هـ ، ١٨٩١ - ١٩١٤م) . . فحسين كامل (١٣٣٢ - ١٣٣٥ هـ ، ١٩١٤ - ١٩١٧م) . . فأحمد فؤاد الأول (١٣٣٥ - ١٣٥٥ هـ ، ١٩١٧ - ١٩٣٦م) الذي شهد عهده ثورة ١٩١٩ الوطنية الديمقراطية التي حصلت بها مصر على جزء من حريتها . . ففاروق (١٣٥٥ - ١٣٧٢ هـ ، ١٩٣٦ - ١٩٥٢م) الذي عزلته عن العرش ثورة ٢٣ تموز - يوليو ١٩٥٢ م في ٢٦ تموز - يوليو من نفس العام . . فأحمد فؤاد الثاني ، الذي نصبته الثورة ، وهو

طفل . أميراً تحت الوصاية حتى أعلنت الجمهورية في ١٨ يونيو  
١٩٥٣ م .

وبالرغم من أن الكثيرين من خلفاء محمد علي في حكم مصر  
لم يكونوا على شاكلته ، وأن بعضهم قد سبب لمصر نكسات من  
بينها احتلال الإنجليز لها ، إلا أن تأسيس محمد علي للدولة  
المصرية الحديثة هو التاريخ الحقيقي لليقظة العربية الحديثة ، لا في  
مصر وحدها ، بل في الشرق العربي بأسره .



## الفهرس

٣ ..... تقديم

### دعوات..ومذاهب

- ١١ ..... ١ - الدعوة الإسلامية
- ١٩ ..... ٢ - السلف
- ٢٢ ..... ٣ - السلفية
- ٢٧ ..... ٤ - السلفيون
- ٣٢ ..... ٥ - أهل السنة
- ٣٤ ..... ٦ - الأشعرية
- ٣٨ ..... ٧ - أهل الحديث
- ٤٢ ..... ٨ - الحشوية
- ٤٥ ..... ٩ - الخوارج
- ٤٨ ..... ١٠ - النجدات
- ٥١ ..... ١١ - الأزارقة
- ٥٤ ..... ١٢ - المعتزلة
- ٦٢ ..... ١٣ - الزيدية
- ٧٣ ..... ١٤ - الرافضة
- ٧٧ ..... ١٥ - الشيعة
- ٨٧ ..... ١٦ - الكيسانية

٨٩	١٧ - الباطنية
٩٣	١٨ - الإسماعيلية
٩٤	١٩ - القرامطة
٩٩	٢٠ - إخوان الصفا
١٠٢	٢١ - العباسية
١٠٦	٢٢ - الكرامية
١٠٨	٢٣ - الثنوية
١٠٩	٢٤ - السُنيّة
١١٠	٢٥ - الطبائعون
١١٢	٢٦ - الوهابية
١١٩	٢٧ - الجامعة الإسلامية
١٣١	٢٨ - الصحوة
١٣٩	٢٩ - الحزب الوطني الحر
١٤١	٣٠ - العروة الوثقى
١٤٤	٣١ - أم القرى
١٤٧	٣٢ - الإخوان المسلمون
١٦١	٣٣ - جمعية العلماء
١٦٥	٣٤ - الجهاد
١٦٨	٣٥ - التكفير والهجرة

## مصطلحات

- ١٧١ ..... ١ - الوحي الإلهي
- ١٨٤ ..... ٢ - الإصلاح
- ١٨٩ ..... ٣ - الأمة الإسلامية
- ١٩٦ ..... ٤ - الحرية
- ٢٠٨ ..... ٥ - الرق
- ٢١٧ ..... ٦ - الفتنة الكبرى
- ٢٢٤ ..... ٧ - الغدير
- ٢٣٠ ..... ٨ - التحكيم
- ٢٣٥ ..... ٩ - الدهر
- ٢٤١ ..... ١٠ - علم الكلام
- ٢٤٦ ..... ١١ - العلمانية
- ٢٥٣ ..... ١٢ - التكفير
- ٢٦٠ ..... ١٣ - تحرير المرأة
- ٢٦٨ ..... ١٤ - التفاعل الحضارى
- ٢٧٦ ..... ١٥ - المباهلة
- ٢٨٠ ..... ١٦ - باب الوصول
- ٢٨٢ ..... ١٧ - الوجودية
- ٢٨٤ ..... ١٨ - الماسونية
- ٢٨٥ ..... ١٩ - البيعة
- ٢٩١ ..... ٢٠ - الإمام
- ٢٩٧ ..... ٢١ - دولة الإسلام الأولى

٣٠٢	٢٢ - دولة خلافة الراشدة
٣٠٥	٢٣ - الدولة الأموية
٣٠٧	٢٤ - الدولة العباسية
٣٠٩	٢٥ - الدولة الإدريسية
٣١١	٢٦ - دولة الأغالبة
٣١٢	٢٧ - الدولة الطولونية
٣١٣	٢٨ - الدولة الزيدية (اليمن)
٣١٤	٢٩ - الدولة الفاطمية
٣١٧	٣٠ - الدولة الحمداية
٣١٨	٣١ - الدولة البويهية
٣٢٠	٣٢ - الدولة الإخشدية
٣٢١	٣٣ - الدولة الغزنوية
٣٢٣	٣٤ - الدولة السلجوقية
٣٢٥	٣٥ - دولة المرابطين
٣٢٧	٣٦ - الدولة الزنكية
٣٢٩	٣٧ - دولة الموحدين
٣٣١	٣٨ - الدولة الأيوبية
٣٣٤	٣٩ - دولة المماليك البحرية
٣٣٦	٤٠ - الدولة العثمانية
٣٣٨	٤١ - دولة المماليك البرجية
٣٤٠	٤٢ - الدولة المصرية الحديثة





أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٦٨

## هذا الكتاب

● إذا كانت النصرانية الغربية قد ضاقت حتى بالتعددية المذهبية في إطارها ، فكانت الحروب الدينية الأوروبية ، التي هلك فيها ٤٠ ٪ من شعوب أوروبا !! ..

فإن الإسلام قد ازدهرت في حضارته عشرات المذاهب ، التي استظلت بسماحة الإسلام .. وذلك فضلاً عن تعايشه مع الديانات الأخرى ، مساوية ووضعية .

● وإذا كانت المصطلحات هي «أوعية» يستخدمها الجميع ، على اختلاف العنائد والمذاهب والحضارات .. فإن تحرير مضامين هذه المصطلحات هو السبيل لتعميم المفاهيم التي يدور حولها الخلاف ..

● وللكشف عن مذاهب الفكر في حضارة الإسلام .. وتحرير المفاهيم الإسلامية لأكثر المصطلحات تداولاً في حياتنا الثقافية .. وحتى لا تكون حواراتنا «حوارات طُرشان !» . كان هذا الكتاب